

نُورُ الوَعْدِ الإِلَهي

٢- مُقَدِّمَاتُ فِقْهِ التَّمْكِينِ

سعيد أحمد رشيد توكل
ماجستير الشريعة الإسلامية
جامعة الأزهر

الطبعة الإلكترونية الأولى
١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤م

نُورُ الوَعْدِ الإِلَهِي

٢- مُقَدِّمَاتُ فِقْهِ التَّمْكِينِ

سعيد أحمد رشيد توكل
ماجستير الشريعة الإسلامية
جامعة الأزهر

الطبعة الإلكترونية الأولى
١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝﴾

[العلق ١:٥]

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي قدر كل شيء فأحسن قدره، وابتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه ليحسن في الحالتين شكره وصبره، وجعل لعبده مما يكره أملا فيما يحب، ومما يحب، حذار مما يكره، فسبحانه واهب النعم، ومقدر النقم، له الحمد في الأولى والآخرة، لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه، وكل نعيم زائل إلا جنته، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أوذي في سبيل الله ﷻ أبلغ إيذاء، فلم يزده ذلك إلا إيمانا ومضاء، وعلى آله وصحبه الذي كانوا في السراء حامدين شاكرين، وفي الضراء خاضعين صابرين، وسلم تسليما كثيرا.

وبعد

هذه مقدمات أساسية ينبغي الإلمام بها قبل الانغماس في موضوعات فقه التمكين، حيث تعتبر هذه المقدمات نقاطا محورية في الفهم الإسلامي الشامل، الذي يستمد منه فقه التمكين، ويسعى إليه. فهي تمهيد للتفكير العميق في الفهم الإسلامي الشامل، وفي فهم المجتمع المسلم، والحضارة الإسلامية.

ومن الواضح إن هذه المقدمات تشكل جزءا لا يتجزأ من موضوعات فقه التمكين، ولكن إدراجها في سياق فقه التمكين قد يؤثر سلبا على انسيابية الشرح والتوضيح لمحتوياته وقضاياه، الأمر الذي قد يحتم اختصارها، أو الإشارة السريعة إليها، تجنبا للتطويل، أو التشتيت، مما قد يوثر سلبا على الاستفادة الأمثل منها.

ومن هنا تبرز أهمية العرض المستقل لهذه المقدمات، حيث يمكن فيه تفصيلها وبسطها بشكل يسهل فهمها وتطبيقها. إن استيعاب هذه المقدمات يمثل محورا أساسياً في فهم موضوعات فقه التمكين، مع الربط الوثيق بالفهم الإسلامي الشامل.

وكان الله ﷻ قد يسر لي إخراج الكتاب الأول في سلسلة: (نور الوعد الإلهي)، والخاص بلزوم الفروض الكفائية - لتحقيق وعد الله ﷻ بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن – ودور الأفراد والمجتمع المدني في القيام بهذه الفروض، وكنت قد عزمت على استكمال هذه السلسة، وصادف ذلك العزم تشجيع بعض الأحباب على الكتابة في موضوع فقه التمكين، فاستعنت بالله ﷻ وتوكلت عليه، وبدأت في استكمال هذه السلسلة.

فهذه المقدمات هي الكتاب الثاني من هذه السلسلة، ويليها إن شاء الله ﷻ وقدر وأعان: جزء خاص بفقه التمكين (الأساس النظري) ، ثم جزء خاص بالمنهج الحركي لفقه التمكين (الجانب العملي التطبيقي)، حتى تكتمل تلك السلسلة، التي أرجو من الله ﷻ لها التيسير والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وقد اجتهدت في ترتيب هذه المقدمات ترتيبا أعتقد فيه التسلسل في إيراد الفكرة ، حتى يسهل علي القارئ الإلمام بها، وحسن الاستفادة منها. وتشمل هذه المقدمات: الخلافة عقيدة ووظيفة / الخلافة والحضارة / الأمة الإسلامية / الشهود الحضاري / المجتمع المسلم / الدولة الإسلامية / الإمامة والإمام / غربة الإسلام / المبشرات بانتصار الإسلام.

ويتبقى من تلك المقدمات، مقدمة أساسية عن السنن الإلهية، في الأمم والجماعات والأفراد، لكن بسط الشرح والحديث عنها يحتاج إلى مؤلَّف مستقل، ولا يفي بالغرض مجرد إفساح بعض الصفحات لها. فعسى الله ﷻ أن ييسر أيضا إنجازه.

والله ﷻ من وراء القصد، وهو يهدي السبيل، وهو المستعان، وعليه التكلان، ومنه القبول.

المؤلف

٢٨ شعبان ١٤٤٥ هـ

الموافق ٩ مارس ٢٠٢٤ م

المقدمة الأولى

الخلافة عقيدة ووظيفة

الفصل الأول – الخلافة عقيدة إسلامية

الخلافة لغة واصطلاحا

الخلافة لغة

كلمة الخلافة في اللغة مشتقة من : خَلَفَه يَخْلُفُهُ: إذا قام بالأمر عنه، فهي نيابة أو وكالة على الغير، إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المُستخْلَف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله ﷻ أولياءه في الأرض، قال ﷻ : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾[١].

وفي هذا المعنى يقول ابن عاشور: "وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَصْلِ: الَّذِي يَخْلُفُ غَيْرَهُ أَوْ يَكُونُ بَدَلًا عَنْهُ فِي عَمَلٍ يَعْمَلُهُ"، "وَالْمُرَادُ مِنَ الْخَلِيفَةِ الْمَعْنَى الْمَجَازِيُّ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى عَمَلًا يُرِيدُهُ الْمُسْتَخْلِفُ، مِثْلَ الْوَكِيلِ وَالْوَصِيِّ. أَيْ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ مُدَبِّرًا يَعْمَلُ مَا نُرِيدُهُ فِي الْأَرْضِ. فَهُوَ اسْتِعَارَةٌ أَوْ مَجَازٌ مُرْسَلٌ، وَلَيْسَ بِحَقِيقَةٍ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَكُنْ حَالًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا عَامِلًا فِيهَا الْعَمَلَ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِي الْإِنْسَانِ، وَهُوَ السَّلْطَنَةُ عَلَى مَوْجُودَاتِ الْأَرْضِ"[٢].

الخلافة في الاصطلاح

قيل عن الخلافة في الاصطلاح:

١- الخلافة: عبادة طوعيَّة لله ﷻ بالتزام هديه وشرائعه، ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله ﷻ، وعلاقته بالكون والمخلوقات؛ بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح[٣].

٢- الخلافة: اختيار الإنسان وتكليفه من الله ﷻ ليكون خليفته في الأرض، بعبادته وإعمار الأرض وإصلاحها، وهذا تكريم من ناحية، وتكليف من ناحية أخرى[٤].

٣- الاستخلاف: تكليف إلهي للإنسان، ليباشر مهمة الإعمار والبناء في الأرض، وفق إرادة الله ﷻ لتحقق بذلك العبودية الكاملة لله ﷻ في هذا الكون[٥].

---

[١] - الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان عدنان الداودي، ط: دار القلم، الدار الشامية – دمشق – بيروت، ١٤١٢ هـ، (خلف) ص: ٢٩٤. (ش).

[٢] - ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ م، ٣٩٨/١. (ش)

[٣] - السعدي: إسحاق بن عبد الله، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر، ٢٠١٣م، ٨٣٠/٢. (ش)

[٤] - بهاء الدين: شيماء، الاستخلاف، مقال منشور على موقع الفكر الإسلامي والدراسات المعاصرة، يوم ١٧ يناير ٢٠٢٢.
الاستخلاف – مركز الفكر الإسلامي والدراسات المعاصرة(citcs.center)

[٥] - زرمان: محمد، وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم – دلالاتها وأبعادها الحضارية، بحث منشور في حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، - جامعة قطر، العدد ١٦، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، ص: ١٩٨.

ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "الله ﷻ جعل الملائكة يسجدون لآدم ﷺ ساعة الخلق، وجعل الكون مُسخرا له، فكأنه خليفة الله ﷻ في أرضه. أمده بعطاء الأسباب. فخضع الكون له بإرادة الله ﷻ. وليس بإرادة الإنسان"[١].

ثنائية الوجود

بينت أول آية نزلت من القرآن الكريم أصل وحقيقة الوجود، فالخلق الإلهي هو أصل الموجودات كلها، قال الله ﷻ: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾[٢]، وأفاد قوله ﷻ: ﴿ **إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى** ﴾[٣] أن مصير الكون جميعا إلى الله ﷻ يتصرف فيه بالإبقاء والإفناء، وبالثواب والعقاب. وفيما بين المنشأ والمصير يسوق الله ﷻ بالقدرة والإرادة الإلهية الكون جميعا، على أساس ناموس إلهي يقوم على (السببية)، وهذا ما عبر عنه قوله ﷻ: ﴿ **خَلَقَ الإِنْسانَ مِن عَلَقٍ** ﴾[٤]، حيث بين أن (العلقة) وهي أصغر الأشياء وأقلها قيمة هي سبب الإنسان أعظم الكائنات وأرفعها، وهكذا الأمر فيما يحدث في الكون من أصغر عناصره إلى أعظمها[٥].

والعقيدة الإسلامية تفسر الوجود على أنه ثنائية ذات طرفين متباعدين في الحقيقة الذاتية: الأول: هو الله ﷻ، المتصف بالكمال المطلق، ولا يمكن للعقل البشري أن يعلم من كنه حقيقته شيئا، وقصارى ما يدرك منه: ثبوت صفات الكمال له. والطرف الثاني: هو العَالَم، الموصوف بصفات النقص والدون إزاءه ﷻ، وهو ذو طبيعة يمكن للعقل البشري إدراكها، وتحصيل حقيقتها. لكن هذه البينونة المطلقة في الحقيقة الذاتية، ليست مؤدية إلى بينونة مطلقة في الصلة بين الله ﷻ والعَالَم، بل إن الصلة وطيدة، فهو الذي خلق ما في العالم، وهو الذي يدبر أمره، ويحيط علما بخفاياه وأسراره، ويرعاه بعنايته ولطفه، وبهذه الصلة المتعددة الوجوه يكون الله ﷻ على مقربة معنوية من المخلوقات، قال ﷻ: ﴿ **ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ** ﴾[٦].

وهذه الثنائية الوجودية تسفر عن تقسيم للوجود إلى عالمين متباينين بالطبيعة: الأول: عالم الغيب، وهو ذو طبيعة عقلية معنوية متعالية عن المادة، وغير قابل للشهود الإنساني، ولا يدرك الإنسان منه إلا ثبوته وآثاره فحسب، كالوجود الإلهي، ووجود الملائكة، والجن، والجنة والنار، وغيرها من الموجودات الغيبية. والثاني: عالم الشهادة، وهو الوجود المادي الواقع تحت الإدراك الحسي، وهو معقول الذات، وقابل للشهود الإنساني إذا توفرت

---

[١] - الشعراوي: محمد متولي، تفسير الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، ط: مطابع أخبار اليوم، ٢٤١/١. (ش)
[٢] - سورة العلق، الآية رقم: ١
[٣] - سورة العلق، الآية رقم: ٨
[٤] - سورة العلق، الآية رقم: ٢
[٥] - النجار: عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، ط: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣م، ص: ٤٠.
[٦] - سورة ق، الآية رقم: ١٦

أسباب الشهود. والله ﷻ وحده هو الذي يحيط علمه بعالمي الغيب والشهادة، قال ﷻ: ﴿ **عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾[1]-[2].

الخلافة تكليف وتشريف

قال الله ﷻ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾[3].

ويُستنبط من هذه الآيات الكريمة المفاهيم الآتية:

أولا- الإنسان هو الكائن المختار للخلافة، جعله الله ﷻ خليفة في الأرض، بمقتضى:

١- الخِلقة: فقد خُلق الإنسان من تراب الأرض، وهذا يجعله جزءِ من الأرض ليستطيع التكيف معها[4].

٢- والجِبلّة: فقد مهد السياق القرآني للحديث عن قصة آدم عليه السلام بالحديث عن الأرض مباشرة قبل قصة استخلافه فيها، قال ﷻ: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعا** ﴾[5]، بما يوحي بأن الله ﷻ ما خلق هذه الأرض وما فيها إلا لهذا الإنسان. كما سخر الله ﷻ له الأرض تسخيرا، ومهدها له تمهيدا، فحدد أبعادها، وقوانينها، ونُظُمها، وأحجامها، بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان، في العالم، وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا إيجابيا فاعلا[6].

٣- والفطرة: فهو ليس مخيرا في أن يكون خليفة أو لا يكون، بل هو خليفة بمقتضى (الجَعل) الإلهي. والخلافة التي أناطها الله ﷻ بآدم عليه السلام ليست وقفا على شخصه فقط، وإنما تمتد لتشمل النوع الإنساني[7]. والخلافة في الأرض ليست مرتبطة بمدة معينة، ولا خاصة بعصر أو زمن دون غيره، فهي مستمرة مع الإنسان إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

---

[1] - سورة الأنعام، الآية رقم: ٧٣

[2] - خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل، ص: ٣٩:٤٢.

[3] - سورة البقرة، الآيات: ٣٠:٢٤.

[4] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٣.

[5] - سورة البقرة، الآية رقم: ٢٩

[6] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٣.

[7] - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ١٩٩.

ثانيا – الإنسان وَحْدَه هو المُكلف بالقيام بمسؤولية الخلافة في الأرض وتحمل أعبائها، وهو الوحيد الذي سيحاسب على ذلك، ورغم وجود الجن في الأرض وهم أيضا خلق مُبتلى، ومكلف بالعبادة مثل الإنسان، لكن هذا الخلق لا يمتلك الطاقات والمواهب التي يتميز بها الإنسان لإعمار الأرض[١].

ثالثا – بيّن الله ﷻ للملائكة أن الخلافة ليست عبودية فقط، وإنما هي عبودية ومعها أمور أخرى زائدة عليها، أو أنها عبودية لله ﷻ تختلف من حيث الظروف والأحوال والأهداف والنتائج، عن عبودية الملائكة وسائر المخلوقات.

رابعا – الخلافة درجة وجودية عليا بين المخلوقات، ومركز كوني سامي ومرموق بينهم، اصطفى الله ﷻ الإنسان له من دونهم جميعا، وسجود الملائكة لا يعني مجرد الإقرار والاعتراف بخلافة الإنسان في الأرض، وإنما يعني أيضا ويتبعه عمل يتعلق بمساعدة الإنسان على تحقيق الخلافة[٢].

آدم عليه السلام والتجربة

لم يذكر الله ﷻ مكان هذه الجنة، ولا حقيقتها، أهي في السماء أم في الأرض؟ أهي الجنة التي تكون جنة الخلد؟ أم حديقة في الأرض؟ ومهما يكن، فإنها جنة فيها رغد العيش وسعته[٣]. لكن قد يثور تساؤل: لماذا أسكن الله ﷻ آدم عليه السلام وزوجه هذه الجنة، ثم أخرجهما منها لما أكلا من الشجرة؟ لماذا لم يهبطا إلى الأرض من البداية؟

والجواب: أن ذلك كله كان بمثابة التجربة العملية لمتطلبات الاستخلاف، فقد أُريد لآدم عليه السلام وذريته أن يتزودوا لتلك المهمة[٤]، فقد كانت هذه التجربة تربية لهذا الخليفة وإعدادا. كانت إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه، وتدريبا له على تلقي الغواية، وتَذَوُّق العاقبة، وتجرُع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين. فقصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة، هي بنفسها تجربة البشرية المتجددة المكرورة، فلقد أراد الله ﷻ رحمة بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا، استعدادا للمعركة الدائبة، وموعظة وتحذيرا[٥]. وليعلم آدم عليه السلام أن رَفْض إبليس السجود له، معناه توجيه فاعليته وامكاناته ونشاطه هو وجنوده نحو هدف محدد، هو منع الإنسان من تحقيق خلافته لله ﷻ في الأرض[٦].

---

[١] - المصدر السابق، ص: ١٩٩.
[٢] - استخلاف الإنسان في الأرض، ص: ٥ -١١ .
[٣] - أبو زهرة: محمد (ت ١٣٩٤هـ)، زهرة التفاسير، ط: دار الفكر العربي، ص: ١٩٨.
[٤] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٥.
[٥] - قطب: سيد، في ظلال القرآن، ط: دار الشروق، ٢٠٠٣م، ٥٩/١.
[٦] - الدسوقي: فاروق أحمد، استخلاف الإنسان في الأرض، ط: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ص: ٥ -١١ .

وإلى جانب تجربة وسوسة الشيطان كانت تجربة الغواية، فقد جعل الله ﷻ آدم عليه السلام خليفة في الأرض، وأكرمه فأمر الملائكة أن يسجدوا له، وإنه ﷻ ليعلم نزوع الآدمية إلى الفساد، وتعرضها لمحنة الغواية، وما يجوز عليها من أعراض الضعف والخطأ والنسيان، فكأنما هو ابتلاء لها بالشر والخير فتنة[١].

وهكذا تَعَلَّم آدم عليه السلام ومعه ذريته مبادئ أساسية في الخلافة، وأُعطيت له الخطوط العريضة الواجب اتباعها، فقد عرف مكانته عند الله ﷻ: إذ تولى خلقه بنفسه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة اعترافا وتقديرا له، وإقرارا له بأحقيته في الخلافة، وامتنع إبليس عن السجود استكبارا، فكان ذلك دلالة على توجيه كل طاقاته وإمكاناته لمنع الإنسان من تحقيق الخلافة[٢].

حقيقة الخلافة في الأرض

١- الخلافة وكالة ونيابة عن الله ﷻ

الخلافة تعني النيابة أو الوكالة عن الله ﷻ لتنفيذ مراده في الأرض، وإجراء أحكامه فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطانا في الكون بغاية تطبيق المهمة التي كلفه بها من استخلفه، ائتمارا بما أمر وانتهاء عما نهي[٣]. فالاستخلاف قائم على العبودية لله ﷻ، وإعمار الدنيا بالدين[٤].

وكلمة الخلافة تعبر عن وجود علاقة بين أطراف مختلفة، وعناصر أساسية تتكامل فيما بينها لتحقق مفهوم الخلافة، وهي: المستخلِف (الله ﷻ)، والمستخلَف (الإنسان)، والمستخلَف فيه (الأرض)، ومضمون الاستخلاف (المنهج الإلهي).

لكن استخلاف الإنسان في الأرض، ومنحه مطلق السيادة على الكون لا يعني أنه مالك له – وإن كان سيدا عليه، فهو ليس حاكما بالأصالة، وإنما حاكم بالتفويض، أي أن الله ﷻ أطلق يده بالتصرف في الأرض للقيام بأعباء أمانة الاستخلاف، وهو ما توحي به كلمة (الخليفة) التي تعني في جملة ما تعني: النيابة أو الوكالة، فهو غير مخول أن يسير في الكون بهواه منفصلا عن توجيه الله ﷻ لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف[٥]. ومن ثم، فالخلافة هي تكليف إلهي للإنسان ليباشر مهمة الإعمار والبناء في الأرض وفق إرادة الله ﷻ، لتتحقق بذلك العبودية لله ﷻ في هذا الكون. وجوهر الاستخلاف أن يظل الإنسان (الخليفة) مرتبطا بمن استخلفه

---

(١) - القرآن وقضايا الإنسان، ص: ٤٤.
(٢) - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ط: ٣٤٥.
(٣) - خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، ص: ٦١.
(٤) - لعريض: سعيد، نحو منظومة للقيم الحضارية البانية على أساس أمانة الاستخلاف، مقال منشور على موقع: مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية. https://alamanaweb.ma/نحو-منظومة-للقيم-الحضارية-البانية-على/
(٥) - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ١٩٨.

ارتباطا مستمرا، وأن يجتهد اجتهادا دائما للاقتراب منه، في الفكر والسلوك، وفي كل حركة وسكون، كمنهج شامل في التصرف الإنساني، في سياسة نفسه فردا ومجتمعا، وفي صلته بخالقه، وفي تعامله مع الكون. والعمل الدائب، والكدح المستديم، لترقية ذاته وتنميتها، حتى يتمكن من تحقيق مستويات راقية من الاستخلاف[1]. والخلافة في الأرض دائمة من بني آدم ﷺ، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، فلابد من أمم وجماعات، تتداول فيما بينها قيادة هذه الرحلة الإنسانية، حتى تبلغ مداها الأخير في علم الله ﷻ. فالخلافة عبادة طوعية لله ﷻ بالتزام هَدْيه وشرائعه، ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله ﷻ، وعلاقته بالكون والمخلوقات، بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح. فهي قائمة في شقها الأول: على العبودية لله ﷻ باعتباره المستخلِف، وفي شقها الثاني: على السيادة، لأن الإنسان مستخلَف في الأرض، وتلك حقيقة الخلافة، فهي قائمة على هذه الثنائية التكاملية: العبودية، والسيادة[2].

٢- الخلافة عبودية وسيادة

الخلافة – كالوكالة أو النيابة – تعبير عن علاقتين:

العلاقة الأولى- بين الإنسان (الخليفة)، وبين الله ﷻ الذي استخلفه، وهي علاقة بين الإنسان وبين ربه، تتمثل في الخضوع والطاعة والاستجابة، واستسلام الخليفة لمن استخلفه، وهي ما نسميه: (العبودية).

فالحكمة من خلق هذا الخليفة هي عبادة الله ﷻ، وهي مستفادة من قوله ﷻ: ﴿ **وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[3]، فالمقصود أن يتحقق في الكون مظهر من الخضوع لله ﷻ، والتسليم له صادرة عن إرادة حرة، بعد أن تحقق الخضوع والتسليم في كافة المخلوقات بصفة قسرية. وقد تكون الحكمة من خلق الإنسان هي التفضل عليه بالنعمة والسعادة، سواء في حياته الدنيا أو في الحياة الآخرة[4].

العلاقة الثانية - تتمثل في سيطرة الإنسان (الخليفة) وهيمنته، واستغلاله، وتسخيره، لكل ما استخلفه الله ﷻ عليه، في الأرض، وما عليها، وما في باطنها، من أشياء وأحياء. أي أن الإنسان سيد عليها. وتسمى هذه العلاقة: (سيادة). فالخليفة عبد لمن استخلفه، وسيد على من هو مستخلَف عليه في آن واحد، ولا يمكن في الواقع إقامة إحداهما دون الأخرى:

- فإذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله ﷻ، فإنه يضيع سيادته في الأرض، لأنه سيسقط بالضرورة في عبودية غير الله ﷻ، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير.

---

[1] - المصدر السابق، ص: ١٩٩، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، ص: ٦٥.
[2] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٦.
[3] - سورة الذاريات، الآية رقم: ٥١
[4] - خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، ص: ٥٤.

– وإذا لم يحقق الإنسان سيادته على كل شيء وحَيٍ في الأرض، فسيصعب عليه أن يكون عبدا لله ﷻ وحده. فالمشرك يعتقد أن ما يعبده من دون الله ﷻ أفضل منه، فهو يفقد بذلك معنى السيادة عليه، في نفس الوقت الذي يفقد فيه العبودية لله ﷻ وحده. أما الموحد فيجمع بين تحقيق السيادة، وتحقيق العبودية لله ﷻ وحده[1].

٣- الخلافة في الأرض توحيد

إسلام الإنسان يبدأ بشهادة التوحيد، بحيث تكون كلمة التوحيد هي الأساس والأصل الذي يقوم عليه الوجود الإسلامي، والمشاعر الإسلامية، والأنظمة الإسلامية، والأهداف الإسلامية. وإذا كان التوحيد هو العقيدة الإسلامية في الألوهية والكون والحياة، فالشريعة الإسلامية هي التطبيق العملي للتوحيد الإسلامي.

والتوحيد الإسلامي كما أنه يستوجب أن تكون عقيدة المسلم في الخالق قرآنية، فإنه يستوجب أن تكون عقيدته في الكون والحياة والإنسان قرآنية خالصة أيضا، فإن من يرفض تفسير القرآن لأصل الإنسان وهدفه ومصيره، ويستبدله بتفسير وضعي أخر مع علمه بالتفسير القرآني، بلا شك يكون كافرا، بل إن الكفر يلحق به إذا جحد أي حقيقية جزئية من الحقائق الكونية التي يثبتها الله ﷻ في القرآن بقول محكم الدلالة.

ومن هنا فإنه إذا كان قولنا إن الإنسان خليفة الله ﷻ، تعبير عن حقيقة الإنسان في علاقته بالله ﷻ، وفي علاقته بالكون، فإن حقيقة الخلافة جزء من التوحيد الإسلامي لا تنفصل عنه، هذا من الناحية الاعتقادية، أما من الناحية العملية، فإن تحقيق التوحيد في الحياة الإنسانية، يقتضي اعتبار خلافة الإنسان لله ﷻ في الأرض غاية قصوى، وهدفا أسمى للحياة الفردية والاجتماعية، وإلا لما أصبح الإنسان مُوحِدا: فردا كان أم مجتمعا.

كما يستلزم تحقيق خلافة الإنسان لله ﷻ في الأرض تأسيس الحياة الإنسانية على التوحيد، بانبثاق الأخلاق وأنظمة الحكم والتربية والأسرة والاقتصاد وكل تشريع وكل قرار وكل تخطيط من عقيدة التوحيد، وإلا لما صار الإنسان خليفة لله ﷻ في الأرض.

فالتوحيد الإسلامي هو الإيمان بالله ﷻ وحده، منفردا بالخلق والفعل والأمر والتدبير، محيطا بكل شيء متعاليا على كل شيء، والإيمان أيضا بالإنسان خليفة لله ﷻ ونائبا له في الأرض، فهو المخلوق الأكرم والأفضل والأعلى على كل شيء وكل مخلوقات الأرض، وينفرد بهذا العلو والتكريم بينها.

والتوحيد إذا كان يعني تحديد علاقة الإنسان مع الله ﷻ، فهو أيضا في نفس الوقت تحديد لعلاقة الإنسان مع ذاته، ولعلاقته مع إخوانه من بني البشر، ومع غيره من مخلوقات الأرض أيضا.

---

[1] - استخلاف الإنسان في الأرض، ص: ١٢.

وجوهر التوحيد أن يكون عبدا لله ﷻ وحده وسيدا على كل ما سواه في الأرض، ومن ثم فالخلافة هي التوحيد كحقيقة إنسانية.

أما الملحد أو الكافر: فإنه يصرف عبوديته لغير الله ﷻ ويوجهها إلى غيره، فيصبح عبدا لهذا الغير ويخسر سيادته عليه ويرتد عن القمة في عالم المخلوقات، وعلى قدر كفره وفسقه وظلمه يكون ارتداده وتسفله، ومن ثم لا يكون خليفة لله ﷻ، وإنما يكون خليفة لغيره.

وأما المشرك: فإنه يجعل بينه وبين الله ﷻ وسطاء أو شفعاء أو أولياء أو خلفاء بحجة أنه ليس أهلا للاتصال المباشر بالله ﷻ، وأن هؤلاء الشفعاء والخلفاء أكرم منه عند الله ﷻ. وهذا الأمر مع كونه مخالفا للتوحيد إلا أنه أيضا يعني أنه المشرك قد خالف مشيئة الله ﷻ بجعله خليفة له، ويصبح موقفه في ذلك هو نفس موقف إبليس، برفض الترتيب الكوني بين المخلوقات كما شاءه رب العالمين، والذي تكون فيه الذات الإنسانية أكرم المخلوقات عند الله ﷻ.

والمشرك باعتقاده أن الأرباب الأخرى لها تأثير على الإله في الفعل والتدبير، فإنه يرى في نفسه أنه غير جيدر بالاتصال المباشر بالله ﷻ والطلب منه، وفي هذا وصف لله ﷻ بما لا يليق بجلاله، وفي نفس الوقت وصف للذات الإنسانية بما لا يليق بكمالها، وبما يفقدها تكريمها وتفضيلها على كل مخلوقات الأرض، وهذا يعني تضييع السيادة من الإنسان على سائر المخلوقات، ومن ثم تضيع الخلافة.

ومعنى هذا أن الشرك بالله ﷻ كما هو نقيض التوحيد، فهو نقيض لخلافة الإنسان لله ﷻ في الأرض، وذلك لأن الإنسان يفقد سيادته على المخلوقات في الأرض في نفس اللحظة التي يقع فيها في الشرك.

فالتوحيد والخلافة لله ﷻ وحده حقيقتان متوازيتان: الأولى : وجودية معرفية في مجال الألوهية، والثانية: وجودية معرفية في مجال الإنسانية، وهذا لا يتعارض مع كون التوحيد أصل الإسلام وغايته في حياة المسلم[١].

٤- الخلافة حرية

منحت الرؤية القرآنية للإنسان أفضل مركز في الكون، وأعطته مكان السيادة على العالمين وفضلته على كثير من خلق الله ﷻ تفضيلا، ومن خلال هذا المركز والمكانة والتفضيل مُنح الإنسان – على مستوى الفرد والجماعة – حرية الاختيار والفعل والتي لم تمنح لأحد من العالمين، ومن ثم فإن النتائج النهائية للفعل البشري – الفردي والجماعي – تجيء منبثقة عن أفعال الناس، وتحمل طبيعتها وتكوينها وملامحها، وتتغذى بعجينتها

---

(١) ـ خلافة الإنسان في الأرض، ص: ١٩ : ٣٥.

التي جبل الناس عليها. ومن أمثلة ذلك، قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

وكل أمة مسؤولة عن أفعالها فقط لا أفعال غيرها، فالله ﷻ يمنح نعمه التي تنزل وفق النواميس الطبيعية، بالقسطاس على الأمم والشعوب، إلا أن الجماعة التي تسيء التصرف، وتطغى وتتجبر، ويسوقها الطغيان والجبروت إلى الكفر والمروق والتمرد على النظام الكوني ومبدعه، فإن العقاب في الانتظار، مع غفران الله ﷻ لكل ما من شأنه أن يصدر عن ضعف الإنسان وعجلته وأخطائه غير المتعمدة ونسيانه : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ ﴾[2].

لكن الله ﷻ ما كان ليضرب جماعة ما، أو أحدا من عباده، قبل أن يبعث إليهم بالنذير، ويدلهم على الطريق، ويعطيهم الفرصة لكي يختاروا بملء إرادتهم أن ينتموا للحق، أو تسوقهم الشهوات إلى التشبث بمواقع الباطل حيث يحق العقاب كجزء من خطة العدل الإلهي الشاملة في سياسة الكون كله: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾[3]، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[4]–[5].

ومن عدالة الله ﷻ، أنه لا يطبع على قلب إنسان ويختم على مصيره بالكفر أو الإيمان إلا بعد علم مسبق بتكوين هذا القلب وطبيعة نبضه كما ونوعا، وهذا التكوين المسبق ليس أمرا مجبرا عليه الإنسان، بل هو ثمرة اختياره الحر المتأثر بظروفه البيئية والوراثية، والتي هي بدورها حصيلة البيئة على مر الزمان[6].

٥- الخلافة والعهد الإلهي القديم

إذا كان الاستخلاف عبادة وسيادة، فإن العبادة عهد قديم أخذه الله ﷻ على بني الإنسان في الأصلاب قبل مولدهم، قال ﷻ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾[7]، فالإحساس بالعبودية – بمقتضى هذه الآية – مركوز في فطرة الإنسان، ويتجلى في شعور عميق بوجود ذات عليا كاملة أقوى منه، تنظر إليه بعين الرعاية، ويلتجئ إليها في ساعات الضيق والقلق والاضطراب[8].

---

[1] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٤٥

[2]- سورة البقرة، الآية رقم: ٢٨٦.

[3] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١٣١.

[4] - سورة الإسراء، الآية رقم: ١٥.

[5] - خليل: عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، ط: دار العلم للملايين، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، ، ص: ١٤٣:١٤٩.

[6] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ١٥٠.

[7] - سورة الأعراف، الآية رقم: ١٧٢

[8] - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٠٢.

فالقرآن الكريم يبين لنا بوضوح أن الله ﷻ وضع الحجة والبرهان في قلب كل واحد منا، وركز الدلالة إليه في فطرة كل إنسان لحظة بعثه إلى الحياة، ومن ثم حمله المسؤولية في أن يختار – بإرادته – الطريق الذي يقوده إلى الله ﷻ، انسجاما مع تكوينه الذاتي ومعطياته الفطرية الأساسية، قال ﷻ: ﴿ **فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا** ﴾[١]-[٢].

*****

[١] - سورة الروم، الآية رقم: ٣٠

[٢] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ١٤٩،١٥٠..

الفصل الثاني – الإنسان ذلك الخليفة

حفاوة القرآن بالإنسان

حظي الإنسان في القرآن الكريم بما لم يحظ به أي مخلوق آخر، احتفالا به وتنويها بقَدْرِه ومكانته بين سائر المخلوقات. فهو المخلوق الوحيد الذي فَصَّل قصة خلقه، من بداية الوحي، فقد افتتحت سورة العلق بقوله ﷻ: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾[1]. كما تتأكد عناية الله ﷻ بهذا المخلوق حين أعلن عن ميلاده في الملأ الأعلى في احتفال مشهود، ثم كان تمام التكريم والتفضيل أن نفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة.

والحقيقة أن كل تلك الحفاوة وذلك التكريم إنما كانا بسبب المهمة التي سيتولاها هذا المخلوق، وهي (خلافة الله ﷻ في الأرض)، وهي تكليف ضخم وشاق، وأمانة أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها، وتحمل هو أعباءها، وتولى تبعاتها.

وقد انتدب الله ﷻ الإنسان لتلك المهمة الشريفة والشاقة في نفس الوقت، وزوده بكل متطلباتها، سواء على مستوى ذاته في تكوينه، أو في تعامله مع المحيط من حوله، هذا التعامل الذي تحكمه سنن ونواميس موحدة تُسِّير الكون والإنسان[2].

حقيقة الإنسان وطبيعة تكوينه

مما لا شك فيه أن الإنسان لم يتبوأ هذه المكانة السامية الراقية، إلا للخصائص التي يتميز بها بين المخلوقات، والتي أهلته لينال شرف الاستخلاف في الأرض.

أ– حقيقة الإنسان

الإنسان في القرآن الكريم، غير (البشر)، فالبشرية في الإنسان هي الآدمية المادية، التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وفيها يلتقي بنو آدم جميعا على وجه المماثلة، حتى الرسل. قال ﷻ: ﴿ **قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ**

---

[1] - سورة العلق، الآيات: ١،٢

[2] - شرفة: حسن، خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، مقال منشور في مجلة الإحياء، الصادرة عن كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة – الجزائر. العدد الثاني، ص: ٣٣٩.

مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[١]، وقال: ﴿ **فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا** ﴾[٢].

والإنسان في القرآن الكريم، غير (الناس). فلفظ الناس، يأتي في النص القرآني نحو مائتين وأربعين مرة، بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلاسة الآدمية، أو هذه النوع من الكائنات، في عمومه المطلق، كقوله ﷻ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ** ﴾[٣].

والإنسان في القرآن غير (الإنس)، وإن كان بينهما ملحظ مشترك من الأصل اللغوي لمادة (أ ن س) في دلالتها على نقيض التوحش. ثم يخص كل من اللفظين في البيان القرآني، بملحظ متميز وراء ذلك الملحظ المشترك. فدلالة الإنسية هي المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ (الإنس) دائما في مقابل كلمة (الجن) بما تعني من توحش وخفاء – في بعض معانيها[٤].

أما الإنسان فليس مناط إنسانيته، فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز، مجرد كونه منتميا إلى فصيلة (الإنس) كما تدل عليه الآيات: ﴿ **خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ** ﴾[٥] ، ﴿ **وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ** ﴾[٦]، كما إنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض، واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان، لأنه المختص بالعلم والبيان، والعقل والتمييز، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته، وما يعتريه من الشعور بقدره ومكانته في الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات، بحيث ينسى في نشوة زهوه وكبرياء غروره، أنه المخلوق الضعيف الذي يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول إلى عالم الغيب، على الجسر المفضي حتما إلى حفرة من تراب[٧].

والآدمية ليست (ملائكية) ولا (إبليسية)، فهي ليست جبرية تسليم وطاعة تسخير، ولا هي محض شر وشهوة تمرد وإصرار على الضلال، وإنما هي تحقيق للذات، عن تمييز ووعي وإرادة، هي تجربة الابتلاء، يتعرض فيها آدم للغواية فيغوى، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفس اللوامة، فيندم ويتوب، ويمضي ليمارس خلافته في الأرض، فلا تكون حياته كلها، من بدء خلقه إلى آخر وجوده، إلا معركة متصلة بين الخير والشر، يحتمل فيها تبعة عمله ومسؤولية اختياره. وعصمة الملائكة عن إجبار، دون خيرية البشر عن اختيار، وكل خير من

---

[١] - سورة إبراهيم، الآية رقم: ١٠
[٢] - سورة هود، الآية رقم: ٢٧
[٣] - سورة الحجرات، الآية رقم: ١٣
[٤] - عبد الرحمن: عائشة (ت ١٤١٩ هـ)، القرآن وقضايا الإنسان، ط: دار المعارف. ص: ١٨.
[٥] - سورة الرحمن، الآية رقم: ١٤
[٦] - سورة الحجر، الآية رقم: ٢٦
[٧] - القرآن وقضايا الإنسان، ص: ١٥ ــ ٢٠.

الإنسان كسبي لا تحظى به الملائكة المُسَخَّرة، وأي شر، تنسخه التوبة ويكفر عنه حساب النفس اللوامة. هذه هي الآدمية السوية التي استحقت الخلافة في الأرض[١].

ب- طبيعة تكوين الإنسان

من الخصائص التي امتاز بها الإنسان عن سائر المخلوقات، أنه ذو طبيعة متفردة، فقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون هذا المخلوق – دون غيره – ذا تركيبة مزدوجة، قال ﷻ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ** ﴾[٢]، فالآيات الكريمة تشير إلى عنصرين في تكوين الذات الإنسانية: أحدهما مادي وهو (التراب)، والثاني معنوي وهو (الروح)[٣].

وما جُعل الإنسان ذا طبيعة مزدوجة إلا لحكمة، فقد روعي فيه القيام بدوره في خلافة الأرض، فهو بروحه يظل موصولا بخالقه ﷻ، يعبده، ويتبع هداه. وبجسده يظل موصولا بالأرض يساهم في إعمارها وفق هدي الله ﷻ، وهو في كلا الأمرين يقوم بالعبادة التي ما خلق إلا من أجلها: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[٤]-[٥].

كما إن هذا الكائن الجديد في الوجود، تسلم – بمشيئة الله ﷻ – زمام هذه الأرض، فأُطلقت يده فيها، وأُوكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله – بإذن الله ﷻ – في المهمة الضخمة التي وكلها الله ﷻ إليه.

وقد خفيت على الملائكة حكمة المشيئة العليا، في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق، وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله ﷻ في أرضه، هذا الذي قد يفسد أحيانا، وقد يسفك الدماء أحيانا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل، خير النمو الدائم، والرقي الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف، والانطلاق الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير[٦].

---

[١] - المصدر السابق، ص: ٣٦.
[٢] - سورة الحجر، الآيات : ٢٨ - ٢٩
[٣] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٢.
[٤] - سورة الذاريات، الآية رقم: ٥٦
[٥] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٢.
[٦] - قطب: سيد، في ظلال القرآن، ط: دار الشروق ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ص: ٥٧،٥٦.

الإنسان مخلوق مُكرّم

الذات الإنسانية مكرمة في العقيدة الإسلامية، قال ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ** ﴾[1]، فهذا المخلوق الذي يُفسد في الأرض ويسفك الدماء، قد وهبه الله ﷻ ما يرفعه على الملائكة، فلقد وهبه سر المعرفة، كما وهبه سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق. وازدواج طبيعته هذه، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله ﷻ بمحاولته الخاصة، هذا كله بعض أسرار التكريم[2]، ومن مظاهر هذا التكريم:

١- خلق الله ﷻ الإنسان بيده، قال ﷻ: ﴿ **قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ** ﴾[3].

٢- نفخ فيه من روحه: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى** ﴾[4].

٣- أسجد له الملائكة: ﴿ **فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ** ﴾[5]. فهذا السجود رغم إنه لم يكن سجود عبادة، إلا أنه كان بمثابة إقرار، واعتراف لآدم عليه السلام بأحقيته في خلافة الأرض، كما يتضمن أيضا تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات، لما أودع الله ﷻ فيه من سر المعرفة، التي ترفعه فوق مرتبة الملائكة، ويعد هذا السجود من أروع صور التكريم وأعلاها[6].

٤- سَخَّر الله ﷻ النواميس الكونية والطبيعية بحيث تلتقي غايات المخلوقات جميعا وأهدافها لتحقيق غاية الإنسان. كما سخر كل ما على الأرض أو تحتها من عناصر وثروات، وجعلها جميعا قابلة لتأثير الإنسان وفاعليته، بحيث يتمكن الإنسان من تحقيق خلافته، ولم يبق إلا تجنيد الملائكة لهذه الغاية.

٥- تحمل الإنسان الأمانة نوع تكريم له.

٦- تكريم الإنسان في ذاته من حيث البنية المادية أو المعنوية:

أ- البنية المادية

حيث خلق الله ﷻ الإنسان في أحسن تقويم، قال ﷻ: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[7]، وصَوَّره في أحسن صورة، قال ﷻ: ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾[8]، وهذا واضح لا يحتاج إلى دليل، ولعل أبرز مظاهر الحُسن في التقويم المادي، امتداد قامته إلى أعلى وتركيز وسائل الإدراك في طرفها الفوقي، فهو وضع هيأ للإشراف على الظرف المكاني المحيط بالإنسان على أبعاد كبيرة، فأين هذا التقويم الرفيع من البهيمة التي خلقت مكبة على وجهها.

---

[1] - سورة الإسراء، الآية رقم: ٧٠
[2] - في ظلال القرآن، ص: ٥٧.
[3] - سورة ص، الآية رقم: ٧٥
[4] - سورة الحجر، الآية رقم: ٢٩
[5] - الآية السابقة.
[6] - وظيفة الاستخلاف في القرآن - دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ١٩٦.
[7] - سورة التين، الآية رقم: ٤.
[8] - سورة غافر، الآية رقم: ٦٤، سورة التغابن، الآية رقم: ٣

ب- البنية المعنوية

البنية المعنوية للإنسان أعجوبة من الأعاجيب التي حيرت العلماء والحكماء، فلم يستطيعوا الوصول إلى كنهها:

أ- يكفي في هذه البنية: (العقل)، الذي هو مناط التكليف في أداء وظيفة الخلافة، وهو القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي، وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله ﷻ ويشرق فيها ضوء كبريائه، وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله ﷻ من الأرواح والأجسام كما هي. فقد وهبه العقل الذي يفكر فيه، وبه يختلف عن باقي المخلوقات، الأمر الذي يجعله باستطاعته التمييز بين الخير والشر، والنافع والضار، ويتوقع النتائج التي تؤدي إليها الأعمال التي يقوم بها.

وإلى جانب مَلَكة العقل، فهناك ملكات أخرى كنعمة النطق والبيان، التي بواسطتها يستطيع الإنسان التعبير عن أحاسيسه وأفكاره، والتي امتن الله ﷻ بها عليه، فقال ﷻ: ﴿ **خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ** ﴾[1]. لكن هذا النطق أمر ثانوي، فالببغاء تقلد البشر، وبعض الحيوانات لها أصوات هي نطقها وطريقة تخاطبها مع بعضها، فتعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق ليس هو الصحيح؛ لأن الإنسان مخلوق عاقل، بالعقل وحده يتميز، ويفترق عن بقية المخلوقات[2].

ب- أوجد فيه عنصر (الحياء)، فهو يسكن إلى أهله ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا** ﴾[3]، ويتوارى عن الأعين فيما يقوم به من حاجات خاصة، يختلف بذلك اختلافا بينا عن باقي المخلوقات، التي تمارس أعمالها الجنسية أمام أسرابها، وتقضي حاجتها أمام فصائلها. وقد جعله الله ﷻ منذ بداية خلقه ساترا عورته، ولكن الشيطان غرر به وبزوجه حواء، حتى ذاقا الشجرة التي نهاهما الله ﷻ عنها فبدت لهما سوآتهما[4].

*****

[1] - سورة الرحمن، الآيات: ٣،٤

[2] - خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص: ٣٤٩، الدسوقي: فاروق أحمد، استخلاف الإنسان في الأرض، ط: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ص: ٥ -١١ ، شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، ١- قبل البعثة، ط: المكتب الإسلامي، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، ٢١/١.

[3] - سورة الروم، الآية رقم: ٢١

[4] - التاريخ الإسلامي - محمود شاكر، ٢٢/١.

الفصل الثالث – الخلافة وظيفة الإنسان في الأرض

الخلافة وظيفة الإنسان

الإعلان الإلهي عن خلق الكائن الجديد (الإنسان) جاء مرفوقا ببيان المهمة التي أنيط بعهدته الاضطلاع بها، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[١]، بل إن تسمية هذا الكائن الجديد في سياق الإخبار بخلقه كانت تسمية بحسب وظيفته، وهي (الخلافة)، وذلك ينطوي على دلالة بالغة في إبراز هذه الوظيفة والتنويه بشأنها[٢].

الأرض ميدان الاستخلاف

حددت النصوص القرآنية الميدان الذي هيأه الله ﷻ للإنسان ليمارس فيه عملية الاستخلاف، وعبرت عنه بمصطلح (الأرض)، وقد ورد مصطلح الأرض مئات المرات في القرآن الكريم، دلت جميعها على معان عديدة كلها مرتبطة بالوجود الإنساني، وتشترك جميعا في كون الأرض هي المكان المناسب الذي أعده الله ﷻ لاستقرار الإنسان، وجعله ميدانا فسيحا للاستخلاف. يتضح ذلك في مثل قوله ﷻ: ﴿ **إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[٣]، وقوله ﷻ: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ** ﴾[٤].

والأرض هي الكوكب الذي نعيش عليه، بكل ما يحتويه من بحار ويابسة، وهواء وماء، وما يدب فوقها من أحياء، وما يذخر به جوفها من ثروات وكنوز، فالأرض كناية عن الوجود كله بما فيه من مخلوقات مسخرة للإنسان حية وجامدة، سواء أكانت معروفة أم مجهولة[٥].

الدين منهج الاستخلاف

عندما خلق الله ﷻ الإنسان وكرمه، وفضله على سائر المخلوقات، وكلفه بوظيفة الاستخلاف في الأرض، لم يتركه فوقها وحيدا، يحتكم في حياته إلى عقله القاصر، وغرائزه الجامحة، بل دعمه بالوحي منذ خلق آدم، والذي تمثل في تلك الكلمات المباركات التي تلقاها من ربه بعد هبوطه هو وزوجه إلى الأرض، فكان أول رسول إلى بنيه، يبلغهم كلمة الله ﷻ ، ووحي السماء. ثم تتالى بعده الأنبياء والرسل، يحملون المنهج الإلهي

---

[١] - سورة البقرة، الآية رقم: ٣٠

[٢] - نحو منظومة للقيم الحضارية البانية على أساس أمانة الاستخلاف، (مقال).

[٣] - سورة البقرة، الآية رقم: ٣٠

[٤] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١٦٥

[٥] - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢١٢.

والكتب السماوية. والتاريخ يثبت أنه لم تخل أمة أو زمن من رسول أو نبي يبشر بالوحي، وينهض بمسؤولية هداية الناس إلى أقوم السبل، وتصحيح المفاهيم التي انحرفت في نفوسهم.

فالدين – إذن – هو تلك التعاليم والتوجيهات، التي أوحى الله ﷻ بها إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام، لبناء تصور صحيح عن الله ﷻ والإنسان والكون والحياة، ولتنظيم حياة الناس في الأرض، بحيث تتناسق مع سنن الأنفس والآفاق، وتتحرك في الاتجاه الصحيح الذي يضمن للإنسان ظروفا مناسبة، يمارس فيها عملية الاستخلاف كي لا يكون للناس على الله ﷻ حجة بعد الرسل.

ولقد عمل الدين – منذ القدم – على ترقية الإنسان في جميع جوانبه: الروحية، والخلقية، والاجتماعية، والفكرية، فنقله من الفوضى إلى النظام، ومن الصراع إلى التعاون، ومن الخرافة والظن إلى الحقيقة والبرهان، وهذب سلوكه، وصحح علاقاته مع الناس، وكان دائما هو العامل القوي الذي يربط بني الإنسان بروابط قوية من المحبة والتراحم والتضامن، تعلو على روابط الجنس واللغة والجوار.

ولقد خلق الله ﷻ الإنسان عبدا مخيرا في صرف عبوديته لله ﷻ ولغيره، فإذا لم يجعلها الإنسان لله ﷻ، وقع بالضرورة في عبوديته لغيره، سواء عَبَد الهوى، أو الشيطان، أو الحاكم، أو المال، أو الوثن، أو أية حالة يكون عليها الطاغوت. ولا سبيل أمامه لتحرير ذاته من كل هذه المعبودات والطواغيت والأوثان المادية سوى تعبيدها لله ﷻ وحده.

والتكليف الإلهي للإنسان، هو المنهج القويم الصحيح والوحيد لتحقيق العبودية لله ﷻ، ونقصد بذلك التكليف: (دين الإسلام)، قال ﷻ: ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ** ﴾[1]. وحيث أن الإنسان يعيش كفرد في مجتمع، فإن العبودية التي خُلق عليها الإنسان، عبوديتان: فردية، واجتماعية. ومنهج تحقيق العبودية الفردية في الإسلام هو الشعائر التعبدية. ومنهج تحقيق العبدية الاجتماعية هو الشريعة الإسلامية، أو النظم الاجتماعية والإسلامية.

والدين الذي أوحاه الله ﷻ إلى الناس واحد في أصوله العامة، فهو يدعو إلى توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبودية، والالتزام بما أمر به ونهي عنه، وإباحة الطيبات، وتحريم الخبائث، وليس هناك من اختلاف في الدين الذي جاءت به الرسل من عند الله ﷻ إلا في التشريعات الخاصة بأمة دون أخرى مراعاة لوضعها الاجتماعي، ودرجة استعدادها العقلي، قال ﷻ: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ** ﴾[2].

أما الاختلافات العميقة، والاتجاهات المتباينة، والصراع الذي حدث بين أتباع مختلف الأديان، فما هو إلا أثر من آثار عقل الإنسان وأهوائه، والذي تصرف في قيم الوحي، فزاد عليها، ونقص منها، وحرف بعضها، لأسباب

---

[1]- سورة آل عمران، الآية رقم: ١٩

[2] - سورة الأنبياء، الآية رقم: ٢٥

دنيوية كثيرة ﴿ **فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ** ﴾[1]، أما الدين فهو قيم إلهية، ترتفع فوق مستوى الغايات الشخصية، والبيئات المتباينة، والأجيال المتعاقبة، والشعوب المختلفة، لترسم خطوطا عامة للمصلحة الإنسانية، تراعى فيها الطبيعة البشرية، بكل وجوهها من روح ومادة، وعقل وأهواء وغرائز، متجاوزة – بذلك – الزمن والانتماء والبيئة.

وقد ختم الله ﷻ سائر الأديان بالدين الإسلامي – وشريعته التي نسخت كل الشرائع السابقة – وكان خلاصة الأديان كلها، في وقت بلغت فيه البشرية آخر مراحل تطورها الفكري والاجتماعي.

وكلما كانت عملية الاستخلاف وَفِيّه لهذا المنهج، ملتزمة بتعاليمه منضبطة بمبادئه، كلما أثمر ذلك نتائج مهمة على المستويين الاجتماعي والطبيعي، فيتحقق الاستخلاف في الأرض في أتم صورة – كما رسمها الله ﷻ للإنسان[2].

أما إذا تمرد الإنسان على منهج الله ﷻ ، وكفر بقيم الوحي، واكتفى بالاحتكام إلى عقله القاصر، والانقياد إلى أهوائه وغرائزه، فإن عملية الاستخلاف ستختل وتضطرب، وتنحرف عن هدفها المرسوم، وتعاكس الفطرة الإنسانية. وكلما ابتعد الإنسان عن الهداية الإلهية، وقطع حباله بخالق الكون، كلما ذاق ألوان الشقاء النفسي، والعذاب الروحي[3]، قال ﷻ : ﴿ **قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ** ﴾[4]. والمعيشة الضنك هي: الضيقة الشديدة بمشكلاتها وهموما، وبما تحيط به الأنفس والصدور من ضواغط مؤلمة مضجرة، ولو كان الإنسان مُوسَّعا عليه في الرزق[5].

وكذلك فإن عدم فهم قيم الوحي الرباني فهما صحيحا، وعدم استجلاء مقاصدها على وجهها الحقيقي يؤدي كذلك إلى الخلل والاضطراب والفوضى، ومن مظاهر هذا الخلل: المبالغة في الزهد، والتطرف في أداء الشعائر التعبدية، وإهمال حركة العمران في الأرض بحجة ترقية الروح، وتخليصها من آثار الغرائز الجسدية والميول المادية، والانسحاب من الحياة بدعوى التقشف وتصفية النفس من الطمع، كما وقع للأمة الإسلامية في عصر الانحطاط، وهذا عصيان من الإنسان لله ﷻ فيما قد ألزمه وشرفه به من مهام الخلافة في الأرض والأمر بعمارتها، وإقامة شرعة الله ﷻ في جنباتها[6].

---

(١) - سورة الجاثية، الآية رقم: ١٧

(٢) - وظيفة الاستخلاف في الأرض، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢١٩،٢٢٠.

(٣) - المصدر السابق، ص: ٢٢٣.

(٤) - سورة طه، الآيتان رقم: ١٢٣،١٢٤

(٥) - الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة (ت ١٤٢٥ هـ)، كواشف زيوف، ط: دار القلم – دمشق ١٤٢١هـ - ١٩٩١م، ص: ٥٥٧.

(٦) - وظيفة الخلافة في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٢٦.

العلم مفتاح الاستخلاف

ارتبط العلم بالاستخلاف منذ أن خلق الله ﷻ آدم ﷺ، وقضى أن يكون خليفته في الأرض. وحتى يتمكن الإنسان من ناصية العلم، زوده الله ﷻ بميزة خاصة ونعمة عظمى، تفرد بها دون سائر المخلوقات، ألا وهي العقل، وبسببه كان التكريم والتشريف والتفضيل، الذي حظى به في الحضرة الإلهية وعلى مرأى ومسمع من الملائكة والجن.

ومن خلال العمليات العقلية الكثيرة – كالتخيل، والتحليل، والملاحظة، والاستقراء – يصل الإنسان إلى اكتساب العلم وتحصل المعرفة، التي جعلها الله ﷻ المنفذ الوحيد لتحقيق عملية الاستخلاف في الأرض.

وبالعلم وحده يستطيع الإنسان أن يفهم معاني الوحي ويدرك مقاصده، ويتفهم حقائقه، ثم يبني عبوديته لله ﷻ على أساس صحيح من المعرفة[١]، قال ﷻ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٢]. قال ابن المنير: "أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل"[٣].

وبالعلم يستطيع الإنسان أن يكتشف أسرار الطبيعة، ويعرف خصائص الأشياء والقوانين التي تحكم العلاقات والتأثيرات بينها، حتى يمكن تسخيرها والانتفاع بها وتحقيق السيادة عليها، بشكل صحيح، يجنب الإنسان مخاطر الاصطدام بسنن الطبيعة القاهرة[٤].

والعلم في القرآن يغطي بشموليته ثلاث دوائر أساسية تتكامل فيما بينها، وهي: علم الغيب، وعلم الطبيعة، وعلم السير في الأرض (العلوم الاجتماعية والإنسانية)، وبالتالي تستند نظرية المعرفة في الإسلام – طبقا للخطاب القرآني – على ثلاث مصادر، هي: الوحي، والعقل، والحواس[٥].

لذلك لا نستغرب أن أول آية في القرآن الكريم، وأول كلمة، وأول أمر (دلالة على الوجوب)، وأول تكليف (للامتثال والتحقيق)، قبل أي تكليف، كلمة: ﴿ اقْرَأْ ﴾، وهي مفتاح الرسالة الخاتمة، كأنها تضع للإنسانية كلها الأساس المتين لدستور حياتها على الأرض في أول سور القرآن الكريم نزولا[٦]. قال ابن كثير في تفسير سورة العلق: " فَأَوَّلُ شَيْءٍ نزل مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ، وهُنَّ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحم اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ،

---

[١] - وظيفة الاستخلاف في القرآن، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٢٧.

[٢] - سورة محمد، الآية رقم: ١٩

[٣] - العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، فتح الباري بشرح البخاري، رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: المكتبة السلفية – مصر، ١٦٠/١.(ش)

[٤] - استخلاف الإنسان في الأرض، ص: ١٤ – ١٧، وظيفة الاستخلاف في القرآن، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٢٨.

[٥] - وظيفة الاستخلاف في القرآن، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٣٢، وما بعدها.

[٦] - حماد: محمد، اقرا باسم ربك أول التكليف، مقال منشور على موقع الخليج، ١٢ يناير ٢٠١٨. https://www.alkhaleej.ae/ملحق/«اقرأ-باسم-ربك»-أول-التكليف.

https://www.aljazeera.net/blogs/٢٠١٨/٢/١٩/اقرأ

وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ . فِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمه تَعَالَى أَنْ عَلّم الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي امْتَازَ بِهِ أَبُو الْبَرِيَّةِ آدَمُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ"[١].

ولقد أعيدت كلمة: ﴿ اقْرَأْ ﴾، على مسامع الرسول الكريم ﷺ خمس مرات: ثلاث مرات من جبريل عليه السلام قبل أن يكمل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، وهذا تأكيد على بالغ الأهمية، ومعناه أن من غفل عنها في مرة، فلا يغفل عنها في غيرها. وعلى الرغم من أن الفعل ﴿ اقْرَأْ ﴾ فعل متعد؛ أي يحتاج إلى مفعول به، إلا أنه لم يأت مفعول في السورة الكريمة، وهذا الحذف إنما يدل على العموم، وأن الإنسان مأمور بقراءة كل شيء بحسب عمره وفكره، لمن اتفق معه في الرأي ولمن اختلف معه. كما دل على أن القراءة كما تكون للقرآن الكريم، (كتاب الله المقروء)، تكون للكون، (كتاب الله المنظور) للعظة والاعتبار، وقد تكون القراءة بالمثاقفة، إذ قرا جبريل، وقرأ الرسول ﷺ من بعده فعلمه، ثم قرأ الرسول ﷺ وقرأنا من بعده فعلمنا جميعا[٢].

الخلافة عبودية وعمران

وكما أن المشروع الاستخلافي يقوم على العبودية لله ﷻ، فهو يقوم أيضا على السيادة على الكون بالعمران:

فالإيمان هو (الترقي الروحي والخُلقي) الذي يثمره تهذيب النفس الإنسانية، وتزكيتها، وتأهيلها لعمل الخير، وتقوى الله ﷻ في كل ما تأخذ وتدع، ومراعاة حقوق غيرها في المجتمع والمحافظة عليها. وبالجملة فهو يشمل كل ما ينضوي تحت لواء التقوى والفضيلة والعمل الصالح من معان.

وحركة الذات الإنسانية في مجال تحقيق العبودية: (ذاتية نفسية) ، حركة رأسية، تتأرجح فيها الذات الإنسانية بين أحسن تقويم، علوا وارتفاعا وسموا بالتوحيد، أو أسفل سافلين، تسفلا وهبوطا وانحطاطا بصرف العبودية لله ﷻ لغيره بالشرك والكفر. ويمكن لهذه الحركة أن تتحقق في عمر الفرد الواحد فيرتفع ويسمو، أو يسفل ويهبط، ويمكن أن تتحقق في حياة الجيل الواحد، فيمكن أن ينهض المجتمع ويسمو كجيل الصحابة، ويمكن أن تفتن الأمة بالمال أو الثراء الفاحش، فيغلب على أفراد هذا الجيل الانحطاط والارتداد إلى أسفل سافلين. والأمر متوقف على اختيار الإنسان فردا ومجتمعا، وموقفه من الابتلاءات التي تعرض له.

---

[١] - ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت ٤٧٧ هـ)، تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد السلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، ٨/٤٣٧.

[٢] - العتوم: أيمن، اقرأ، مدونة على موقع الجزيرة نت ، يوم ١٩فبراير ٢٠١٨.
https://www.aljazeera.net/blogs/١٩/٢/٢٠١٨/اقرأ

والسمو والكمال الإنساني في مجال العبودية لله ﷻ مطلق، وهذا المستوى متمثل في النبي ﷺ على المستوى الفردي، وفي جيل الصحابة رضوان الله ﷻ عليهم بالنسبة للمجتمع، فقد أقاموا مجتمع الخلافة بتحقيق عبوديتهم الاجتماعية لله ﷻ على أساس العبوديات الفردية لكل منهم، بتفاوت فيما بينهم، تأسيا بالأسوة الحسنة للإنسانية جمعاء وهو النبي ﷺ.

أما العمران، فهو (الترقي المادي والمدني) الذي يتمثل في الجهود التي يقوم بها الإنسان لاستثمار مرافق الكون والانتفاع بها، وتسخيرها في خدمة مطالب حياته، وحاجاته الأساسية. وحركة الإنسان في مجال تحقيق العمران، تتوقف على العمل وفق منهج علم الإنسان بالأشياء والأحياء، والسنن الإلهية في الكون والطبيعيات وظواهرها، وهذه الحركة أفقية، فيها المتقدم بخطى سريعة أو بطيئة أو الجامد في مكانه أو المتخلف عن الصفوف جميعا. وهكذا المجتمعات في كل عصر حسب الأخذ بأسباب التحصيل العلمي وتسخير الأشياء. ولأن المستوى المطلوب تحقيقه غير محدد، فمن ثم يستحيل على جيل واحد أن يصل إلى آخر الشوط، بل الواجب على الإنسان في حياته القصيرة أن يحقق أكبر قدر ممكن في عصره، بحسب الرصيد العلمي الذي يرثه والحصيلة العلمية التي يحصلها بكسبه. أما مستوى الكمال المدني (الجانب الحضاري) فهو جزء رئيسي ومتمم لغاية الإنسان القصوى في الحياة (الخلافة)، لكنه نسبي، وغير محدد بالنسبة للفرد الواحد والجيل الواحد، وإن كان لن يصل في النهاية إلا للمستوى المأمول بالنسبة لجنس الإنسان كحد أقصى.

فالله ﷻ قد قدر للإنسان في الأرض من لدم آدم عليه السلام حتى قيام الساعة حدا للكمال المدني، لا يستطيع أن يتعداه، ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1] .

لكن هذا لا يمثل الحد الأقصى لسيادة الإنسان على الأرض حيث أنه سبحانه قد حقق لسليمان عليه السلام مُلكا عظيما وسيادة واسعة على كل شيء وحي في الأرض، لكن ذلك لن يتحقق لغيره، في الدنيا، لكن سيتحقق أكثر منه في الجنة، لمن حقق خلافته لله ﷻ في الدنيا، قال ﷻ: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا** ﴾[2]، وقال أيضا: ﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾[3].

والملاحظ أن مستقبل ومصائر الحضارات متوقف على جانب العبودية، أكثر من توقفه وارتباطه بجانب السيادة والعمران، فالعبودية في نشأة الحضارات بمثابة المقدمات والعلل، والسيادة والعمران بمثابة النتائج والمعلولات.

---

[1] - سورة يونس، الآية رقم: ٢٤

[2] - سورة الإنسان، الآية رقم: ٢٠

[3] - سورة ق، الآية رقم: ٣٥

فإذا فسدت المقدمات أو العلل، فسدت المعلولات أو النتائج بالضرورة، ومن هذا: استئصال الأمم من الأرض أو تشتيتها، واندثارها كآمة حضارية بالعوامل التاريخية لفناء الأمم والمجتمعات والحضارات، قال ﷻ: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ** ﴾[١].

لكن هذا لا يمنع من القول من أن جانب العبودية يتحقق بما جاء به الوحي، وجانب العمران قد فوض الله ﷻ فيه الإنسان إلى عقله وبحثه وخبرته وتجربته. وإن التقدم المدني الحادث في أوروبا بعد تخليها عن دينها إنما مرده إلى أسلوب الحياة الديني المسيحي الذي منع أوروبا من التقدم الحضاري خلال قرون طويلة حتى تخلت عنه هذا الأسلوب، فتقدمت مدنيا، لكنها ساقطة من جانب آخر، لكون جانب العبودية عندها متجه لغير الله ﷻ.

لكن نتيجة للالتزام بالوحي، كمنهج للعبودية، وبالمناهج العلمية الصحيحة كمنهج للسيادة، سما المسلمون في ظل الحضارة الإسلامية أخلاقيا وإنسانيا، وفي نفس الوقت تقدموا مدنيا وعلميا[٢]. والمسلمون حاليا لم يحققوا التقدم المنشود في الإسلام، لأنهم في القرون الأخيرة لم يقوموا (بعمارة الأرض) كما أمرهم الله ﷻ ، ولم يرعوا سنن الله ﷻ في خلقه، فحكمت عليهم هذه السنن أن يسودهم غيرهم، كما أنهم لم يقوموا بحق (الخلافة) كما ينبغي، فسُحبت القيادة من أيديهم وسادهم من كانوا له سادة[٣].

الخلافة حضارة

الخلافة في الأرض غير مرتبطة بمدة معينة ولا خاصة بعصر من العصور، أو زمن من الأزمنة، بل هي صيرورة دائمة، تنساب مع الإنسان على مر التاريخ منذ ميلاده، إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. فالاستخلاف حركة إنسانية إيجابية، فاعلة، دائبة، مستمرة، ومتناغمة مع سنن الأنفس والآفاق، يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته الروحية والخلقية، وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح، والانتفاع بها، وتوجيهها لخدمته، وخدمة بني جنسه رغبة في إقامة حضارة إنسانية، في ظل منهج العبودية لله ﷻ الذي تنتفي معه كل مظاهر الخلل والفوضى والاضطراب[٤].

ومن هنا يُعلم أن الخلافة أو الاستخلاف في الأرض، هي الوظيفة الوجودية للإنسان في الأرض التي من أجلها خُلق، وبها فُضل على كثير من خلق الله ﷻ تفضيلا، بما لها من أبعاد ومدلولات حضارية[٥].

---

[١] - سورة غافر، الآية: ٢١

[٢] - خلافة الإنسان في الأرض، ص: ٣٧ – ٦٢.

[٣] - القرضاوي: يوسف، الإسلام حضارة الغد، ط: مكتبة وهبة، ١٩٩٥م، ص: ١٨٥.

[٤] - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٠٠

[٥] - المصدر السابق، ص: ١٩٧.

الفصل الرابع- الخلافة والمسؤولية

شاء الله ﷻ أن يرتبط مصير الإنسان ومآله بمدى قيامه بمتطلبات هذه الاستخلاف، ووفائه بمسؤولياته الجسيمة في عالم الشهادة، فإذا غفل عنه، أو فرط فيه، أو نكس عن أداء ما استؤمن عليه، يكون بذلك قد تخلى عن مهمته الحقيقية، وألغى جانبا كبيرا من طبيعته، وفقد كثيرا من خصائصه، لأن القيام بأعباء الاستخلاف في جانبيه الروحي والمادي طبع مركوز في الإنسان، مفطور عليه، مدفوع إليه بالجبلة، وأداؤه لهذه الوظيفة الاستخلافية هو الذي يعطي لحياته على وجه الأرض هدفا ومعنى، ويمكنه من صنع تاريخه، وتحقيق رسالته في الوجود كما أرادها الله ﷻ.

وقد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عن هذه الوظيفة الاستخلافية، وما تقتضيه من حق التصرف، وأهلية المسؤولية، وما تلقيه على الإنسان من تبعات جسام، أعفيت منها كل الكائنات الأخرى. كما أطنبت في تذكير الناس بالجانب التشريفي والتكريمي لهذه المهمة[1].

التعريف بالمسؤولية

١– المسؤولية لغة

المسؤولية: من سأل، فهو مسؤول، والجمع: مسؤوليات. والمسؤولية: التزام، وواجب، وتبعة. يقال: "تبعة المسؤولية تقع على عاتقي"– و"يستطيع تحمل مسؤوليات كبيرة". وألقى المسؤولية على عاتقه: "حَمَّله إياها".
والمسؤولية بوجه عام: حال أو صفة من يُسأل عن أمر تقع عليه تبعته، يقال: "أنا بريء من مسؤولية هذا العمل.

والمسؤولية الجماعية: التزام تتحمله الجماعة.

وعكس المسؤولية: الا مسؤولية: وهي شعور المرء بأنه غير مُلزَم بعواقب أعماله([2]).

٢– المسؤولية في الاصطلاح

تعددت تعريفات المسؤولية في الاصطلاح، ومعانيها متقاربة، ومنها:

١– المؤاخذة أو المحاسبة على فعل أو سلوك معين.

٢– الجزاء المترتب عن ترك الواجب، أو فعل ما كان يجب الامتناع عنه.

٣– تحمل الشخص نتائج وعواقب التقصير الصادر عنه، أو من يتولى رقابته أو الإشراف عليه.

٤– التزام الشخص بأداء العمل المنوط به طبقا لما هو محدد.

---

[1] - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ١٩٦.

[2] - قلعجي: محمد رواس، وقنيبي: حامد صادق، معجم لغة الفقهاء، ط: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، س أ ل، ١٠٢٠/٢، دوزي: رينهارت بيتر آن (ت ١٣٠٠ هـ)، تكملة المعاجم العربية، ط: وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية، ٢٠٠٠م، ١٤/٦.

ومن أنواعها: المسؤولية الأخلاقية: وهي التزام الشخص بما يصدر عنه قولا أو عملا.

والمسؤولية القانونية: وهي التزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقا للقانون.

٣- المسؤولية في الإسلام

المسؤولية هي: تحمل الشخص نتيجة التزاماته، وقراراته، واختياراته العملية، من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله ﷻ في الدرجة الأولى، وأمام ضميره في الدرجة الثانية، وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة [١] .

وقيل هي: "ترتيب الجزاء من الله ﷻ على ما يأتي به المكلف من أعمال، أو أقوال، أو نيات، باختياره، سواء أُلزم بها شرعا، أو التزم بها بمقتضى الشرع" [٢] .

٤- أهمية المسؤولية كضرورة اجتماعية

المجتمع هو مجموعة من الأفراد جمعت بينهم المصالح والعلاقات المتشابكة والمشتركة، والإرادة الحرة من أهم ما وهبه الله ﷻ لهم، وبها يختار كل منهم طريق الخير، أو طريق الشر. ونتيجة لتلك الإرادة الحرة قد تتعارض اختيارات الأفراد، وقد يطغى بعض الأفراد على بعض، وقد يصل ذلك الطغيان إلى سلب غيره حياته. وعدم وجود رادع للفرد، يجعل الأرض بمثابة غابة، يأكل القوي فيها الضعيف، وتضيع فيها الحقوق، وتُهمل الواجبات. ومن هنا يكون تكليف الأفراد بالواجبات نحو مجتمعه، وتحديد حقوقه التي له في ذلك المجتمع، وبالتالي تحميله مسؤولية أعماله، وتبعة أفعاله، مسألة مهمة في المجتمع، حتى يستقيم أمره، ولا تتعارض مصالح أفراده، وتعم السعادة جميع الأفراد.

٤- ارتباط المسؤولية بالتكليف والأهلية

والمسؤولية بما سبق من التعريفات هي المتعارف عليها شرعا بأهلية الأداء، فمن تصرف كما ينبغي أن يتصرف من أناط بهم الشارع المسئولية (أهلية الأداء) – بأن اعتبر أقوالهم وأفعالهم وأنفذ أثرها – فقد تصرف بمسؤولية، ومن لم يتصرف كما ينبغي أن يتصرف من أناط بهم الشارع أهلية الأداء، فقد تصرف بغير مسئولية، ومن ثم فإنه محاسب على تخليه عن المسئولية وسوء تصرفه فيها [٣].

---

[١] – يالجن: مقداد، التربية الأخلاقية الإسلامية، ط: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٣٣٤.

[٢]– عابد: عبد الصمد بن بكر بن إبراهيم، المسئولية وصلتها بالتكاليف الشرعية في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير من فرع الكتاب والسنة، مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، ص٧٠.

[٣]- أبو بكر: مروان محمد، المسئولية، مقال منشور على موقع الألوكة، يوم ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٩م.
https://www.alukah.net/culture/٠/٧٩٤٢/%d٨٪a٧٪d٩٪٨٤٪d٩٪٨٥٪d٨٪b٣٪d٨٪a٤٪d٩٪٨٨٪d٩٪٨٤٪d٩٪d٨%a٨٪a٩/

فللمسؤولية صلة وثيقة بالتكليف الشرعي، لأن تكليف الله ﷻ لعباده جزء من مفهوم المسؤولية، وهو أساس المسؤولية، لكن للمسؤولية الشرعية مفهوم أوسع من مفهوم التكليف، لأن المسئولية تتضمن ما يتضمنه معنى تكليف الله ﷻ لعباده، وزائدا عليه: سؤال الله ﷻ العباد عما كلفهم به من التكاليف الواجبة، وغيرها من الأعمال الاختيارية. ثم جزاؤه تعالى إياهم على أعمالهم بالعدل والفضل [١].

والمسئولية مبنية على التكريم الإلهي للإنسان، لأنها من وسائل خلافة الإنسان في أرض الله ﷻ، وعلى قدر اتساع سلطة الفرد، وامتداد قدرته، يكون تكليفه، ومسئوليته[٢] .

التكليف هو إنجاز الخلافة في الأرض

المسؤولية في الإسلام متصلة بالله ﷻ ، وتعود أصولها إلى تكليف الله ﷻ لآدم وبنيه، وتحمل الإنسان الأمانة، قال ﷻ: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾[٣].

فالأمانة بلفظها العام الشامل تشمل كل ما كُلف به الإنسان من فرائض وواجبات وحقوق، فتشمل أمانته مع ربه، ومع نفسه، ومع أسرته، ومع مجتمعه الخاص، والعام، ومع الناس جميعا، بل ومع الأشياء التي يتعامل بها ومعها[٤]. والتكليف بهذا المفهوم هو تكليف بمهمة في الحياة هي إنجاز الخلافة في الأرض، وهي مهمة تستغرق كل الحياة الدنيا، ثم هي تمتد إلى الحياة الأخرى بالحساب والجزاء. وهذه العقيدة تشيع في النفس زخما من الهمة والعزم، كما تشيع الأمل والتفاؤل، إذ ينفسح للمكلف مدى واسع للإيفاء بمهمته المكلف بها، وهي مهمة ليس لها حد تقف عنده، بل هي ارتقاء مستمر نحو الكمال في الأداء إلى آخر الحياة، حينما تُرّد الأمانة بالموت الذي ينتهي عنده التكليف[٥].

أركان المسئولية في الإسلام

للمسؤولية في الإسلام أركان:

أ- السائل

وهو الله ﷻ، الخالق، المالك، القادر على الجزاء. والمسؤولية أمام الله ﷻ تشمل:

---

[١]- الهندي: فرقان الدين مهربان، المسئولية الفردية في القرآن الكريم، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، من شعبة التفسير، قسم الدراسات العليا، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٤ – ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٤ – ١٩٨٥م، ص ٦.

[٢]- المسئولية وصلتها بالتكاليف الشرعية في ضوء القرآن الكريم، ص ٧٠.

[٣] - سورة الأحزاب، الآية رقم: ٧٢

[٤] - المسئولية وصلتها بالتكاليف الشرعية في ضوء القرآن الكريم، ص ٧٠ وما بعدها.

[٥] - النجار: عبد المجيد عمر، فقه التحضر الإسلامي، ط: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص: ٩٢،٩١.

أ- مسؤولية التوحيد النقي من شوائب الشرك بأنواعه، والمحافظة على الأركان الستة، وما يتعلق بها من مسائل عقدية: الإيمان بالله ﷻ ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره ، وشره.

ب- مسؤولية العبادة الكاملة، والتي تشمل من ضمن ما تشمل: التكاليف العينية، والكفائية.

٢- المسؤول

المسؤول لغة: المُحاسَب: وهو من تقع عليه تبعة عمل أو أمر ما [١]. ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ** ﴾ [٢]، أي: مطلوبون للحساب.

والمسؤول شرعا: البالغ العاقل، المُبَلَغ على لسان الرسل، بحيث يكون واعيا لطبيعة ذاته، وسلوكه، وأهدافه، ونتائج تصرفاته، مما يعود على نفسه أو على غيره، من نفع أو ضرر، إن عاجلا أو آجلا. وأن تكون له حرية الإرادة فيما يختار - فلا يكون مجبورا أو مضطرا لظروف أو سلطة قاهرة - وكذلك القدرة على تنفيذ اختياراته.

٣- المسؤول عنه

وهي التعاليم المُبَلَّغة، وهي شريعة الله ﷻ التي ارتضى لعباده، وهي الأمانة التي قال الله ﷻ عنها: ﴿ **إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [٣] .

فالأمانة هي كل الواجبات التي يجب على الإنسان أن يقوم بأدائها نحو الله ﷻ والناس، بحكم تمتعه بالحرية والقدرة [٤].

---

[١]- عمر: أحمد مختار عبد الحميد، (مع فريق عمل)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط: دار الكتب، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م. (ش) ، س أ ل، ١٠٢٠/٢.

[٢]- سورة الصافات، الآية رقم: ٢٤

[٣]- سورة الأحزاب، الآيات: ٧٢, ٧٣

[٤] -رجب: مصطفى، المسؤولية وضوابطها في الإسلام (٢)، مقال على موقع جريدة الشرق، ٢٠١٥/٧/١٠.-https://al
sharq.com/opinion/١٠/٠٧/٢٠١٥D%/٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥٪D٨٪B٣٪D٨٪A٤٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨٤٪D٩٪D٨%A٨٪A٩-
D%٩٪٨٨٪D٨٪B٦٪D٩٪٨٨٪D٨٪A٧٪D٨٪A٨٪D٨٪B٧٪D٩٪٨٧٪D٨٪A٧D%-٩٪١٨٪D٩٪٨-A
D%٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٥٪D٨٪B٣٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٥-٢

العلاقة بين المسئوليات في الدنيا والآخرة [١]

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المسئوليات في الدارين؛ لأن المسؤولية في الدنيا هي نتيجة لازمة لعلاقة المسئولية في الآخرة وتتطابق معها. وهي الحلقة التي تربط بين مواقف الإنسان في الدنيا والآخرة وتجعلهما طورين متعاقبين من الابتلاء والجزاء.

أما المسئولية في الآخرة فهي مسئولية فردية يتحمل فيها الإنسان بمفرده نتيجة عمله دون تأثير على الآخرين من حيث الثواب أو العقاب، يقول ﷻ: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ** ﴾ [٢]، ومما لا شك فيه أن إضلال الآخرين أو هدايتهم يقع في إطار هذه المسئولية الفردية، يقول المصطفى ﷺ مقررا ذلك: (**مَنْ سَنَّ خَيْرًا فَاسْتُنَّ بِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِنْ أُجُورِ مَنْ يَتَّبِعُهُ غَيْرَ مُنْتَقِصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ شَرًّا فَاسْتُنَّ بِهِ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَمِنْ أَوْزَارِ مَنْ يَتَّبِعُهُ غَيْرَ مُنْتَقِصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا**) [٣].

*****

[١] – بن حميد: صالح بن عبد الله، (مشرفا على مجموعة من المختصين)، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ط: دار الوسيلة للنشر والتوزيع – جدة، ٥/١.

[٢] – سورة النجم، الآيات: ٣٩:٤١

[٣] – ابن حنبل: أحمد (ت ٢٤١ هـ) ، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م، حديث رقم: ٢٣٢٨٩.

المقدمة الثانية – الاستخلاف والحضارة

الفصل الأول – اكتساب الحضارة

الحضارة وضع كسبي

التحضر ليس وضعا مجبولا في فطرة الإنسان، بحيث يكون حصوله على سبيل اللزوم الذي تحتمه الفطرة، وإنما هو وضع كسبي، يستحدثه الإنسان بإرادته الحرة ووعيه، بحركة وجهد جماعي، وفق عوامل ذاتية وموضوعية، تفضي إليه، بعد عون الله ﷻ وإذنه[١].

وقد سبق أن ذكرنا أن خَلْق آدم عليه السلام جاء متمما لخلق الأرض وتهيئتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا، لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي أتيح له أن يتخذ مكانه في الأرض خليفة لله ﷻ وسيدا للعالمين[٢]. ومن هذا المنطلق مُنِح القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة الحرة لاختيار أسلوب الحياة، التي يقوده إليه فكره ودوافعه النفسية والجسدية. ولكيلا يحس الإنسان بالدونية، ولا تدور في خاطره أية فكرة عن سلبية دوره في العالم، رُفعت مكانته إلى أعلى مصاف وطُلب من الملائكة أن يسجدوا له. وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة، ... أي: الأمور التي لابد منها لأي ابداع حضاري على الأرض.

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أن العالم قد مُهد تمهيدا للدور البشري على أرضيته، لأدركنا كم هي عميقة، شاملة، متكاملة، تلك الأسس التي مُنحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية، أو الحضارية في العالم[٣].

الحضارة الحقيقية إبداع واتباع

تكررت مسألة (الاستخلاف) أكثر من مرة في القرآن الكريم، منها قوله ﷻ: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾[٤]–[٥] .

---

[١] - النجار: عبد المجيد، الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، مقال منشور في مجلة التجديد، الصادرة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الأول، ١٩٩٧م، ، ص: ٨٩. ، عويس: عبد الحليم، الظاهرة الحضارية في القرآن والسنة، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، العدد ٢١، ص: ١٦٠.

[٢] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ١١٩.

[٣] - المصدر السابق، ص: ١٩١:١٩٩.

[٤] - سورة النور، الآية رقم: ٥٥

[٥] - من آيات الاستخلاف أيضا: فاطر: ٣٩، والأنعام: ١٦٥، والأعراف: ٦٩، ١٢٩، ويونس: ١٤-٧٣، والنحل: ٦٢.

ومسألة الاستخلاف تبدو خلال الآيات مرتبطة من جهة بالعمل والجهد والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض، والتلقي الدائم للقيم والتعاليم والشرائع عن الله ﷻ والالتزام الكامل بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم من جهة أخرى. والعلاقة بينهما أساسية متبادلة، بحيث أن افتقاد أي منهما سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة، ويقود إلى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بطرفي هذه العلاقة، لضبط وتوجيه العمل والجهد والإبداع في مسالكه الصحيحة التي تجعل الإنسان يقف دائما بمواجهة خالقه كخليفة مفوض عنه لإعمار العالم، قال ﷻ: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[1].

لهذا يندد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطئ من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض، وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة. وذلك حماية لمنجزات الإنسان الحضارية ووقف كل ما يعوق مسيرتها ونموها، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار.

وهذه الحماية الحضارية لا تنصب – شأن كثير من التجارب الوضعية – على الجوانب المادية من الإنجاز البشري (المدنية) فقط، ولكن قبل ذلك على المنجزات المعنوية: الفكرية والأخلاقية والروحية والنفسية، بمفهومها الإنساني الشامل، من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله ﷻ إلى بني آدم، ومن أجل ألا تصاب هذه المنجزات الأساسية (المعنوية) بنكسة أو كارثة ترجع بحركة التاريخ البشري إلى الوراء وفقا للمقاييس الإنسانية، مهما بقى التقدم المادي الصرف على صعوده وغناه.

إلا أن هذا لا يعني أبدا أن أي موقف سلبي إزاء حماية الإنجاز المادي من الدمار يمكن أن يقره القرآن. لأن الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية المادية والمعنوية، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس بشكل أو بآخر على الجوانب الأخرى، وهذا واضح في أكثر من آية كقوله ﷻ: ﴿ **وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا** ﴾[2].

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم الأمور السالبة عن الإفساد الروحي والمادي، وعما يؤول إليه من دمار لحضارة الإنسان، ولرقيه وسعادته وتقدمه، ومن عرقلة لدوره في العالم كخليفة عن الله ﷻ فيه، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن تتحرك لوقفه بأسرع ما تستطيع، وبأقصى ما تطيق، لئلا يتحول الفساد إلى فتنة عمياء لا ترحم

---

[1] - سورة هود، الآية رقم: ٦١

[2] - سورة الأعراف، الآيات: ٥٦،٨٥

أحدا ولا تبقي، وهي تحوم فوق رؤوس الجماعة كلها، ظالما أو مظلوما: ﴿ **وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ** ﴾[1].

إن القرآن الكريم يرفض في نظرته للمسألة الحضارية، أشد ما يرفض، موقف التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة، وإن تجزئتها وعزل بعض جوانبها، خلال العمل، عن بعضها، ليس خطأ فحسب، ولكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا ما أردنا – مسبقا – أن نصل إلى نتائج صحيحة.

ومن خلال تحقق الشرطين السالفين: الإصلاح، ووقف الفساد ومجابهته على كل المستويات، واستنادا إلى التعاليم الإلهية التي يجيء بها الأنبياء حينا بعد حين، تمارس الجماعة البشرية المؤمنة خلافتها في الأرض وتواصل الحضارة تقدمها ونموها من خلال إرادة الإنسان، وموقفه الفوقي على الكائنات، وقدراته التي منحه الله ﷻ إياها على التصور، والتخيل، والتخطيط، والتنفيذ، والفعل، والابتكار. قدرات على مستوى العقل والروح والعاطفة والوجدان على السواء. وليس ثمة شيء في العالم أو قوة في الكون، غير قوة الله ﷻ وحده، بقادرة على أن تصد الإنسان عن أهدافه ومطامحه التي قرر أن يسعى إليها[2].

*****

[1] - سورة الأنفال، الآية رقم: ٢٥

[2] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ١٩١:١٩٩.

الفصل الثاني – معنى الحضارة ومقاييس التحضر

الفصل الثاني – معنى الحضارة ومقاييس التحضر

الحضارة لغة واصطلاحا

الحضارة لغة

مفهوم الحضارة لغةً يحمل أكثر من معنى: كالحضور، والتواجد، والقرب[١]. وتعني الإقامة في الحضر، أي المدن والقرى، لأن فيها يكون الحضور مستمر، ومستقر، عكس حياة البادية[٢]. والحضارة: فعل أهل الحضر [٣]. والحضارة: مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[٤].

الحضارة اصطلاحا

الحضارة اصطلاحا هي: جملة مظاهر الرقي العلمي، والفني، والأدبي، التي تنتقل من جيل إلى جيل، في مجتمع أو مجتمعات متشابهة[٥]. أي هي الآثار التي تنشأ من الحضارة بمفهومها اللغوي، وهي حياة الحضور والاستقرار سواء كانت هذه الآثار والنتائج مادية أو معنوية[٦].

معنى التحضر

التحضر هو وضع من الاجتماع الإنساني ذو مواصفات خاصة في علاقة أفراد المجتمع بالأرض التي يعيشون عليها، وعلاقة هؤلاء الأفراد ببعضهم، بحيث تثمر هذه العلاقات كلها نمطا من الحياة تنمو فيه المكتسبات المادية والمعنوية بألوان مختلفة من حضارة لأخرى.

ووضع التحضر على اختلاف ألوانه محكوم بعوامل، وسنن، عامة، سواء في حدوثه أساسا، أو في تطوره ونمائه، أو في توقفه وانحلاله. وكل تحضر محكوم بعوامل بيئية، وعقدية، ونفسية، واجتماعية. وبقدر ما تتوفر شروط معينة في نطاق تلك العوامل بقدر ما ينمو التحضر ويتطور، والعكس[٧].

---

[١] - ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب، مع حواشي اليازجي وجماعة من اللغويين، ط: دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ، ص: ١٩٦ ، ١٩٧.

[٢] - فقه التحضر الإسلامي، ص: ١٩.

[٣] - قطب: محمد، واقعنا المعاصر، ط: دار الشروق ١٩٩٧م، ص: ٩٥،٩٣.

[٤] - معجم اللغة العربية المعاصرة، ٥١٣/١.

[٥] - مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص: ٧٣.

[٦] - فقه التحضر الإسلامي، ص: ٢١.

[٧] - المصدر السابق، ص: ١٩.

المقياس القيمي للتحضر

التقدم المادي لا يصح أن يكون كمقياس قيمي للتحضر. أما المقياس الحقيقي للتحضر فيستمد قيمته مما يوفره من الأمن والطمأنينة، والإخاء، والتعاون. وأيما تحضر تحققت فيها هذه المعاني فهو تحضر حقيقي، وأيما تحضر جلب معه الخوف والعداوة فهو ليس بتحضر حقيقي.

وعلى ذلك فإن مجتمعا بسيطا في مستوى المعيشة المادية لا يتجاوز الكفاف إلى الترف، ولكن يوفق في تحقيق مطالب الأمان والاطمئنان والمحبة والتعاون، فهو بذلك يكون أرقى في حقيقة التحضر من مجتمع آخر يبلغ مبلغا كبيرا في الأبهة المادية، ووسائل الترف، ولكنه يعاني من القهر والاستبداد والظلم. ولنا أن نقارن بين المجتمع المسلم عند البعثة المحمدية كمثال وبين المجتمع الروماني والفارسي كمثال آخر. ولعل من الحكمة الإلهية: إظهار الرسالة المحمدية في المجتمع العربي دون غيره من المجتمعات المحيطة به، حيث لم تذلل النفوس بالظلم والقهر، فكانت قادرة على التبليغ[1].

والحضارة الغربية الحديثة من أكثر الحضارات تجسيدا للاختلال بين الجانب المادي والروحي، حيث طغت على جميع مظاهرها الصبغة المادية الجافة، بإقصائها للدين وتأثيراته من الحياة اليومية للفرد الغربية، مما أدى إلى تحلل تام من الاعتبارات الدينية والقيود الاجتماعية، وتفكك عرى الأسرة، وجفاف العواطف الإنسانية، وميل الناس الجارف إلى اكتساب المال، والانغماس في اللذات[2].

مقياس التفوق الحضاري

بالإضافة إلى المقياس القيمي للتحضر، فإن مقياس التفوق الحضاري لا يكمن في حجم الإنتاج الكمي بقدر ما يكمن في مدى (أخلاقية) الجماعة المتحضرة، وسعيها لخدمة الأهداف الإنسانية الشاملة. والحضارة الإسلامية – عكس غيرها من الحضارات – تطرح شعارتها الإنسانية الشاملة الرحيبة والمنبثقة عن قيم الحق والعدل والالتزام بها بمقاييسها الموضوعية لا المنفعية، كما يطرح القرآن – بالمقابل – النقائص السالبة لهذه الأخلاقيات: كالكذب والغش، والتزوير، والجبن، ... داعيا المسلمين أفرادا وجماعات، إلى مكافحتها دون هوادة، وإلى استئصالها من أعماق نفوسهم، وأمداء علاقاتهم الاجتماعية، رابطا إياها بمسألة الصراع الدائم بين الإنسان والشيطان، وبين الخير والشر، من أجل أن يمنح الإنسان المسلم قاعدة واسعة لتصور الموقف، وإيمانا عميقا

---

(١) ـ فقه التحضر الإسلامي، ص: ٢٣،٢٤.

(٢) ـ المصدر السابق ، ص: ٢١ وما بعدها.

بضرورة المقاومة، واستجاشة لكل طاقاته من أجل الانتصار، الذي مهما كان جزئيا، فإن في النهاية سيضيف قوة إلى الرصيد الأكبر في صراع الخير والشر، والإنسان ضد الشيطان[1].

قوانين التقدم المدني (المادي) وشروطه

الأمة ذات الحضارة المتقدمة، هي التي اجتمع لها تقدم مدني، وتقدم ثقافي، والأمة المتخلفة حضاريا هي الأمة التي اجتمع لها تخلف مدني وتخلف ثقافي، وقد تكون أمة متقدمة مدنيا، ولكنها متخلفة ثقافيا والعكس. وفي ذلك درجات أيضا.

وقوانين التقدم المدني هي:

١- استغلال كامل للأرض في ظاهرها وباطنها.

٢- استغلال الشعب لوقته وبرمجته، بحيث لا يكون لديه وقت ضائع.

٣- أن يكون في الأمة اختصاصيون يغطون احتياجات الأمة في كل شيء.

٤- وجود النظام المناسب الذي يستطيع أن يعبئ.

٥- الثقافة المناسبة للتقدم المدني.

وقد توفرت للنظام النازي هذه الشروط، فاستطاع خلال ست سنوات أن يقفز ببلاده من بلد مقيد بمعاهدة فرساي، إلى بلد تخوض حربا عالمية تكاد تكتسح العالم. لكن لا يمكن أن تكون أمة متقدمة مدنيا وثقافيا في آن واحد إلا بالإسلام، للأسباب التالية:

أ- الإسلام يفرض قوانين التقدم المدني فرضا (الفروض الكفائية) [2].

ب- في ذات الوقت يفرض قوانين التقدم الثقافي فرضا (الفروض العينية العلمية، الكفائية العلمية).

ج- الإسلام يوجِد الشرارة التي تتفاعل بها هذه المعاني، والأساس الذي تنبثق عنه (العقيدة).

ء- الإسلام في نفس الوقت ضابط وموجه لهذه القضايا بمجموعها، المدنية والثقافية (الشريعة).

هـ - الإسلام في كل هذا حق خالص لا يستطيع علم أن يرفضه، ولا عقل أن ينقضه[3].

* * * * *

---

[1] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ٢٩١.

[2] - أوضحنا بجلاء، كل ما يتعلق بالفروض الكفائية، في كتابنا: نور الوعد الإلهي، ١- لزوم الفروض الكفائية، ودور الأفراد والمجتمع المدني، الطبعة الإلكترونية الأولى. ٢٠٠٣م.

[3] - حوى: سعيد، كي لا نمضي بعيدا عن احتياجات العصر، الرسالة الأولى: منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة، ط: دار عمان، ص:١٢:١٦.

الفصل الثالث– عوامل التحضر والسقوط الحضاري

الفصل الثالث- عوامل التحضر والسقوط الحضاري

لا ينشأ التحضر ولا ينمو إلا بعوامل فاعلة تؤدي إذا ما اجتمعت في مجتمع ما إلى ظهور حياة حضارية قيمة، ثم إلى نموها واستمرارها، ويرجع بعض هذه العوامل إلى الإنسان نفسه، ويرجع بعضها إلى البيئة الطبيعة التي يعيش فيها.

أولا – عوامل التحضر

١ – عامل الفكرة

التحضر باعتباره مظهرا راقيا للسلوك الجماعي الواعي ذا منطق موحد هادف، لا يمكن بحال أن يحدث إلا منبثقا عن فكرة دافعة، تعتنقها مجموعة ما من الناس، وتُنشيء بدفعها وتوجيهها نمطا حضاريا معينا. وقد تكون الفكرة الدافعة إلى التحضر فكرة دينية عليا، نازلة من مصدر غيبي حقيقي أو موهوم، وقد تكون فكرة إنسانية متأتية من الخيال الأسطوري أو من التأمل الفلسفي. إلا أن الفكرة الدينية هي الفكرة الأقوى في الدفع إلى إنشاء حضارة، وهي الأدوم في الحفاظ عليها، وتنميتها، لذلك فإن أغلب الحضارات الكبرى ناشئة ومتطورة من فكرة دينية.

والفكرة كما هي عامل إنشاء أولى للحضارة، فهي أيضا عامل صياغة للبناء الحضاري في جميع جوانبه: المادية والمعنوية، وهذا ما يبدو جليا في الحضارة الإسلامية، التي قامت على فكرة تمحيض الحياة الإنسانية كلها للإله الواحد، حيث جاءت هذه الحضارة مطبوعة بطابع التوحيد، في علومها، وفنونها، وعمرانها المدني، وقيمها الأخلاقية، والاجتماعية. وكذلك الحضارة الهندية التي قامت على فكرة الخلاص الروحي من العالم المادي، انطبعت بالطابع الصوفي في جميع مجالاتها.

٢ – عامل البيئة الطبيعية

فعلى أساس الأرض والمناخ تتحدد حركة الإنسان في الانتفاع بالتبادل الثقافي والاقتصادي، مما يكون له أثر بالغ في التحضر. فلابد إذن من مسرح بيئي مستجيب للاستعطاء في أرضه ومناخه، مع إمكانية الاستقرار، والاستثمار، واستثارة همة الإنسان الذهنية والعملية الدافعة للعمل والإنجاز.

٣ – عامل الدافع الحضاري

قد تتوفر الفكرة والعوامل الطبيعية، ولكن لا تتطور حياة الإنسان إلى التحضر، أو يتقدم ثم تنتكس حياته إلى البداوة أو مايشبهها، مثل الشعوب التي اعتنقت المسيحية، ولكن لم ينشأ التحضر فيها إلا بعد ألف عام، وذلك لأنه لابد من وجود دافع حضاري، وهو عامل يتكون في النفوس تكونا جماعيا، تكون له قوة استنفار جماعي، وهذا العامل هو عامل تفعيل الفكرة من جهة، وللبيئة الطبيعية من جهة أخرى. فالحلول الإيماني للفكرة بتعمقه في النفوس هو الدافع النفسي للعمل الحضاري. وأشد ما يُكسِب الفكرة الدرجة الإيمانية في النفس هو الدين، حيث يضفي على الفكرة: قداسة، وكذلك الأمر بالنسبة لمنزلته الطبيعية في النفس.

وعقيدة التوحيد في الإسلام كانت الدافع الإيماني على المستوى الفردي بما وقر في القلب من الإيمان، وما يتبعه من عمل الجوارح. وعلى المستوى الجمعي[١]، فإن القلوب التي انصرفت إلى الحق، ورفضت الباطل، وأقبلت على الله ﷻ بالتوحيد: اتحدت وجهتها، فذهب التنافس الخاطئ، وقل الخلاف، وزاد حسن التعاون، والتعاضد، وعظمت الدولة. ولا تفسير غير ذلك للدافع للتحضر الإسلامي الذي بدأ طفرة من قوم بدو، ثم شاع في العالمين.

[ولا تفسير للتراجع الحضاري الإسلامي إلا بانحسار هذا الدافع، حينما تراجعت عقيدة التوحيد عن موقعها العميق في النفس إلى موقع سطحي، وحينما تراجعت البيئة الكونية في حلولها بالنفس من معنى التسخير إلى معني الشيئية الجامدة].

ثانيا – السقوط والاستبدال الحضاري

أ– عوامل السقوط الحضاري

التحضر إذا لم يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتسابا جديدا فإنه بذلك يحمل في نفسه إمكانية تصدعه وتلاشيه، وتداعيه. وبناء على ما سبق من عوامل التحضر، فإن سقوط الحضارة يتأتى من نفس العوامل:

١– الفكرة التي دفعت إلى قيام التحضر، إذا انحرفت. كالأمم السابقة التي انحرفت عقيدتها، فجعلها الله ﷻ أثرا بعد عين، قال ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ** ﴾[٢].

---

[١] ـ تعتبر العقيدة الإسلامية هي الفكرة التي صنعت الحضارة الإسلامية، على معنى أنها تقابل عنصر الفكرة في العوامل العامة للتحضر كما شرحها فلاسفة الحضارة. الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، هامش ص: ٩٢.

[٢] ـ سورة إبراهيم، الآيات: ٢٨،٢٩

٢- البيئة الطبيعية، وهذا العامل له صورتين:

- الأولى: تتمثل في التغيرات البيئية الأرضية المناخية ذات الصبغة الانقلابية، والتي تخرج بها عن الحد الصالح الذي ينشأ به التحضر والتطور.
- الثانية: حد الرخاء والعطاء المجاني، مما يدعو الناس إلى التراخي، ويضعف فيهم روح الجهاد، فيكون الفتور في الإنجاز الحضاري، الذي يؤدي إلى تداعي التحضر. ولعل هذا المعني هو أحد مدلولات قوله ﷻ : ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ** ﴾[1]، حيث يؤدي انبساط الرزق إلى التظالم والتناحر بين الناس، وهذا وإن كان سببا اجتماعيا إلا أن أصله من رخاء البيئة الطبيعية.

وقد تكون البيئة الطبيعية صالحة لإحداث التحضر وتنميته، لكن تحولت في النفس إلى مجرد العيش فيها دون الفعل والاستثمار.

٣- عامل الدافع الحضاري: فإذا تحولت الفكرة إلى السطحية، ولم تعد موجودة، أو موجودة ولكنها غير دافعة ولا فاعلة، فحينئذ تنشط نوازع الأنانية الفردية، وتنصرف القوى إلى التناحر، بدل أن تُصرف في الإنجاز الحضاري الجماعي[2].

ب- اتجاهات السقوط والاستبدال الحضاري

إن قضية السقوط الحضاري للأمم تأخذ اتجاهات عدة: سياسية، وإدارية، واقتصادية، وأخلاقية، واجتماعية، وعقائدية. والحشود السلبية المدمرة التي يمكن أن تؤدي إلى السقوط الحضاري، قد تبدأ جزئيات وتفاصيل يومية صغيرة متقطعة، مستعصية على الرؤية والضبط، ولكنها ما تلبث أن تتجمع وتتجمع حتى تشكل تيارات خطيرة جارفة، تدمر في طريقها كل شيء، وتوقف كل نشاط فعال، وتصيب بالتفكك والدمار كل إنجاز وإبداع:

١- **سياسيا:** تقع مسؤولية في الجانب السياسي على القيادات والقواعد الشعبية على السواء، فعلى مستوى القيادة تحين ساعة السقوط يوم يتولى الحكم حفنة من المترفين الفسقة، أو الإداريين الظلمة، أو المجرمين الطغاة، فيمارسون من مواقع السلطة تلك كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك والدمار بالجماعة أو الأمة التي ارتضتهم قادة لها: الترف، والفسوق والطغيان، والفوضى، والاستغلال، والمكر، ورفض الدعوات الجديدة، واستخدام أقصى درجات القسوة والطيش لصد قومهم عن الانتماء إليها، واعتبار مبادئهم ورؤاهم

---

(١) - سورة الشورى، الآية رقم: ٢٧

(٢) - فقه التحضر الإسلامي، ص: ٤٢:١٩.

وتشريعاتهم الذاتية القاصرة المفككة، الحدود النهائية لموقف الإنسان في العالم: ﴿ **قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾[1].

والقرآن الكريم لا يعفي القواعد الشعبية من المسؤولية، فهي التي أعانت القيادات الفاجرة المجرمة الطاغية وأخلاقياتها الهابطة في أول الأمر، ثم دانت بالطاعة الاختيارية لحكامها وطواغيتها، ﴿ **وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا** ﴾[2].

٢- **إداريا:** يرتبط الجانب الإداري بالجانب السياسي أشد الارتباط بممارسات السلطة السياسية في إطارها الشامل، وتأخذ إزاءها علاقة طردية، فكلما زادت القيادة ظلما وطغيانا، كلما أصيب الجهاز الإداري – الذي هو الأداة التنفيذية لسياسات الدولة – بالتفكك والاضطرابات والعجز، والعكس.

٣- **اقتصاديا:** نجد فئة قليلة تملك إلى حد الترف، بمواجهة كثرة هائلة لا تملك إلى حد التضور جوعا، سيما إذا كانت الفئة المالكة في مراكز السلطة والمسؤولية (بينهما دائما علاقة متبادلة)، وهي تنذر – بانحرافها عن الموقف الإنسان الاجتماعي المتوازن – بشر مستطير، وعقاب، يستأصل من الجذور أمة أو جماعة أتاحت بإرادتها وسلبيتها ظهور هذا التناقض الخطير بين فئة مترفة حاكمة تملك كل شيء، وكثرة معدمة مظلومة لا تملك شيئا، قال ﷻ : ﴿ **وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا** ﴾[3].

٤- **دينيا:** طبقة رجال الدين التي تلتصق بطبقة المترفين، التصاق مصلحة ومنفعة واستنزاف، والذين يشترون بعقيدتهم ثمنا قليلا، ويدجلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم ويضخموا بها كنوزهم من الذهب والفضة. إن دور هذه الطبقة في تفسخ وتدهور وانهيار الجماعات والحضارات، قد يفوق في خطورته دور المترفين، بما تمارسه من استنزاف وتزوير في حياة الناس، بالوقوف مع طبقة المترفين بمواجهة حق الجماهير المادي والروحي على السواء، وبوقوفهما معا بمواجهة حق الفكر في البحث والتنقيب والاكتشاف، كيلا يؤول الأمر إلى فضح مواقعهما المحصنة بظلام الجهل والدخل والخرافة[4].

---

(١) - سورة غافر، الآية رقم: ٢٩

(٢) - سورة الأحزاب، الآيات: ٦٨،٦٧

(٣) - سورة الإسراء، الآية رقم: ١٦

(٤) - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ٢٨٥:٢٦٥.

ج- صيغ السقوط والاستبدال الحضاري

١- الصيغة المباشرة

يحدثنا القرآن الكريم عن صيغة الدمار المباشر الذي حاق بعدد من القرى والمجتمعات، عبر عصور التاريخ المتقدمة، بسبب مواقفها الجائرة من دعوات الأنبياء عليهم السلام، بما أشار إليه من القوى الطبيعية لمواجهة الصلف والكفر والغرور البشري: كالسيل، والجفاف، والحاصب، والصيحة، والخسف أو الزلزال أو الرجفة، والغرق، والصاعقة، والطوفان، والحشرات، والمطر العنيف، والأوبئة، أو الدمار الشامل دون إشارة إلى وسيلة بالذات.

٢- الصيغة غير المباشرة

الصيغ الأكثر شمولا وديمومة، هي تلك التي تجيء تعبيرا غير مباشر عن الإرادة الإلهية، من خلال الإنسان نفسه، والذي يقود بممارساته الخاطئة، وبرفضه الالتزام بدوره كخليفة لله ﷻ على الأرض، وبأخلاقياته السالبة: الأمم والشعوب والحضارات إلى الدمار.

فمثل هذا العقاب، أو السقوط بمفهومهما الشامل، لا يجيئان إلا بعد أن تكون الجماعة قد استنفذت كافة مبررات بقائها، ومن ثم فإن أية ضربه توجه إليها تكون كافية لإزاحتها من الوجود، وفسح الطريق أمام الجماعات الأكثر فاعلية، وفق مفهوم المداولة القرآني.

قد تكون هذه الضربة النهائية على شكل غزو خارجي، أو عصيان داخلي، أو تمزق طبقي، أو على شكل كارثة طبيعية قاسية، تفوق في تحديها قدرة الجماعة المفككة على الرد والصمود، فتتمزق وتتلاشى.

ولا يكون هذا العقاب، وذلك السقوط بمثابة إبادة نهائية للجماعة أو تصفية جسدية لا تبقي أثرا، كما كان الحال مع عدد من الأقوام المتقدمة، إنما هو التمزيق والتفكيك والتشتت، الذي يتسبب في إرغام جماعة ما على التنازل عن مركزها القيادي، والتراجع إلى الخطوط الخلفية، لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى، بعد أن كانت متبوعة مطاعة: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ** ﴾[١] .

ومن ثم فإن الجزاء سينصب على الأفراد والجماعات على حد سواء، والعذاب في الأرض قد يصيب العصاة بالذات كأفراد، وقد يدمدم على الجماعة كلها فيمزقها شر ممزق، كما أن السعادة في الأرض قد تمنح لمؤمنين بالذات كأفراد، وقد تتنزل على الجماعة المؤمنة كلها فتوحدها وتجعلها جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

---

[١] - سورة هود، الآية رقم: ٥٧

أما في السماء، فيتقدم الإنسان وحيدا ليحاسب أمام الله ﷻ ، يحمل معه كتابه الذي خطه في اختباره، وسطر على صفاحته أعماله، فينال – بعد حسابه – مصيرا مكافئا لهذا الاختيار وذلك العمل. ففي اليوم الآخر تتفكك الجماعات، وينصب الحساب على الفرد. ﴿ **لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا** ﴾[1].

ء- السقوط والاستبدال الحضاري وفق السنن الإلهية

الاستبدال التاريخي، أو الحضاري، لن يجيء وفق أساليب متعسفة ومباشرة، إنما هي سنن الله ﷻ في التاريخ، وإرادته النافذة من خلال النواميس ذاتها، التي تؤول، وفق مساراتها المنطقية المرسومة البعيدة المعقدة غير المباشرة. إلى تحقيق هذا الهدف الخطير: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾[2]، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى إزاء نظرية (الاستخلاف)، والتي طرحها القرآن لحظة خلق آدم، وإزاء (الوعد) الدائم بعوده أبنائه البررة إلى مركز (القيادة) والشهادة، أولئك الذين يجاهدون على كل الجبهات لتنفيذ مقتضيات خلافتهم في الأرض، والالتزام بشروطها التي لن تستقيم بدونها لبني آدم حياة.[3]

لكن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة من بين سائر الحضارات التي شهدها التاريخ البشري، الحضارة القادرة على الانبعاث والنهوض مرة ثانية وثالثة ورابعة، في القرن العشرين، أو الواحد وعشرين، لأنها تملك في أية لحظة شبكة شروطها في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وتجد في الوقت الملائم دائمها – رحمها الذي يمكن أن تنمو فيه كل مرة لكي تخرج إلى الحياة وهي تحمل قدرتها على التنامي على سوقها[4].

هـ- سرعة السقوط والاستبدال الحضاري

نلتقي في القرآن الكريم بين حين وآخر، بإشارات ولمحات عن البعد الزمني في الكون، كقوله ﷻ: ﴿ **قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ** ﴾[5]، وقوله ﷻ: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ** ﴾[6]، إن بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن الكريم – وغيرها كثير، ترابطا وانسجاما رياضيا دقيقا، وإن فيها تأكيدا مستمرا على الحقيقة (الطبيعية) الكبرى التي لم تتكشف بعض

---

[1] - سورة مريم، الآيات: ٩٥،٩٤
[2] - سورة النور، الآية رقم: ٥٥
[3] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ٣٢٥:٣٢١
[4] - خليل: عماد الدين، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ط: الدار العربية للعلوم، والمركز الثقافي العربي، ص: ١٠.
[5] - سورة البقرة، الآية رقم: ٢٥٩
[6] - سورة يونس، الآية رقم: ٤٥

جوانبها للعلم إلا أخيرا – كالنظرية النسبية لأينشتاين – تلك هي أن الزمن في الأرض والزمن في أمداء الكون ليسا سواء، لأن هناك فرقا شاسعا بين الوحدة الزمنية الأرضية، والوحدة الزمنية الكونية، الأمر الذي يفسر لنا ظن الناس يوم القيامة أن حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار، كما يعطينا – على المستوى التاريخي – مفتاح هذا التأجيل المتطاول لمصائر الأمم والقيادات الظالمة، حتى لنتصور أحيانا أنه قد غُض الطرف عنها، وإنها سوف لن تبلغ مرحلة سقوطها أبدا.

إن رسول الله ﷺ يحدثنا، مُزيلا للهواجس من النفوس المتسرعة القلقة، ذات التجارب النسبية المحدودة فالله ﷻ يمهل ولا يهمل، وإنه ﷻ (**يُمْلِي لِلظَّالِمِ فإذا أخذَهُ لم يُفلِتْهُ**)[1]. وهذا الإمهال يبدو في حسابنا الأرضي طويلا قد يتجاوز السنوات، وقد يمتد إلى عقود السنين، وربما قرونها، لكي تحق كلمة الله ﷻ على الظالمين، أفرادا وجماعات، ولكي يأخذ العدل الإلهي مجراه. لكن هذه الأيام والسنين والعقود والقرون لا تعدو في زمن الله ﷻ يوما أو بعض يوم، ومن ثم كان تَمَهُّل الله ﷻ بطيئا في حسابنا، سريعا سرعة مذهلة في حساب الملأ الأعلى. وإذا كنا نحن نستبطئ عقاب الله ﷻ حينا، فربما كان الملأ الأعلى يتسرعه أحيانا.

وما كان لنا إذن إلا أن نذعن لأمر الله ﷻ ، وتتيقن نفوسنا عدله الأزلي الشامل، الذي يتجاوز نسبيا الزمان والمكان إلى القيم المطلقة، التي لا ينحرف بها ميزان ولا يطيش عندها جزاء أو عقاب ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾[2]– [3]

*****

[1] - القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج بن مسلم (ت ٨٧٥ هـ)، صحيح مسلم، ت: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري، وآخرون، ط: دار الطباعة العامرة – تركيا، ١٣٣٤ هـ ، حديث رقم: ٢٥٨٣.

[2] - سورة الحج، الآية رقم: ٤٧

[3] - التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: ١١٩-١٢١.

الفصل الرابع : فقه التحضر الإسلامي

الفصل الرابع : فقه[1] التحضر الإسلامي

أولا – خصوصية الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية تختص من بين الحضارات بمبادئ وأصول وقواعد مختلفة تحكم نشأتها وتطورها، والتي أصابها بعد فترة من ازدهارها خلل فأدت إلى ركود هذه الحضارة وانحدارها. ونشير في هذا الصدد إلى أن المناداة بنهضة حضارية إسلامية على غرار الحضارة الغربية القائمة اليوم، ووفقا لمنطقها ومقاييسها، لن تؤدي إلا إلى تشويه الحياة الإسلامية من جهة، وإلا إلى الاضطراب والارتباك من جهة أخرى، بل قد تؤدي إلى مزيد من الارتكاس والانتكاس. وكل المحاولات القائمة منذ زمن في هذا الاتجاه، لم تفض إلى شيء من أهدافها، بل لعلها أفضت إلى عكس تلك الأهداف. وتبعا لذلك، فإن كل محاولة للنهوض الحضاري الإسلامي تتطلب أول ما تتطلب الفهم الواعي لطبيعة تلك المبادئ والأصول والقواعد، ليكون ذلك ميزانا لتعديل المسار الحضاري للأمة تعديلا يفضي إلى استئناف حركة الترقي الإنساني، من حيث قوامه الفردي والاجتماعي، ومن حيث أوضاعه المادية، وهو جوهر التحضر المنشود[2].

وإذا كان التحضر في أية حضارة يتأتى من الفكرة التي قامت عليها، فإن التحضر الإسلامي لا شك يقوم على العقيدة الإسلامية، المبينة لحقيقة الوجود، وغاية الحياة، والتي شكلت قاعدة من قواعد فقه التحضر الإسلامي. والمهمة التي من أجلها خلق الإنسان، هي أن يكون خليفة لله ﷻ في الأرض[3]، يقوم بحركة تعمير في الأرض وفق أوامر الله ﷻ ونواهيه، بحث يكون في كل منشط مادي أو معنوي متجها إلى الله ﷻ يستجلي مراده ويتحراه، ويبتغي مرضاته، قال ﷻ، ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾، وبالتالي يصبح مفهوم التحضر الذي هو الطور الراقي من حركة الإنسان مفهوما مشربا معنى العبادة لله ﷻ ، إذ هو وجه من وجوه الإنجاز لمهمة الخلافة، والخلافة في جوهرها قائمة على العبادة، قال ﷻ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[4]، وهذا المعنى يعطي للتحضر الإسلامي بعدا خاصا به يميزه عن سائر أنماط التحضر الأخرى، إذ هو يدرجه جملة في إطار العبودية لله ﷻ ، فهو إذن في كل عناصره ومظاهره مسيرة إنسانية نحو الله ﷻ ، أو بتعبير آخر: مقياس الكفاءة والأمانة في أداء مهمة الخلافة بحسب أوامر المستخلِف ﷻ وتوصياته.

---

[1] - نعني بالفقه هنا: المعنى المنهجي، وهو المبادئ والأصول والقواعد التي تشكل نسقا يحكم الظاهرة المعينة، أو العلم المعين، أو الحضارة المعينة، ولا علاقة له بالفقه الذي هو العلم المعروف. الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، هامش ص: ٩٠.

[2] - المصدر السابق، ص: ٩١.

[3] - المصدر السابق، ص: ٩٢.

[4] - سورة الذاريات، الآية رقم: ٥٦

ثانيا – مظاهر الترقي الاستخلافي

هذا البعد العقدي (الاستخلافي) للتحضر الإسلامي من شأنه أن يطبع التحضر الإسلامي بطابع (تَرَقِّي) استخلافي مطرد في حياة الإنسان، سواء في ذاته الفردية، أو في ذاته الجماعية، أو في منهجه الذي به يكون تحقيقه للحياة[1]، وذلك على النحو التالي:

١– الترقي الاستخلافي الفردي

يكون ترقي الإنسان نمطا عباديا استخلافيات، بتنمية الفرد لقدراته الذاتية، تنمية مستمرة، كل قُدرة بحسب طبيعتها، بحيث تكون موجهة في وجهة العبودية لله ﷻ:

أ– **الروح:** بتطبيعها على الفضيلة والخير.

ب– **العقل:** بإقداره على الوصول إلى الحق، عند النظر في موضوعات المعرفة الغيبية والمادية، للتعمير في الأرض، وتحقيق الخير للناس.

ج– **الحواس:** بإكسابها القوة في إدراك المحسوسات، لإحسان العبادة، وإكسابها القوة في أداء المنجزات العملية، لاستخراج خير الطبيعة، وتوظيفه لصلاح الإنسان.

والترقي بهذا المعني في حقيقته استخراج للقدرات الكامنة في الإنسان– والمختلفة من شخص لآخر– من طور القوة، إلى طور الفعل، كل حسب ما هو متوفر له من قدرات، ولعل ذلك أحد معاني قوله ﷺ: (**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَه**)[2]. هذا مع التوازن بين تلك القدرات، دون ميل لبعضها على حساب بعض، فتصبح – مع المجاهدة المستمرة – للإنسان حالا راسخة يمارس به الحياة كلها، تكسبها درجات من الإحسان تمتد بغير نهاية.

فيوازن بين تنمية الروح التي تطلب السمو إلى عالم الخير المطلق، وتنمية الجسم المادي الذي يطلب الشهوة الطينية، ويتوق إلى التحرر من مطالب الروح. ويوازن بين ترقية الحس والعقل، بما يمكنه من التقرب إلى الله ﷻ بالمزيد من معرفة حقيقة وجوده وصفاته وخلقه، وبالمزيد من إحكام السيادة على الكون بمعرفة مشاهده وقوانينه. يوزان في تنمية فطرته بين المنزع الفردي الذي يدفعه إلى إثبات الذات وتحقيق الفردية الوجودية، والمنزع الاجتماعي الذي يدفعه إلى التآلف مع الآخرين لحفظ ذاته وحفظ نوعه.

---

[1] - فقه التحضر الإسلامي، ص: ٥٣،٥٢.

[2] - صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٦٤٩.

٢- الترقي الاستخلافي الجماعي

الخلافة في الأرض مهمة لا يمكن أن تنهض بها إلا جماعة الإنسان، ومهما يكن من ترقي الإنسان الفرد في ذاته، فإنه لا ينجح بمفرده في إنجاز تلك المهمة. يضاف إلى ذلك أن الترقي الفردي لا يفضي بالضرورة إلى ترقي الجماعة، وإن كان شرطا من شروطه.

ولعل الترقي الاستخلافي الجماعي هو ما عبرت عنه الآية الكريمة بالتعارف في قوله ﷻ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ** ﴾[(١)]، فالتعارف في هذا المقام المقصود به رجوع الكثرة من الأفراد على تعددهم القبلي على وحدة متعاونة على ما يكون به قوام الحياة الجماعية. وهذا التعارف يشمل:

أ- **التكافل:** حيث يقوم كل فرد وكل مجموعة في المجتمع مقام الكفيل لكل الأفراد والمجموعات الأخرى على قدر الوسع، والمقصود بالكفيل: الشاهد، والضامن، والرقيب. فيكون تعارف التكافل ماديا كالإيفاء بحاجة المحتاجين، ومعنويا بالمواساة والتسرية عن المأزومين والمنكوبين. يشمل هذا قَولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(تَرَى الْمُؤْمِنِينَ: فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)**[(٢)]. والتداعي بالسهر والحمى، ليس في حقيقته إلا تجند جهاز الدفاع في سائر الأعضاء لنجدة العضو المصاب، وكشف العطب عنه.

ب- **الشورى:** ومعناه أن يتطارح أفراد المجتمع قضاياهم ومشاكلهم للمداولة فيها، بحثا وتحليلا وتعليلا وإبداء رأي، وأن يكون ذلك سنة متفشية فيهم شاملة للأفراد كلهم، ومستوعبة لأمور الحياة كلها، قال ﷻ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ** ﴾[(٣)].

وبمسلك الشورى عل هذا النحو الجامع، تتجند طاقات المجتمع، وتتقابل في حوار نقدي يتحصحص فيه الحق، فيما يجب أن تجري عليه حياة الناس، ومن جهة أخرى فإن شراكة الأفراد في المداولة وإبداء الرأي في أمور الحياة، ثم الانتهاء إلى وجه يكون عليه العزم، من شأنه أن يشعر الجميع بأنهم من ذوي الأهمية والمسؤولية في تصريف الحياة، فتنشأ في النفوس الهمة لتنفيذه بإحسان، ورعايته حال التنفيذ.

ج- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** فقد تتوصل الأمة بالشورى إلى وجوه الحق، وإلى العزم على تنفيذه، لكن تطرأ بعض الملابسات الداخلية والخارجية، أو يتناوشه الباطل، أو ينتاب بعض الأفراد أو المجموعات الغفلة أو الفتور، فيصير معطلا في الأذهان أو الأعمال. فيأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقاعدة

---

(١) - سورة الحجرات، الآية رقم: ١٣

(٢) - البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ت: دكتور / مصطفى ديب البغا، ط: دار ابن كثير، دار اليمامة – دمشق، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م، ، حديث رقم: ٥٦٦٥.

(٣) - سورة الشورى، الآية رقم: ٣٨

إسلامية حافظة، يقوم بها الأفراد والمجموعات في نطاق الأمة، مقام الحارس الاجتماعي الذي يرصد السيرورة الحضارية للمجتمع، قال ﷻ: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾[1].

٣- الترقي الاستخلافي المنهجي

التحضر يحتاج أيضا إلى ضبط قواعد في ترقية النهج الذي يكون به الأداء الحضاري تفكيرا وسلوكا، حتى يؤدي منهج الأداء إلى تحقيق غرض الاستخلاف كما تقتضيه عقيدة الخلافة. وأهم قواعد الترقي المنهجي هي:

أ- **التوحيد:** باعتبار أن العقيدة الإسلامية التي هي الفكرة الدافعة للتحضر تنبني على أساس التوحيد، أي الإيمان بوحدانية الله ﷻ في الذات والصفات، وأنه مُبدئ الخلق، ومدبر الكون، وحاكم حياة الناس، ومعبودهم، ومنتهي لكل الكائنات في المصير. وهذه العقيدة تطبع معتنقيها في ممارستهم للحياة كلها : فكرا، ووجدانا، وسلوكا، بطابع الوحدة، بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائرا في بنيته وغايته على قانون من الوحدة التي تتآلف بها المختلفات، وتتوحد بها المقاييس، وتلتقي بها المشارب على هدف مشترك.

ب- **الشمول:** فالإنسان الخليفة في العقيدة الإسلامية مَعْنِّي بمقتضى عقيدته بالوجود كله، وبالحياة كلها، فهو معنِّي بالعالم الغيبي، لإنه مستخلف من قبل الله ﷻ استخلافا يؤول بالحساب إلى حياة أخرى. وهو معني بعالم الشهادة، لأن خلافته تستند على الكون المشهود الذي هو مسرح الاستخلاف.

وهذا الشمول يصوغ الفكر على شمولية في النظر، تدفع المسلم إلى الانطلاق في البحث المعرفي بحثا شاملا للوجود: غيبيه ومشهوده، روحيه وحسيه، ماضيه وحاضره. وبهذا الشمول أبدع التحضر الإسلامي إبداعات معرفية مشهودة جمعت بين العوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية والروحية.

ج- **الواقعية:** حيث كانت الواقعية هي المنطلق للاستيقان بوجود الله ﷻ المستخلِف وصفاته لتجلي هذه الصفات في الكون، الذي هو مسرح الخلافة، مما يستلزم من الخليفة استيعاب حقائق هذا الكون المادية كشرط لممارسة مهمته. وهذا من شأنه أن يجعل الواقع منطلقا أساسيا للبحث عن الحقيقة لشرح الوجود، ولتحديد مسار الحياة الإنسانية. وهذا ما دفع المسلمين للاتجاه إلى واقع الكون وواقع الحياة بالملاحظة والدراسة والتحليل.

---

[1] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٠٤

ء- **اندفاعية الإنجاز:** إذا كانت الخلافة تحمل المعنى التكليفي، وهي مهمة تستغرق الحياة كلها، فإن على الإنسان أن ينجز الخلافة في كل لحظة من لحظات حياته، وفي كل حركة من حركات الفكر والجوارح. وهذا من شأنه أن يكسب المؤمنين روحا منهجية في سعيهم الإنجازي للتحضر تأخذ مأخذ النفير، قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[1] فهو التناد الجماعي الذي تقوم فيه كل فرقة بجزء من مهمة التحضر، فإذا الحصيلة نفير عام يشترك به جميع الأفراد للوفاء بهذه المهمة الفردية الجماعية في نفس الوقت[2].

وباعتبار هذا المعني يصبح الميزان الذي يُعايَر به التحضر الإسلامي، هو ذلك الترقي في عناصره الثلاثة، فإما أن يسموا محكوما بالوجهة الإلهية، أو ينزل منحرفا عنها: فيكون تحضرا إسلاميا كلما كان فيه الترقي بحسب تلك الوجهة، وتُنزع عنه الصفة الإسلامية كلما كان خلاف ذلك[3]. فالاستخلاف في القرآن الكريم حركة إيجابية، فاعلة، دائبة، مستمرة، ومتناغمة مع سنن الأنفس والآفاق يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته الروحية والخلقية، وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح، والانتفاع بها، وتوجيهها لخدمته وخدمة بني جنسه رغبة في إقامة حضارة إنسانية في ظل منهج العبودية لله ﷻ الذي تنتفي معه كل مظاهر الخلل والفوضى والاضطراب[4].

*****

---

[1] - سورة التوبة، الآية رقم: ١٢٢

[2] - فقه التحضر الإسلامي، ص: ٧٩:٥١.

[3] - المصدر السابق، ص: ٩٤.

[4] - وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية، ص: ٢٠٠.

الفصل الخامس – خصائص الحضارة الإسلامية

تتميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات بالخصائص التالية:

أ– حضارة إيمانية

الحضارة الإسلامية متفردة في أنها تنبثق عن أصول عقيدية مستمدة من منهج عمل إلهي، قادم بالوحي من السماء. وهي مهما تضمنت من أخطاء وانحرافات متعمدة أو غير متعمدة، ومهما شذت أو بعدت – أحيانا – عن مسارها الأصيل، المستمد من الجذور، المتوجه صوب الهدف، فإنها تظل في نسيجها العام، وفي إيقاعها وصيرورتها وتوجهاتها ونبضها، حضارة إيمانية تعتمد الوحي جنبا إلى جنب مع الوجود.

وهي من أجل ذلك تلتزم العمل في إطار منظومة القيم التي تحددها العقيدة، وليس خارج هذه المنظومة. ويعبر هذا الالتزام عن نفسه في مفردات النشاط الحضاري، وفي صيغ التعامل مع نتائجه، وفي توظيف هذه النتائج لخدمة الأهداف الإيمانية العليا للإنسان، وليس جعلها هدفا بحد ذاته، أو أداة منفعية صرفة.

وتتمحور إيمانية هذه الحضارة، شأنها شأن كل ممارسة إسلامية، عند التوحيد، وتنطلق منه، وهذا يمنح الفعل البشري وهو يعمل، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصلية خليفة عن الله ﷻ وحده في هذا العالم، مستعمرا له وحده فيها. كما يمنح التوحيد النشاط الحضاري الإسلامي وحدته المتماثلة وشخصيته المتفردة، فيشد جزئياته في نسق واحد تتجه خيوطه كلها صوب الهدف الواحد. وعلى مستوى الدافع يضع التوحيد العالم المسلم قبالة الله ﷻ مسؤولا عن قدراته التي أودعه الله ﷻ إياها، ساعيا لاستثمارها أقصى استثمار.

وفي التوحيد يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهمين المبدئ المعيد ﷻ ، ويتحرر العالم المسلم من الخرافات التي تلبست المذاهب والأديان الأخرى، فعرقلت الانطلاق الحر للإنسان للكشف عن السنن والطاقات والنواميس.

والتوحيد هو صمام الأمام عبر تعامل الحضارة الإسلامية الأخرى مع الحضارات الأخرى، فلا تأخذ في الأغلب الأعم إلا ما ينسجم وإياه، ولا تمرر إلا ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية[1].

ويتفرع عن هذا التوحيد: مجموعة من (القيم البانية) للحضارة الإسلامية، من أهمها:

١– **الاستخلاف:** هذه القيمة هي الأسبق في الوجود، منذ خلق الله ﷻ آدم عليه السلام وجعله خليفة في الإرض – وقد تحدثنا عنها سابقا بما يغني عن التكرار.

[1] ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٦٧:٧٠.

٢- **الأمانة:** الأمانة ضد الخيانة، وهي كل حق لزم أداؤه وحفظه، وهي باب واسع تدخل فيه صور كثير؛ منها ما يتعلق بحقوق الله ﷻ من توحيده، وعدم الإشراك به، وعبادته، وطاعته، ومنها ما يتعلق بحقوق الأمة من أداء مهمة التبليغ بآية لقوله ﷺ **(بلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)**[1]، وانتهاء بأداء رسالة الدين كله؛ وهي الأمانة التي حُمِّلها الإنسان، ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوما جَهُولا** ﴾[2]. والأمانة مرتبطة بالاستخلاف؛ لأن الاستخلاف في الأرض وعمارتها وفق منهج الله ﷻ وشريعته أمانه، ويشترط في إقامتها في الأرض إقامتها في الإنفس، ليسهل حمل الناس عليها.

٣- **المسؤولية:** المسؤولية ترتبط بالقيميتين السابقتين ارتباطا وثيقا؛ فأمانة الاستخلاف بمعناها العام تعني تحمل الإنسان مسؤولية اختياراته الدنيوية، والتي يترتب عليها الجزاء الأخروى، كما تعني تحمل مسؤوليته لما أؤتمن عليه من أمانات وعهود ومواثيق، والتي سيُسأل عنها حفظ أم ضيع – وقد سبق الحديث عن المسؤولية بالتفصيل.

٤- **القوة:** الحضارة الإسلامية اعتمدت في قيامها على قيم: الرفعة، والمنعة، والعزة، والكرامة، والفاعلية، والشدة، وغيرها، مما أسهم في إرادتها. ونقصد بالقوة: القوة المادية، والقوة المعنوية، المحركة لكل القيم التعبدية والتشريعية والأخلاقية، وهي قوة العقيدة الحاكمة لكل القيم السابقة، وهي المحفز للإيجابية، وامتلاك القوة المادية لمواجهة النزعات الداخلة للنفس أولا، وللتصدي للتيارات الخارجية التي تهدد كيان الأمة الإسلامية ثانيا. وهذه القوة هي التي أعانت المسلمين الأوائل على الانتصار على أقوى امبراطوريات ذلك الزمان، رغم قلة العدد والعتاد.

٥- **الرغبة:** لابد بعد إحراز القوة وقبلها تحقق الرغبة التي هي شرط أولى في أي نهوض حضاري، فلا يمكن تصور الوصول إلى هدف دون الرغبة الساعية إليه، وبدونها لا تتحقق الثمرة المرجوة منه. والرغبة هي ميل الإنسان نحو الحصول على أمر يفتقده حاليا. وكل مسلم يتوق لاستعادة مجد الأمة الحضاري. وهذه الرغبة هي المعبَر عنها بالحافزية الذاتية للإصلاح والتغيير نحو الأفضل، قال : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ** ﴾[3]–[4].

---

[1] - صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٤٦١.
[2]- سورة الأحزاب، الآية رقم: ٧٢
[3] - سورة الرعد، الآية رقم ١١
[4] - نحو منظومة للقيم الحضارية البانية على أساس أمانة الاستخلاف، (مقال).

ب- حضارة الموازنة بين الأصالة والانفتاح

فقد تميزت الحضارة الإسلامية بالتوازن بين الإصالة أي: القدرة على حماية الذات من التفكك والتغير والانحلال، وبين الانفتاح، أي: الاستعداد الدائم لقبول القيم والخبرات من الغير، وهضمها. وهذا ساعدها على عدم الذوبان في الكيانات الغريبة التي تدمر شخصية الجماعة المسلمة، وتلغي ملامحها وسماتها، مع عدم الانغلاق على معطيات الحضارات الأخرى.

فلقد كانت الحضارة الإسلامية قديرة على الاستجابة للتحديات، لا تنكمش دونها ولا تهرب إزاءها، بل تفككها إلى عناصرها الأولية، ولا تأخذ إلا ما يتلاءم مع تكوينها الإسلامي، وتمنحه القدرة على النمو والامتداد، وترفض وتبعد وتستثني ما يعرقل حركة النمو ويضع في طريقها العوائق والعثرات[1].

ج- حضارة الوسطية

فلقد أعلنها القرآن بوضوح: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّة وَسَطا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيداۗ** ﴾[2]، والوسطية هنا: موقف عقيدي، واستراتيجية عمل، ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم. إنها القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن، وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال، ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور. ورغم تعرض هذا التوازن – على المستوى التاريخي – للتأرجح بين الحين والحين، إلا أنه في إطار التجربة الإسلامية يظل بين سائر التجارب الأخرى في العالم، أكثرها وضوحا وتألقا[3].

وهذه الوسطية هي توازن بين الربانية والإنسانية، وبين الوحي والعقل، وبين الروحية والمادية، وبين الأخروية والدنيوية، وبين الفردية والجماعية، وبين المثالية والواقعية، وبين الماضوية والمستقبلية، وبين المسؤولية والحرية، وبين الاتباع والابتداع، وبين الواجبات والحقوق، وبين الثبات والتغير، وبين الاعتزاز والتسامح[4].

ء- حضارة شمولية

فقد تميزت الحضارة الإسلامية بالقدرة على التحقق بكافة الأنشطة، والامتداد إلى كافة المناحي، والتوغل في نسيج الحياة والوجود، ومتابعة كل ما من شأنه أن يهم الإنسان. ولم ينكمش بناة هذه الحضارة يوما إزاء جانب من الجوانب، ولم ينحسروا أزاء مساحة من المساحات، ولم يهربوا أو يفروا أمام معضلة من المعضلات. فما

---

[1] - المصدر السابق، ص:٧٠ .
[2] - سورة البقرة، الآية رقم: ١٤٣
[3] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٧١.
[4] - الإسلام حضارة الغد، ص: ١٥١،١٥٠.

من أمر يهم العقل أو الروح أو الجسد أو الحس أو الوجدان، إلا قالوا فيه كلمتهم، وقدموا حسب قدراتهم، وإمكاناتهم، التعبير الثقافي المناسب. ولقد قدمت هذه الحضارة لكل هذه الجوانب المادة الغذائية الصالحة لها جميعا في وقت واحد، وكانت تملك الخبرة التي تمكنها من أن تعد صنوفا جيدة شهد لها الخصوم قبل الأصدقاء[١].

هـ – حضارة إيجابية

فقد رفضت الحضارة الإسلامية التخريب والإفساد، ولم تسمح لأن تأخذ بخناقها رؤية سوداوية متشائمة للوجود والمصير والمسعى البشري في هذا العالم، ولم تثمر نزعات هدامة كاحلة كالعدمية، أو الوفوضوية، أو العبثية، أو السريالية، الموغلة في سراديب الجنس والكبت والظلام والجنون، كالذي أفرزته الحضارة الغربية. كما أنها لم تعكس، كما حدث في أوروبا رؤى وأخيلة وفلسفات يبلغ من جموحها واندفاعها باسم التطور، والنزوع الارتقائي، أن تدمر كل الثوابت والخبرات والمؤسسات المتفق عليها في تاريخ الجماعات البشرية المتحضرة، وتسوق الإنسان والمجتمع إلى نوع من الانتحار أو الاصطراع مع الذات وقوانين الفطرة والتاريخ، الأمر الذي كان يكتشف في أعقاب كل جولة من جولات الاندفاع غير المتبصر هذا، ولكن بعد أن يكون قد هدر الكثير من الفرص والطاقات.

ولقد علمهم الرسول ﷺ أن يمضوا في إعمار الحياة، وبناء العالم، ومد الخضرة في مساحاته حتى آخر لحظة، فلقد قال لهم: **(إنْ قَامتِ السَّاعةُ وفي يدِ أحدِكم فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا)**[٢].

و– حضارة واقعية

قد يقال أن الحضارة الغربية، والكثير من الحضارات الأخرى عبر التاريخ، واقعية، لكن الحضارة الإسلامية قد تجاوزت في طموحاتها الكبيرة ساحة الأرض إلى السماء، ولحظات الفناء إلى عالم الخلود، وظلت في مساراتها وقيمها الأساسية مرفوعة الرأس صوب المثل الأعلى، مع عدم التحول شئيا فشئيا صوب المثالية التي تنسى موقعها في الأرض، وترفض الاعتراف بشدها وثقلها ومطالبها، وتجنح وهي تطلب السماء، على الأخيلة والأوهام[٣].

---

[١] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٧٤

[٢] - البزار: أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت ٢٩٢ هـ)، مسند البزار (البحر الزخار)، ت: محفوظ الرحمن زين الله، وأخرون، ط: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، حديث رقم: ٧٤٠٨.

[٣] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٧٦.

ز- حضارة إنسانية عالمية

فالحضارة الإسلامية – امتدادا لكل ما سبق، حضارة ذات طابع إنساني-عالمي، فهي تتعامل مع الإنسان أيا كان موقعه، ولا تقتصر على الجماعة التي شكلتها فحسب. ومن أجل ذلك تجاوزت وكسرت كافة الحواجز العرقية، والإقليمية، والجغرافية، والطبقية، واللونية، والمذهبية، لكي تحقق انتشارها على مستوى العالم كله، كما أنها قبلت مشاركة كافة الفئات والجماعات المنضوية في نسيج المجتمعات الإسلامية، أيا كانت أديانها وعروقها وانتماءاتها.

لقد فتح المسلمون صدورهم وعقولهم لكل طالب علم، أيا كانت الجهة التي قدم منها، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم القديم ويلفها بالنور، ولقد وضعوا كشوفهم وخبراتهم أمام الجميع، ونادوا بأعلى صوت: أن من يريد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح، فلقد كان عطاؤهم – بحق – غير مجذوذ[١].

ح- حضارة التكامل

فهي الحضارة التي تجتمع فيها معان وأمور يكمل بعضها بعضا، ولا يُستغنى بأحدها عن الآخر، لكي يؤدي الإنسان رسالته كاملة في عمارة الأرض، وخلافة الله ﷻ، وعبادته، كما أمر الله ﷻ. كالتكامل بين العلم والإيمان، والحق والقوة، والعقيدة والعمل، والدين والدولة، والتربية والتشريع، ووازع الإيمان ووازع السلطة، والإبداع المادي والسمو الخلقي، والقوة العسكرية والروح المعنوية[٢].

* * * * *

(١) – مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٧٦،٧٧.
(٢) - الإسلام حضارة الغد، ص: ١٥١،١٥٢.

الفصل السادس – نمو الحضارة الإسلامية وتدهورها

أولا – نمو الحضارة الإسلامية

ما لبثت مرحلة النمو الحضاري أن بدأت الفعل بعد استكمال مقومات النشوء وجملة مطالبه، وراحت تنسج معطياتها في جل الحلقات الحضارية المادية والروحية، الفكرية والسلوكية، التنظيمية والمعرفية، مستعيرة العديد من المفردات والخبرات من هنا وهناك، من الحضارة: اليونانية، والفارسية، والبيزنطية، والهندية، والهلينية، ومن ثقافات محلية نبطية، وسريانية، وقبطية، وغيرها. ولكنها ما كانت تكتفي بالاستعارة، أو تقف عند حدود النقل الذي يكدس ولا يبني، وإنما بذلت جهدا كبيرا مبدعا لإعادة صياغة التراث المنقول بما ينسجم والثوابت والتصورات التي رسمها الدين الجديد، في دوائر، هي:

أ– **دائرة النشاط المعرفي والثقافي:** وهو الذي يتضمن الجانب العقيدي، فضلا عن الجوانب الفكرية، والروحية، والجمالية، للحضارة، ويلعب دوره الحاسم في منحها سماتها المتفردة وشخصيتها المستقلة.

ب– **دائرة النشاط الاقتصادي والتقني والعمراني:** وهو الذي يتضمن الجانب المادي للحضارة، ويُصطلح عليه أحيانا بمصطلح: (المدنية).

ج– **دائرة النشاط الإداري والتنظيمي:** وهو الذي يتضمن الجانب الفني، ويتحرك من خلال النظم والمؤسسات السياسية والإدارية، التي تقوم بمهمة الإشراف والتخطيط والتنسيق بين المعطيات كافة، وتحديد العلاقات بين العاملين ضمن حلقات الحضارة الواحدة.

ومنذ اللحظات الأولى، قدرت الحضارة الإسلامية الوليدة على أن تجابه التحديات المبكرة، وتستجيب لها، وتطويها عبر القنوات الثلاث، فتزداد بذلك غنى وأصالة واتساعا. وبمرور الوقت، شهدت المؤسسات الإسلامية التي غُرست بذورها الأولى في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ﷺ نموا متزايدا في المجالات كافة، وأخذت المعطيات الحضارية تتصاعد وفق معدلات إنجاز زمني سريع، لكي ما تلبث أن تبلغ منحنياتها المتقدمة بعد قرنين أو ثلاثة.

ولا يمكن أن نفصل بين هذه المعطيات، وبين قيم ومبادئ واهتمامات وتصورات الجماعات المسلمة (الأمة) التي صنعتها فكرا وعلما وفنا وأدبا واقتصادا وإدارة وعمرانا، كما أنه ليس بمقدورنا أن نعلق خصائص هذه الحضارة على موقف السلطة في التزامها أو عدمه لقيم الإسلام وأهدافه؛ لأن السلطة، وإن كانت تمارس دورها البارز في تكوين المنجزات الحضارية ومنحها بعض خصائصها ومكوناتها، إلا أن هذه المنجزات تبقي – في

الأعم الأغلب – أكبر من السلطة، ومن محاولاتها، ونظمها، وقدرتها على الضبط والتوجيه، وتتسع باستمرار لكي تكون في نهاية الأمر موازية لحجم الجماهير الأوسع والأقدر على مواصلة الإنجاز، والأكثر – في معظم الأحيان – إيمانا والتزما.

وقد انعكس الفكر والحياة والروح الإسلامية على كل أنشطة الحضارة الإسلامية، خاصة النشاط المعرفي والثقافي، ونجد أثر ذلك الانعكاس أيضا في العلوم بشتى حقولها، والتربية والتعليم، والعادات والتقاليد، وسائر مناحي العلوم والآداب والفنون والعمارة، وغير ذلك.

أما الانفصام النكد بين ثقافة المسلم وبين أصولها الدينية، فهو تقليد دخيل أُرغمت عليه أجيالنا الحديثة والمعاصرة إرغاما، وجرعته رعبا ورهبة. فمن خلال المدرسة، والجامعة، والمنهج، ومن خلال التربية والتوجيه الإعلامي والفكري، ومن خلال المسار الثقافي العام للقيادات السياسية الحديثة، تمكن الغرب من فرض رؤيته العلمانية، وأحيانا المادية، على مساحات واسعة من علومنا، وآدابنا، وفنوننا، وأنشطتنا التربوية، وتحقق له بعد جهل طويل لم يكلل بالنجاح التام لحسن الحظ، إحداث هذا الفصام المشؤوم بين العلم والدين، بين الثقافة بعامة وبين إطارها الإيماني، الذي تحركت من خلاله مواكب الآباء والأجداد عبر ثلاثة عشر قرنا أو يزيد، دونما أي إحساس بالثنائية أو الازدواج، بل على العكس، بقدر معجز من التوحد، وقدرة فذة على الإنجاز[1]. وما يكشفه لنا التاريخ والجغرافيا من مظاهر التقدم الحضاري الإسلامي في شتى بقاع الأرض الإسلامية – أو التي كانت إسلامية كالأندلس – ما يدل على ما نقول.

ثانيا – تدهور الحضارة الإسلامية

١- الأمة الإسلامية والشيخوخة الحضارية

تمر الأمم بدورات حضارية تاريخية تتراوح بين النهوض والسقوط، والأمة من الناحية التربوية قد تكون محتاجة إلى الهزيمة كحاجتها إلى النصر، لتجديد شبابها، وشحذ فاعليتها، والقضاء على الرخاوة والدعة. ومن هنا فإن الإدراك الكامل لأبعاد الهزيمة، وعدم السماح لكل الأصوات التي تفلسف الهزيمة وتجعلها نصرا، من الأمور المطلوبة، لأنها تحرمنا من الآثار الإيجابية التي تحققها الهزيمة في حياة الأمة.

وهذه الأمة لن تموت، ومن هنا فإن تسليط الأعداء عليها: تأديب، وإيقاظ، وليس للاستئصال، فيكون نعمة من الله ﷻ من بعض الوجوه، إن أحسسنا به، واكتشفنا مواطن القصور، وأصلحنا الأخطاء. فالله ﷻ يعاقب الأمة

---

[1] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٧٩:٨٥.

كل مرة، ويؤدبها بسبب جنوحها عن الاعتزاز بالإسلام، حتى تؤوب إليه، وتلتزم به، فتكون العزة. وهكذا يتولد الفرج من قلب الشداد، ويكون مع العسر يسر.

وإذا كان ابن خلدون من خلال دراسته للتاريخ يرى أن هناك سُنة هي سُنة الشيخوخة، تَدول الدول بمقتضاها، حيث تولد ضعيفة، ثم تقوى، ثم تهرم كما يهرم الفرد، ثم تموت. وهذا وإن كان يصدق في الأمم الجاهلية، فلا يصدق بالنسبة لأمة العقيدة، لأن العقيدة لها صفة الدوام. وتاريخ هذه الأمة وإن كان حتى الآن يسير ميلا إلى الهبوط إلا أنه خط متذبذب، يحمل صحوات كثيرة صاعدة، كتلك التي شهدتها الأمة أيام صلاح الدين، وقطز، وكحركة المد الضخمة التي قادها محمد الفاتح إلى داخل أوروبا.

كما إن هذه الأمة بعد أربعة عشر قرنا من الزمان لا تزال موجودة، رغم ما أصابها من عوامل المرض والانحلال والكوارث الداخلية والخارجية، وهي فترة لم تعشها أي أمة أخرى في التاريخ، بل إنها تشهد اليوم ما يشبه أن يكون مولدا جديدا تعاني مخاضه. وهذا دليل على عدم خضوعها لسنة الشيخوخة التي افترضها ابن خلدون.

فإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أن الإسلام بدأ ينتشر في بقاع من الأرض لم يكن قد دخلها من قبل، كاليابان، وكوريا، وفنلندا، ودخول أوربيين وأمريكيين في هذا الدين بالمئات والألوف، لم يعد هناك مجال على الإطلاق لتطبيق سنة الفناء بالشيخوخة – بفرض صحتها – على الأمة التي قامت على العقيدة لا على شعب بعينه من الشعوب[١].

٢- عوامل تدهور الحضارة الإسلامية

في البداية يجب التنبيه على عدة نقاط مهمة:

أ- إن الذي تعرض للتدهور هو الفعل الحضاري، وليس أصوله العقدية، فالحضارة الإسلامية تستمد مقوماتها من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وهما محفوظان بإذن من الله ﷻ : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾[٢].

ب- ظاهرة التدهور الحضاري تتشكل ببطء وعلى مكث، وتسهم في صنعها عوامل ومؤثرات شتى: عقدية، وسياسية، وإدارية، واقتصادية، واجتماعية، وجغرافية، وأخلاقية، ....إلخ. ومنحنى الإنجاز الحضاري، بمفهومه الشامل، يرتبط بهذه المسائل جميعا، وحيثما تراكمت وطغت السلبيات المتمخضة عن هذه المسلمات، كفت طاقة الإنسان والجماعة عن مواصلة صعود المنحنى، وآل الأمر إلى الهبوط والتدهور.

---

[١] - واقعنا المعاصر، ص: ١٠٦،١٠٧.

[٢] - سورة الحجر، الآية رقم: ٩

٣- الحضارات كافة، بما فيها الإسلامية، عرضة لتحديات التدهور والانهيار بمجرد غياب شروط الفعل الحضاري، أو فقدانها الحد الأدنى المطلوب[١].

ونسوق فيما يلي بعض أهم العوامل التي أدت إلى تدهور الحضارة الإسلامية، بدون الدخول في تفاصيلها تجاوزا لتضخم مادة الكتاب:

أولا – العوامل الداخلية

أ- انحسار الجهاد وتضاؤل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- غياب مفهوم التوحيد وتسلل الشرك والصنمية.

ج- الاستبداد السياسي.

ء- الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية.

هـ- طغيان القبلية والإقليمية على مفهوم الأمة.

و- الظلم الاجتماعي.

ز- الترف.

ح- التحلل الخلقي والسلوكي.

ط- الفساد الإداري.

ظ- انتشار الرؤية الإرجائية، التي ترى أن العمل ليس داخلا في الإيمان، والمؤمن يدخل الجنة حتى وإن لم يمارس عملا مما تقتضيه مطالب الدين، بل حتى لو اقترف المعاصي.

ع- غياب الاجتهاد، وسيادة التقليد والاتباع.

غ- انتشار الصوفية المنحرفة، والبدع، والخرافات.

ف- غياب العلم وانتشار الجهل، مما أدى إلى الانبهار بالحضارة الغربية الحديثة.

ق- تضاؤل القدرة على توظيف المكان والزمان.

ك- أخطاء القيادات الإسلامية المتأخرة.

ثانيا – العوامل الخارجية

أ- الحروب الصليبية المتلاحقة.

ب- الغزو المغولي.

ت- الغزو الاستعماري.

ث- الغزو الفكري.

ج- حملات التبشير النصرانية[٢].

---

[١] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ١٤٩:١٥٤.

[٢] – المصدر السابق، ص: ١٥٤:١٩٠.

الفصل السابع – واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها

أولا – واقع الحضارة الإسلامية

ليس بمقدور أحد أن ينكر كون الأمة الإسلامية في العصر الراهن تعاني من حالة انهيار حضاري يعبر عن نفسه بصيغ شتى، من التخلف العقدي، والذي نشأ عنه: التخلف العلمي، والحضاري، والاقتصادي، والحربي، والثقافي، ... إلخ. والملاحظ أنه بينما كان النقل الحضاري من الحضارات الأخرى – في النشأة الأولى – يحدث، كان المسلمون هم الأعلون، أما التعامل مع الحضارة الغربية الغالبة أخذ – منذ أخريات القرن الثامن عشر – صيغة الانبهار، الناتج من التخلف العقدي، والهزيمة الحضارية، الأمر الذي دفع الكثير من قيادات الأمة الإسلامية، ونخبها، وعلمائها، وأبنائها عموما، إلى الأخذ غير المتبصر عن هذه الحضارة، بلا بصيرة ولا تمييز بين النافع والضار، ولا ما بين ما يتفق مع الإسلام وما يتعارض معه.

ومكمن الخطورة هنا من اقتحام عقل الأمة، وعقيدتها، وثوابتها التصورية، وخصائصها الأساسية، بجملة من المفردات التي تلحق الدمار بمقومات الشخصية الإسلامية، وتقودها إلى الخروج من ساحة الاحتكاك الحضاري وقد فقدت ذاتها وأصبحت – في نهاية الأمر – تابعا يدور في فلك الآخر [١].

ولقد جاءت معطيات العقدين الأخيرين من القرن العشرين – وبخاصة بعد زوال الإتحاد السوفياتي، وغياب التعددية القطبية التي تحكم العالم، وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة السياسية والعسكرية والحضارية، فيما أطلق عليه (النظام العالمي الجديد)، وانكشاف المواجهة بين هذا النظام وعالم الإسلام، وظهور العديد من النظريات والآراء التي تمنح الخلفيات الفلسفية للوضع الجديد، وتعطيه مبررات التنامي والاستمرار، وبخاصة نظريات (نهاية التاريخ) و(صراع الحضارات)، وصولا إلى (العولمة) التي تجعل العالم كله قرية صغيرة، تتحكم فيها الزعامة الأمريكية، وبطانتها اليهودية، بمصائر الأمم والدول والشعوب. كل هذا يضع الأمة الإسلامية قبالة شبكة جديدة من التحديات التي تزيد في تضييق الخناق على بقايا وجودها الحضاري المنهار، وتهدد بإلغاء شخصيتها، وإلحاقها – في نهاية الأمر – بكيان الحضارة الغربية الغالبة[٢].

ولكي نتصور الأمر نشير في عجالة إلى بعض هذه النظريات:

أ– نظرية صراع الحضارات، قال بها صموئيل هنتنغتون، أستاذ العلوم السياسية، ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد. وملخصها أن الغرب، بعد سقوط الإتحاد السوفياتي، بحاجة ماسة إلى

[١] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ١٩١ ، واقعنا المعاصر ، المقدمة ص: ١٢، ص: ١٥٣،١٦١،١٦٨.
[٢] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ١٩٢.

عدو جديد، يوحد دوله وشعوبه، وأن الحرب لن تتوقف، حتى لو سكت السلاح وأبرمت المعاهدات، ذلك أن حربا حضارية قادمة ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكا، وبين طرف آخر قد يكون عالم الإسلام، أو الصين.

ب– تسعى نظرية نهاية التاريخ إلى إلغاء البعد التاريخي، ووضع الأمم والجماعات كافة، عراة، قبالة الصنمية الاقتصادية التي تنزع إلى تسوية الجميع إزاء مطالبها، لكنها من وراء هذا تزيد أغنياء العالم، وطواغيته غنى وجبروتا، وفقراء العالم ومستضعفيه فقرا واستعبادا. الأكثر من هذا إن هذه النظرية ستجعل كل المستضعفين في الأرض ينسلخون عن تاريخهم ويفقدون تميزهم، ويزدادون التصاقا بالقوى المتحكمة في آليات الاقتصاد العالمي.

وإن تجريد العالم من بطانته الروحية، والحكم بالإعدام على كل ما يربط الإنسان بالعقيدة والأرض والتاريخ، ومنح السلطة المطلقة للاقتصاد، سوف يميل بالميزان للمرة العشرين أو الخمسين في تاريخ الإنسان الذي سيكون الخاسر الوحيد، وسيزداد القوي قوة، والضعيف ضعفا، وستشهد البشرية حلقة محزنة أخرى من أشد الحلقات تعاسة وضلالا[١].

ج– أما بخصوص النظام العالمي الموحد أو الجديد، فدون الدخول إلى تفاصيله، فإنه عبر التاريخ كانت دائما هناك تشرذمات ثنائية متصارعة، وتفرد قوة غربية واحدة بالسلطان أمر يكاد يكون مستحيلا على الفترات الزمنية الطويلة نسبيا، وإن الثغرة التي قد ينفذ منها الإسلام المحاصر، ستتشكل، أو هي قد تشكلت فعلا بحكم قوانين الحركة التاريخية، وسننها التي طالما تحدث عنها كتاب الله ﷻ: ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾[٢]، ﴿ **وتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ** ﴾[٣].

كما لم يصل هذا النظام العالمي الجديد – بعد – إلى بر الأمان: فأوروبا الغربية ومعها بعض ما تفكك من جمهوريات الإتحاد السوفياتي السابق تتوحد – ربما – قبالة أمريكا، واليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية، والصين ودول العالم الثالث أيضا لها نصيب من التقدم الاقتصادي، ثم عالم الإسلام الذي طالما دفعته التحديات إلى استعادة حيويته وفاعليته[٤].

والعولمة هي الإفراز الطبيعي للتقدم التقني المدهش، وللنظام الجديد، وخلفياته التنظيرية، سواء في (صراع الحضارات) أو (نهاية التاريخ).

---

(١) - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ١٩٣:١٩٨.
(٢) - سورة هود، الآية رقم: ١١٨
(٣) - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٤٠
(٤) - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ١٦٩.

ومصطلح العولمة، وإن كان في ظاهره يعني ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم في السلع والخدمات أو رؤوس الأموال، أو المعلومات والأفكار، إلا أنه في حقيقة الأمر معناه تفكيك الأمم والدول والجيوش والمجتمع والأسرة، وتجريد الفرد من القيم والأخلاق، والمبادئ الدينية المقدسة، ورفع الحواجز والحدود أمام المؤسسات والشركات متعددة الجنسية.

وعلى المستوى الثقافي تسعى العولمة التي تقودها أمريكا، إلى صبغ العالم كله، خاصة الدول والأمم التي تمتلك مقومات قادرة على التأثير والمنافسة والانتشار الفاعل في حياة البشر، بصبغتها الثقافية القائمة على إعلاء القيم المادية والمتمحورة حول الفرد والمصالح الخاصة، والتحرر من كل المبادئ والقيم السماوية، مستخدمة في ذلك وسائل الإعلام الأمريكية، وتقنياته المتطورة، من شركات إعلام، وأفلام وموسيقى، وتسويق واسع للمنتجات الثقافية الأمريكية الهابطة. مع استهداف شريحة الشباب داخل وخارج أمريكا، مع فتح المعاهد والجامعات الأمريكية حول العالم للجميع، لإن هؤلاء الطلاب سيشكلون النخب في بلدانهم، بعد عودتهم إليها، بما يحملون من الأنماط الثقافية وطرق التفكير المقتبسة من أمريكا.

أما على المستوى الاقتصادي، فإن العولمة تهدف في الظاهر إلى حرية السوق وتدفق السلع والخصخصة، إلا إنها في جوهرها تقود إلى هيمنة الشركات العملاقة بإمكاناتها ونفوذها ورؤوس أموالها، وتمكينها من إزالة سائر المعوقات المادية والمعنوية من طريقها، من أجل أن تحكم سيطرتها على العالم كله في ميادين الاستيراد التصدير والإنتاج، وفي مجالات الصناعة والزراعة والطاقة، وتوفير الحماية الأمنية لها في كل مكان تمارس فيه أنشطتها الاستثمارية.

وفي الجانب الاجتماعي تسعى العولمة إلى تعميم السياسات المتعلقة بالطفل، والمرأة، والأسرة، وكفالة حقوقهم في الظاهر، إلا أن الواقع هو إفساد وتفكيك الأفراد واختراق وعيهم، وإفساد المرأة والمتاجرة بها، واستغلالها في الإثارة والإشباع الجنسي، وبالتالي إشاعة الفاحشة في المجتمع، وبالمقابل تعميم فكرة تحديد النسل، وتعقيم النساء. وقد استخدموا في ذلك المؤتمرات ذات العلاقة: (مؤتمر حقوق الطفل) و(مؤتمر المرأة في بكين) و(مؤتمر السكان في القاهرة)، وما أخرجت من مقررات وتوصيات واتفاقيات تأخذ صفة (الدولية) ومن ثم الإلزامية في التنفيذ والتطبيق. ثم ما تلبث آثارها تظهر للعيان في الواقع الاجتماعي: استسلاما وسلبية فردية، وتفككا أسريا واجتماعيا، وإحباطات عامة، وشلل تام لدور المجتمع الذي تحول إلى قطيع مسير، ومنقاد لشهواته وغرائزه، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، متحللا من أي التزامات أسرية واجتماعية إلا في إطار ما يلبي رغباته وشهواته وغرائزه.

وعلى المستوى السياسي يتضح أكثر فأكثر كيف أن أمريكا راعية النظام العالمي الجديد، تسعى إلى التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى، وتفرض عليها سياسات عديدة تمس سيادة واستقلال تلك الدول، مثل

تخفيض الجيوش وتسريحها، وعدم صناعة الأسلحة خاصة المتطورة، وإثارة قضايا حقوق الإنسان، وفرض العقوبات والمقاطعة والحصار على الدول المناوئة لسياستها[١].

مهما يكن من أمر، فإن الوضع الذي بلغته الأمة الإسلامية في العصر الراهن لا تحسد عليه أمة أخرى في العالم، وإلى جانب الهوة السحيقة في التقدم المدني بين الأمة الإسلامية وغيرها، فإن محاولات الإصلاح والحركات الجهادية التي قاومت قد صفيت الواحدة تلو الأخرى، وإن لم يكن يعوزها الفكر والإيمان ولا الفدائية، ولكن وببساطة تامة كان يعوزها السلاح، ثم أن أية حركة في التاريخ لا تتشكل – ابتداء – وفق (شروط موضوعية) وإنما تجيء كرد فعل على حالة تاريخية، ستعاني من كثير من عناصر الخلل ونقاط الضعف، التي ستكون بمثابة المقتل الذي تغوص فيه سكين الغالب.

أما الدعوات الإصلاحية غير المسلحة فقد كانت مشكلتها أنها – في معظم الأحيان – لم تنتشر بين الجماهير، وظلت (منعزلة) عن الأمة الإسلامية ومطالبها الملحة في التحقق بالمقاومة والتحرر، وإعادة بناء الذات قبالة التفوق والاستعمار الغربي. ولقد ظلت هذه الدعوات في معظم نسيجها أنشطة شبه أكاديمية، أو مشاريع فكرية مطروحة على الساحة قبالة تحديات التمزيق الغربي. هذا إلى ما اتسمت به معظم تلك الدعوات من رؤية تجزيئية وغياب أو عدم وضوح في المنظور الحضاري الذي أولته الأجيال التالية من الحركات والدعوات الإسلامية اهتماما ملحوظا.

إن ظاهرة الانهيار الحضاري، وفشل معظم محاولات التغيير والإصلاح منذ منتصف القرن التاسع عشر، وطيلة العقود الأولى من القرن العشرين، على مستوى الفكر، والتنظيم، والجهاد، وتزايد ضغوط وتحديات الحضارة الغربية المتفوقة وقيادتها السياسية والمذهبية ، دفعت المعنيين بواقع الأمة الإسلامية ومصيرها إلى إعادة النظر في كل ما سبق من معطيات، والبحث عن بدائل أكثر قدرة على الفعل، والخروج بالأمة من حالة الانكسار والتوحد، من أجل استعادة الدور الحضاري الضائع[٢]، (سنجيب على الأسئلة المتعلقة بهذا الموضوع في الجزء التالي من هذا البحث، والمخصص لمناقشة موضوع فقه التمكين).

باختصار شديد إننا محملون بوقر التاريخ، وتراكم أخطاء الآباء والأجداد، وتغييب الدين في معظم مساحات حياتنا، وضياع البؤرة التي تستقطب الأفعال ففقدت قدرتها على التأثير، وأفلتت من أيدينا فرصة الحضور المؤكد في قلب العالم والمشاركة في صياغة خرائطه.

---

[١] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ١٩٨:٢٠١.

[٢] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٢٠١:٢٠٤.

ثانيا – مستقبل الحضارة الإسلامية

البشرية اليوم في حاجة إلى حضارة جديدة، لها فلسفة ورسالة غير فلسفة الحضارة الغربية ورسالتها بشقيها الرأسمالي والشيوعي. والبشرية في حاجة إلى حضارة تعيد إليها إيمانها بالله ﷻ وبرسالاته، وبلقائه وبحسابه وعدالة جزائه، وبالقيم العليا التي لا يكون الإنسان إنسانا بغيرها، ولا يكون للحياة مذاق بسواها.

والبشرية في حاجة ماسة إلى حضارة جديدة تعطيها الدين ولا تفقدها العلم، تعطيها الإيمان ولا تسلبها العقل، تعطيها الروح ولا تحرمها المادة، تعطيها الآخرة ولا تحرم عليها الدنيا، تعطيها الحق ولا تمنعها القوة، تعطيها الأخلاق ولا تسلبها الحرية.

إن البشرية اليوم في حاجة إلى حضارة تتصل بها الأرض بالسماء، وتتعانق فيها المعاني الربانية والمصالح الإنسانية، ويتآخى فيها العقل المفكر والقلب المؤمن، ويمضي فيها الإنسان إلى الأمام مستضيئا بنور الوحي الإلهي، ونور الفكر البشري، فكلاهما من فضل الله ﷻ ورحمته بالإنسان.

وليست هذه الحضارة إلا حضارة الإسلام، التي يتجلى فيها التوازن والتكامل بصورة لا يقدر عليها إلا العليم الحكيم ﷻ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض أو السماوات[1].

فالحضارة الإسلامية تتمتع بخاصّية ميزتها عن جميع ما سبقها من حضارات، وهي خاصية الارتباط بالوحي، والتأسيس والتجدد على هدى دستور ومنهج شامل، ضمه كتاب غير قابل للتحريف والتبدل، مُنذ نزل على صدر النبي محمد ﷺ وحتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، وهي خاصية كفلت لها ابتداءً أنها في مأمن من الموت الذي حلّ بجميع الحضارات التي عاصرتها أو التي سبقتها قروناً طويلة من الزمن، التي فقدت أسباب التجدد والاستمرار فماتت وانتهى أمرها، كما حصل للحضارات البابلية والسومرية والآشورية والفرعونية وغيرها، أما المرض العارض فهو يعني أنها تتراجع حيناً من الزمن– كما هو حاصل الآن– ثم ما تلبث أن تنهض بعد أن يصل أغلب أبنائها إلى حقيقة حتمية العودة إلى المصادر والعوامل والمناهج التي أسهمت في نشوء وقيام هذه الحضارة، ومنها وحدة الكلمة، ووحدة الصف، بعد تحقق مستوى من الإيمان بوحدة الهدف والمصير، يتناسب وحجم عملية بناء الحضارات أو إعادة بعثها من جديد.

ولقد بدأت الأمة تعود أفرادً وجماعات مُنذ بضعة عقود إلى هذا الفهم، ويتحقق فيها هذا المستوى من الوعي بوسائل الخلاص من الأوضاع المأساوية السائدة، وتتضح عندها معالم رؤية حقيقة وحدة مصيرها وهدفها، لأنها لم ولن تحقق تماماً المفهوم الشرعي للأمة، إلا عندما تعود كما أرادها الله ﷻ أمة واحدة.[2]

---

[1]- الإسلام حضارة الغد، ص: ١٤٩.

[2] ـ الملاحمي: أشرف، وحدة الأمة وأثرها في مكانتها الحضارية، مقال منشور على موقع مركز الأمة للدراسات والتطوير، ٢١ أغسطس ٢٠٢١. https://alummacenter.com/?p=٣٠٠٨

والأمل كبير في الصحوة الإسلامية المعاصرة: أن تعمل بجد وعزم لتنقل أمة الإسلام من ضعف إلى قوة، ومن فقر إلى رخاء، ومن فوضى إلى نظام، ومن استبداد إلى شورى، ومن تفرق إلى اجتماع، ومن هزل إلى جد، ومن هدم إلى بناء، ومن تفكك وتخاذل إلى تناصر وتعاون على البر والتقوى، ومن تخلف مادي إلى تقدم متكامل في الماديات والمعنويات.

وهذه الصحوة قادرة على أن تفعل الكثير إذا هي جندت طاقاتها للعمل لا للجدل، وللعطاء لا للمراء، وللتشييد لا للتقويض، وللتجميع لا للتفريق وشغلت أبناءها بالأصول والكليات عن الفروع والجزئيات، وبالقضايا المصيرية عن المعارك الجانبية، ونقلتهم من المختلف فيه إلى المتفق عليه، ومن الأحلام المتخيلة إلى الواقع الممكن، ومن التعالي على المجتمع إلى التغلغل فيه، وجعلت أكبر شغلها التوعية والتربية، وتغيير المجتمع من داخله، أي تغيير ما بنفسه، حتى يغير الله ﷻ أوضاعه[1].

ثالثا – معوقات النهضة الإسلامية الحديثة

اليوم يدور الزمان دورته، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة في حياة المسلمين ينحسر، ويبزغ فجر جديد، يسعى فيه المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض، في صورتهم الإسلامية الحقيقية المتميزة، تحقيقا لوعد الله ﷻ بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين، والأمن من بعد الخوف. لكن في الطريق عقبات وعجز، عقبات كثيرة تعوق المسيرة، لكنها لا تمنع المسير، وعجز يتمثل في القصور عن تبليغ الخطاب الإسلامي، بأبعاده العلمية، والتقدم للمساهمة في حل مشكلات الأمة، والعالم:

١– جهل المسلمين بحقيقة الإسلام، وبعدهم عن هذه الحقيقة، سواء من ناحية التصور أو السلوك.

٢– الغزو الفكري الذي يزين للمسلمين الانسلاخ من الإسلام، واتباع الغرب، والانفلات من كل القيود.

٣– العداوة المرصودة للإسلام، والتي تبطش بالدعاة في كل الأرض، وتضع في سبيل دعوة الله ﷻ ما وسعها من عراقيل.

٤– ضعف العلماء .

٥– العدول في التعامل عن السنن الإلهية، وقوانين التسخير.

٦– تعطيل قانون السببية، أو فقدان التوازن بين تأليه الأسباب وتعطيلها.

٧– عدم الاقتناع بجدوى النقد والمراجعة والتصويب، والاعتبار بالتجارب السابقة، واكتشاف الإخفاقات ودراسة أسبابها.

---

[1] ـ الإسلام حضارة الغد، ص: ٢٠٤،٢٠٥.

٨- تعطيل الحوار الذي يفتح الآفاق، ويساهم برعاية القابليات، ويشحذ الفاعلية ويحقق الإبداع.

٩- عدم القدرة على التمييز بين الغزو الثقافي، والتبادل المعرفي.

١٠- العجز عن النظرة الكلية للأمور، وادراك المقاصد العامة للشريعة[١].

*****

---

[١] - حسنة: عمر عبيد، حتى يتحقق الشهود الحضاري، ط: المكتب الإسلامي ١٩٩١م، ص: ١١ ،. وقعنا المعاصر، من مقدمة الطبعة الأولى، ص: ١٣.

المقدمة الثالثة

الأمة الإسلامية

تمهيد

يعيش العالم اليوم عصر العولمة، ذلك العصر الذي يفرض مراجعات فكرية أكاديمية كثيرة في شتى المجالات حتى تتناسب الأفكار في المجتمعات مع مفاهيم هذا العصر، ولأن هذه المراجعات عادة ما تكون في إطار المنظور الغربي التغريبي، والذي ليس له علاقة بالعلوم الإسلامية والشرعية، فغالبا ما تكون هذه المراجعات ذات أثر سلبي على كثير من المفاهيم الإسلامية والشرعية، والتي يمثل مفهوم الأمة من وجهة النظر الإسلامية. وهذا ما يدعونا إلى فتح ملف الأمة، والغوص في أغواره.

فالأمة هي الروح التي تحرك الحياة العامة، وتفرض نفسها على الواقع، والتي أضحت الحاضر الغائب، الذي لا تجد له نظيرا في المؤسسات أو في الدولة، ولكن نستشعره حولنا استشعارا، بل نشهده شهودا من خلال الصحوة الإسلامية العالمية، وفيما أحدثته من صدى على امتداد دوائر وفصائل الشعوب، فيما بدأ وكأنه وطن واحد لا تفصله الحدود السياسية والجغرافية أو النظم والمذاهب واللغات والأعراق، وكأن الدولة القومية في المنطقة – بما تحمله من وعي مغاير للمعاني الإسلامية– قد عجزت عن تحجيم استجابة القواعد الجماهيرية التلقائية لتلك الصحوة، تلك الاستجابة التي نشأت في رحاب الجامعة الشعبية الأولى، جامعة مسجد الحي والمُصلى، حيث الصلاة وتلاوة الذكر الحكيم، فتتحقق وحدة بين أجواء بيئة اجتماعية حضارية واحدة. ومع توالى أحداث الصحوة الإسلامية، في أصقاع العالم الإسلامي شرقا وغربا، بدت الأمة في واقعها وتجلياتها باعتبارها ظاهرة مؤثرة ومفهوما معقولا استطاع أن يتحدى نموذج العلمنة والخطاب السياسي القومي السائد[1].

---

[1] ـ أبو الفضل: منى، الأمة القطب، نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام، ط: مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص: ١:٢٠.

الفصل الأول – مفهوم الأمة الإسلامية

أولا – تعريف الأمة في اللغة والقرآن والاصطلاح

أ- الأمة لغة

الأُمَّةُ: القَرْن مِنَ النَّاسِ؛ يُقَالُ: قَدْ مَضَتْ أُمَمٌ أَي قُرُونٌ. وأُمَّةُ كُلِّ نَبِيٍّ: مَن أُرسِل إِليهم مِنْ كَافِرٍ ومؤمنٍ. وَكُلُّ جِيلٍ مِنَ النَّاسِ هُمْ أُمَّةٌ عَلَى حِدَة. والأُمَّةُ: الجِيلُ والجِنْسُ مِنْ كُلِّ حَيّ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿ **وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ** ﴾[1]؛ وَكُلُّ مَن كَانَ عَلَى دينِ الحَقّ مُخالفاً لِسَائِرِ الأَدْيان، فَهُوَ أُمَّةٌ وَحْدَهُ. وَكَانَ إبراهيمُ خليلُ الرَّحْمَنِ، عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، أُمَّةً؛ والأُمَّةُ: الرَّجُلُ الَّذِي لَا نظِير لَهُ؛ والأمة: الإِمَامَ. والْعَرَبَ تَقُولُ لِلشَّيْخِ إِذَا كَانَ باقِيَ الْقُوَّةِ: فُلَانٌ بإِمَّةٍ، مَعْنَاهُ رَاجِعٌ إِلَى الْخَيْرِ والنِّعْمة لأَن بَقاء قُوّتِه مَنْ أَعظم النِّعْمة.

وَأَصْلُ هَذَا الْبَابِ كُلِّهِ مِنَ القَصْد. يُقَالُ: أَمَمْتُ إِلَيْهِ إِذَا قَصَدْته، فَمَعْنَى الأُمَّة فِي الدِّينِ أَنَّ مَقْصِدَهم مقْصِد وَاحِدٌ، وَمَعْنَى الإِمَّة فِي النِّعْمة إِنَّمَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَقْصِده الخلْق ويَطْلُبونه، وَمَعْنَى الأُمَّة فِي الرجُل المُنْفَرد الَّذِي لَا نَظِير لَهُ أَنَّ قَصْده مُنْفَرِدٌ مِنْ قَصْد سَائِرِ النَّاسِ؛ وذو أُمَّةٍ معناه ذُو دينٍ. ، والأُمَّةُ المُعَلِّم. والأُمَّةُ الرَّجُلُ المُتَفَرِّد بدينٍ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ **إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ** ﴾[2]، وَقِيلَ: الأُمَّةُ الرجلُ الْجَامِعُ لِلْخَيْرِ. والأُمَّةُ: الحِينُ. قال ﷻ: ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾[3]، أي بَعْدَ حينٍ مِنَ الدَّهْرِ. والأُمَّةُ المُلْك، والأُمة: أَتْباعُ الأَنبياء، والأُمّةُ: الرَّجُلُ الجامعُ لِلْخَيْرِ، وجمع الأُمَّةُ: الأُمَمُ، والأُمَّةُ: الرَّجُلُ المُنْفَرد بِدِينِهِ لَا يَشْرَكُه فِيهِ أَحدٌ، والأُمَّةُ: القامةُ والوجهُ. والأُمَّة: الطَّاعَةُ. والأُمَّة: العالِم. وأُمَّةُ الرَّجُلِ: قومُه. والأُمَّةُ: الْجَمَاعَةُ؛ وأُمَّةُ اللَّهِ ﷻ : خلْقه. وأُمَّةُ الطَّرِيقِ، وأُمُّه: مُعْظَمُه.[4]

وقال الراغب الأصفهاني: "الأمّة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا"[5].

ومثال الأمة تسخيرا: أمة البشر، والكائنات التي ليست من جنس البشر، قال ﷻ: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّة فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِر يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾[6]. والأمة الاختيارية: كل مجتمعين على دين أو مذهب

[1] - سورة الأنعام، الآية رقم: ٣٨

[2] - سورة النحل، الآية رقم: ١٢٠

[3] - سورة يوسف، الآية رقم: ٤٥

[4] - لسان العرب، ٢٦/١٢:٢٨.

[5] - المفردات في غريب القرآن، ص: ٨٦. (ش)

[6] - سورة الأنعام، الآية رقم: ٣٨

باختيارهم، كأمة اليهود، وأمة النصارى، وأمة الإسلام، قال ﷻ: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيد وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدا**﴾[1]-[2].

ب- الأمة في القرآن الكريم

ورد لفظ (أمة) في القرآن الكريم، بمعان متعددة، (٤٩) مرة، منه (٤٣) آية مكية، وبقيتها آيات مدنية. كما وردت كلمة "**أمم**" (١١) مرة، منها (١٠) مرات آيات مكية، وواحدة فقط مدنية، مع ملاحظة أن لفظ (الأمة) في الآيات المكية إنما يعود إلى الأمم الكافرة التي كذبت أنبياء الله ﷺ ورسله قبل الإسلام، وقد ورد ذكرها من باب العظة والاعتبار لمشركي قريش[3]، كما في قوله ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّة رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾[4]، كما ورد لفظ (أمة) بمعانٍ أخرى متعددة، منها: أنها جماعة من البشر مجتمعة على دين حق، أو اعتقاد باطل، كقوله ﷻ: ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّة وَٰحِدَة** ﴾[5]، وقوله ﷻ: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّة رَّسُول** ﴾[6]، وهو نفس المعنى الأصلي في اللغة العربية.

والفرق بين المفهوم اللغوي والمفهوم القرآني يظهر في جعل لهذه المفردة صبغة ربانية في القرآن الكريم، تعبر عن مراد الله ﷻ منها، فهو قائلها ومُنشئها، وكلماته فيها من البصائر ما لا يحصى، وقد ثبت بالاستقراء استعمال لفظ (الأمة) بهذه الدلالة في معهود العرب في الخطاب بصور كبيرة[7]. وهناك معان أخرى لا تدخل في مجال بحثنا، ويُرجع إليها في كتب التفسير. وقد أشار القرآن الكريم إلى أمة الإسلام التي خصها بالتكليف، في أكثر من موضع، كقوله ﷻ : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّة وَسَطا** ﴾[8]، وقوله ﷻ: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾[9].

---

[1] - سورة النساء، الآية رقم: ٤١.
[2] - ادراعو: عبد الغني، وحدة الأمة الإسلامية – الأسباب والآثار والمعوقات كما بينها القرآن الكريم، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن الكريم وعلومه، قسم القرآن الكريم وعلومه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، ص: ١٢.
[3] - الجمل: أحمد محمد عبد العظيم، الأمن من منظور مقاصد الشريعة، ط: دار السلام – للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص: ٢٠:٢٢.
[4] - سورة النحل، الآية رقم: ٣٦
[5] - سورة البقرة، الآية رقم: ٢١٣
[6] - سورة يونس، الآية رقم: ٤٧
[7] - البدري: توفيق، مفهوم الأمة وأوصافها في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة- سابقا)، الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السن الرابعة والعشرون، العدد ٩٤، خريف ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، ص: ٨٧،٨٨.
[8] - سورة البقرة، الآية رقم: ١٤٣
[9] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠

ج- الأمة الإسلامية اصطلاحا

الإمة الإسلامية، تعني جماعة المسلمين، المؤمنين بالله ﷻ ربا واحدا لا شريك له، وبمحمد ﷺ رسولا ونبيا لا نبي بعده، وبالإسلام دينا جامعا لا دين حقا سواه. فالأمة مراد بها عموم المسلمين وكافتهم، وهي المخاطبة بقوله ﷻ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ** ﴾[١]، وبقوله ﷻ: ﴿ **كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ** ﴾[٢]. وضمن هذه الأمة وداخل جسدها تتشكل كيانات وهيئات، قائدة حاكمة، أو مهيمنة متحكمة، كالرؤساء والوزراء، والولاة والقضاة، وقادة الجند، والجند أنفسهم (الجيوش)، والشرطة، وغيرها من الفئات والهيئات، التي منها تتكون الدولة، وعليها تنهض وتقوم، وبها تستقر وتدوم[٣].

ثانيا - القرآن الكريم دستور الأمة وروحها وحارسها

أ- القرآن الكريم دستور الأمة

منهج القيام بالخلافة في الأرض له دستور، هذا الدستور هو القرآن الكريم، وقد جاء ذكره في أوائل سورة البقرة لبيان أنه هو الصراط المستقيم - الذي سأله الحامدون في سورة الفاتحة – ثم انتقل الحديث إلى موقف من قاموا بحقه، ومن علموا الحق وتركوه، ثم من عرفوا الحق ظاهرا وتركوه باطنا[٤].

فالقرآن الكريم دستور الإسلام، والسنة هي القانون الموضح للدستور (باعتبار ما عليه الناس اليوم)، بلا أي تشبيه، وإنما من باب التقريب. فالقرآن الكريم هو الأصل، والسنة المطهرة هي المبينة والمفصلة للقرآن الكريم [٥].

وفي هذا الدستور حدد الله ﷻ علاقة العبد مع ربه، وعلاقة الفرد مع نفسه، وعلاقة الفرد مع الآخرين من أبناء جنسه، ونظم شؤون حياته كلها، قال ﷻ: ﴿ **وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ** ﴾[٦]، وهذا الدستور منزه عن الانحياز إلى فئة أو جماعة، أو شخص كبير أو صغير، أو حاكم أو محكوم، أو غني أو فقير، كغيره من الدساتير والتشريعات الأرضية[٧].

---

[١] - سورة البقرة، الآية رقم: ١٤٣

[٢] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠

[٣] - الريسوني: أحمد، الأمة هي الأصل، مقاربة تأصيلية لقضايا الديمقراطية، حرية التعبير، الفن، ط: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٢م، ص: ٩.

[٤] - مسلم: مصطفى – مشرفا على نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط: كلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م، ٥٢/١.

[٥] - الألباني: محمد ناصر، فتوى: القرآن دستور الإسلام، والسنة هي القانون الموضح للدستور (هذا باعتبار ما عليه الناس اليوم) https://al-fatawa.com/fatwa/٢٨٦٥٣/القران-دستور-الاسلام-والسنة-هي-القانون-الموضح-للدستور-هذا-باعتبار-ما-عليه-الناس-اليوم-الالباني

[٦] - سورة النحل، الآية رقم: ٨٩

[٧] - النعسان: أحمد شريف، ما هو دستورنا، خطبة منشورة على موقع الخطباء، يوم ١١ أكتوبر ٢٠٢٢. https://khutabaa.com/ar/article/ما-هو-دستورنا؟

ب- القرآن الكريم روح الأمة

الروح سر من الأسرار الإلهية، حين تُنفخ في ابن آدم يصير خلقا آخر، وحين تفارق جسمه يصير جثة هامدة، لا يفيد ولا يغني شيئا، ولا يسمع ولا ينطق، ولا ينفع ولا يضر، فالسر في وجودنا وفي عطائنا، وفي كل ما نأتي وما نذر، إنما مرده أساسا إلى هذا العنصر: عنصر الروح، إذا حلت وجدت الحياة، وإذا غاب غابت الحياة، بكل خصائصها ومظاهرها.

والقرآن الكريم، روح كلتك الروح، قال ﷻ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ** ﴾[1]، والروح هاهنا هو كتاب الله ﷻ (تلاوة، وفهما، وعملا، وتبليغا) هو التعبير عن سر الوحي المشعر بأنه يحدث في الإنسان من الخصائص ما يحدث الروح حين يُنفخ في الإنسان. فالإنسان (الفرد والمجتمع) يصير بالقرآن الكريم خلقا آخر، لكون هذا القرآن الكريم ذا طبيعة تشبه طبيعة الروح تماما.

وهذه الأمة لها جسد وروح. فالجسد هو هذا الذي نراه منتشرا في وسط الكرة الأرضية. لكن روحه ليست حالة فيه الآن، هي منفصله عنه، ولذلك لا توجد فيه الآن خصائص الحياة، التي توجد في الجسم الحي الذي له الروح وبه الروح[2].

والنموذج الفردي الأكمل لهذا المعنى، هو رسول الله ﷺ ماذا كان بغير القرآن؟ وماذا صار بالقرآن؟ حيث كان (بشرا)، ثم صار (يُوحى إليه)، فصار هو نفسه نورا مبينا، قال ﷻ: ﴿ **قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُور** ﴾[3]. وكذلك إذا نظرنا إلى النماذج الأولى كيف صارت بهذا الروح مولودا جديدا، فأحدث ما أحدث في التاريخ على قيام الساعة: عجن القرآن الكريم الجزيرة عجنا آخر، وجمع إنسانها المفرق المشتت جمعا، صاغه صياغة جديدة، في صورة تجمع بشري عالي المستوى، عالي الكيف، به أنجز العرب المسلمون، ما أنجزوا عبر التاريخ، من تلك الفتوحات التي سرت في الكرة الأرضية مسرى النور، ضاربة في أقاصي الغرب، وأقاصي الشرق. ومثل ما حدث في الفرد يحدث في الجماعة والجماعات؛ فالقرآن الكريم يُحدث في الكيان الجماعي العام تأثيرا كتأثير الروح أيضا: يوحد جزئياته ويضمها ضما.

ونفس الأمر يقال بالنسبة إلى الجماعة المؤمنة أو الأمة الإسلامية، فعندما تحل فيها الروح، أي في مكوناتها من أفراد، وأسر، وجماعات، تتحول من حيث الطاقة، ومن حيث الفعالية، ومن حيث التأثير، إلى خلق آخر. وإن رسول الله ﷺ ما استطاع أن يفعل ما فعل في الجزيرة العربية إلا بهؤلاء الذين حل فيهم روح القرآن الكريم فتجمعوا في صورة كيان موحد عبر عنه رسول الله ﷺ إشارة إلى هذا المعنى – بالجسد[4]: (**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي**

---

[1] - سورة الشورى، الآية رقم: ٥٢

[2] - البوشيخي: الشاهد، القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، ط: أنفو – برانت، فاس – المغرب، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠١م، ص: ١٨،١٧.

[3] - سورة المائدة، الآية رقم: ١٥

[4] - القرآن الكريم روح الأمة، ص: ٢٦:١٧.

تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمّى.)
متفق عليه.

ج- القرآن الكريم حارس الأمة

القرآن الكريم، كتاب إلهي، معجز، مبين ميسر، محفوظ. وهو كتاب الدين كله، وكتاب الزمن كله، وكتاب الإنسانية كلها. ولهذا القرآن الكريم مقاصد وأهدافا يسعى إليها، ويحرص عليها، من: تصحيح العقائد والتصورات، عن الألوهية والنبوة والجزاء، وتصحيح التصور عن الإنسان وكرامته ورعاية حقوقه. ويحرص على وصل الإنسان بربه، ليعبده وحده، ويتقيه في كل أموره.
والقرآن الكريم يحرص على تزكية نفس الإنسان التي إذا صلحت صلح المجتمع كله، وإذا فسدت فسد المجتمع كله. ويعمل على تكوين الأسرة التي هي نواة المجتمع، وإنصاف المرأة التي هي عمود الأسرة. كما يعمل على إنشاء الأمة الصالحة التي حمَّلها الله ﷻ أمانة الشهادة على البشرية، والتي أخرجها لنفع الناس، وهداية الناس. والقرآن الكريم يدعو إلى عالم إنساني يتعارف ولا يتناكر، ويتسامح ولا يتعصب، ويتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان[1].
فهذا القرآن بحق، هو حارس الأقوى الذي لا يدانيه شيء، لعقيدة الأمة، وأخلاقها، وقيمها، وأحكام دينها، وسنة رسولها ﷺ.

ثالثا – الأمة وتمثيل رسالة الإسلام

رسالة الإسلام في حاجة إلى أمة تمثلها وتتمثلها، وتعطي للبشرية الأسوة والنموذج الحي، الذي طال انتظار ميلاده، كما أعطت أمة الإسلام في القرون الأولى، فدخلت الأمم في دين الله ﷻ أفواجا. أمة يتجسد فيها الإسلام، توحيدا خالصا، وإيمانا صادقا، وعلما نافعا، وعملا صالحا، وخلقا فاضلا، ودعوة إلى الخير، وتواصيا بالحق والصبر، وتعاونا على البر والتقوى، وجهادا في سبيل ذلك كله، حتى تكون بحق خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ﷻ. أمة لا تعيش لنفسها، ولا لهم يومها، ولا لملء بطنها، بل تعيش لغيرها، وتحمل على كاهلها هم البشرية المعذبة، والإنسانية الحائرة. أمة تستطيع أن تقدم البديل للبشرية، بأن تأخذ من الحضارة الغربية الجوانب الإيجابية التي لابد لها من الاستفادة منها، كالتطبيقات

---
[1]- القرضاوي: يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط: دار الشروق، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، المقدمة، ص: ١٢.

التكنولوجية للعلوم، وحسن الإدارة والتنظيم، والعناية بحرية الإنسان وحقوقه، مع تمسكها بمشروعها الحضاري المتوازن، والمحافظة على هويتها ورسالتها[1].

*****

[1] ـ الإسلام حضارة الغد، ص: ١٨٩:١٩١.

الفصل الثاني – بناء الأمة مقدم على قيام الدولة

الفصل الثاني – بناء الأمة مقدم على قيام الدولة

تجدر الإشارة هنا إلى أن الكتابات في السياسة الشرعية قديما وحديثا، والدراسات السياسية الدستورية اليوم قد ركزت على الدولة ومؤسساتها، ووظائفها وصلاحياتها، وأبرزت – بما فيه الكفاية وأكثر – مدى أهمية الدولة وضرورتها، لكنها بحكم كونها في الغالب تعكس الواقع المعيش – أهملت دور الأمة وموقعها ومكانتها، وصلاحياتها ووظائفها، مما عزز الواقع المعيش أكثر فأكثر[1]. لكن بناء الأمة مقدم على قيام الدولة، ومما يدل على ذلك:

أولا – الخطاب الشرعي موجه إلى الأمة

الخطاب الشرعي موجه إلى الأمة ابتداءً، أو من حيث العموم، أو من حيث الصلاحيات والمسؤوليات، أو من حيث الأولوية والتقديم، وفي هذا كله تأتي الدولة والحكام والفئات الخاصة، والأفراد، يأتون تبعا وضِمنا[2]. فمكانة الأمة في التصور الإسلامي مقدمة على مكانة الدولة، فالأمة لها الأولوية على الدولة التي تعتبر تابعة للأمة. وكذلك فالخطاب الفردي تابع للخطاب الجماعي، والانقلاب والانعكاس في هذه المفاهيم هو ما أفقد الأمة مكانتها وقدرتها على الريادة والعطاء والإبداع، وحولها إلى مجرد ركام ضخم من الأفراد المتفرجين، بينما تضخمت الدولة حتى صارت هي الأصل. وفي ظل هذا الوضع المقلوب نمت الأحاسيس والهموم الفردية، ونما ورسخ السلوك الفرداني الأناني[3]. ويدل على ما نقول ما يلي:

أ– الخطاب الشرعي بين الأمة والائمة

النصوص المتعلقة بإقامة العدل والقسط، والجهاد والقتال، وتنفيذ الحدود، والحكم بما أنزل الله ﷻ، وتنظيم شؤون الزكاة، والأسرة والمجتمع، الخطاب فيها ليس خطاب مباشر لأولى الأمر من ذوي السلطات، وإنما هو أساسا وابتداء للأمة ولجماعة المسلمين، وعن هذا الأصل يتفرع الاختصاص بقدر ما تقتضيه المصلحة وتمليه الضرورة، وبقدر ما تراه الجماعة على سبيل التنظيم والتوكيل والتفويض، بحسب الصيغ والتفاصيل المعتمدة والمتعارف عليها.

[1] ـ الأمة هي الأصل، ص: ١٢.
[2] ـ المصدر السابق، ص: ١٠.
[3] ـ الأمة هي الأصل، ص: ١٢.

لذلك فإننا نجد أن الخطاب الشرعي في هذه الأمور العامة، وفي معظم التكاليف الشرعية هو خطاب ونداء لجماعة المسلمين، فالخطاب الشرعي يتعامل أولا مع الأمة، والأئمة ومن في حكمهم مخاطبون من خلالها ومكلفون من قبلها، ومن أمثلة هذا الخطاب، قوله ﷻ: ﴿ **وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ** ﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿ **وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا** ﴾[2]، وقوله ﷻ: ﴿ **وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ**﴾[3]. ومثل هذا المغزى واضح في كل خطاب جاء بصيغة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾.

وحتى أمهات العبادات التي هي أساسا تعبير عن العبودية للرب ﷻ، وتعتمد على النية الفردية الباطنة، فالأمر بها يأتي جماعيا، وقد يأتي فرديا والقيام بها جماعي في أصله وأساسه، مثل: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾[4]، فالصلاة هي أكثر عمل جماعي ينخرط فيه المسلم في حياته، ويدعو فيها: (**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**). والزكاة (**تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم**)[5]، وجَعْل الصيام موحدا في شهره وبدايته ونهايته، رتب عليه من الأبعاد الجماعية ما هو مُشاهد، أما الأمر بالحج فهو أكثر وضوحا: ﴿ **وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ** ﴾[6]، ففي جميع هذه الأركان يمكن أن يكون للدولة أدوار مساعدة ووظائف مكملة، ومواقف مشجعة موجهة، ولكن الخطاب ليس للدولة، وليس متوقفا على تدابير الدولة ولا على تشجيعها ومساعدتها[7].

ب- نصرة الدين وحمل رسالته

وقر في الأذهان والقلوب – أن نصرة الدين والدفاع عنه والدعوة إليه وحمل رسالته للعالمين، هي وظائف الدولة والعلماء، بل إن كثير من العلماء يعتقد أن هذه الرسالة متوقفة على إذن الدولة ومساعدة ودعمها، وهذا قلب للأوضاع لما يلي:

١- الله ﷻ قد خاطب في هذا الشأن عامة المؤمنين، لا مجرد الأمراء والعلماء، قال ﷻ: ﴿ **قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾[8].

---

[1] - سورة النور، الآية رقم: ٣٢
[2] - سورة المائدة، الآية رقم: ٣٨
[3] سورة النساء، الآية رقم: ٣٥
[4] - سورة البقرة، الآية رقم: ٤٣
[5] - تخريج الحديث
[6] - سورة الحج، الآية رقم: ٢٧
[7] - الأمة هي الأصل، ص: ١٢:١٥.
[8] - سورة يوسف، الآية رقم: ١٠٨

٢- أمانة حفظ الدين ونصرته ثقيلة، وهي أعظم وأخطر من أن تحملها فئة أو فئتان من الأمة، بما يعرضها للضياع في حالة التقصير أو الضعف. وبمخاطبة الأمة كلها بها رجالا ونساء، تكون فرصة حملها والقيام بها أوفر وأوسع.

٣- إلقاء هذه الأمانة الثقيلة الجليلة على الدولة ومن يدور في فلكها، يجعلها عرضة للخطر الماحق، إذا ما قامت الدولة على غير هدى من الله ﷻ[١].

ج- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذه الوظيفة من وظائف المجتمع، لكن الفقه السلطاني جعل تغيير المنكر باليد خاصا بالدولة، وباللسان خاصا بالعلماء (بقيود وشروط)، أما الأمة بعامتها، فلم يبق لها إلا تغيير المنكر بالقلب، أي عدم التغيير الفعلي. لكن تضافرت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة على وجوب تغيير المنكر وإزالة الفساد قدر المستطاع، قال ﷻ: ﴿ **كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ** ﴾[٢]، ومن أشهر الأحاديث: (**مَن رَأى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ**)[٣]، قال ابن رجب الحنبلي: " التغيير باليد لا يستلزم القتال، وقد نص على ذلك أحمد أيضا في رواية صالح، فقال: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح؛ فحينئذ جهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات، مثل أن يريق خمورهم، أو يكسر آلات اللهو التي لهم، أو نحو ذلك، أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم، إن كانت له قدرة على ذلك، وكل ذلك جائز وليس من باب قتالهم، ولا من الخروج عليهم الذي ورد النهي عنه"[٤]-[٥].

ء- الشورى بين العموم والخصوص

اعتاد الناس، وكثير من العلماء والمفكرين، النظر إلى الشورى على أن المخاطب بها هم الولاة، فهي شأنهم والأمر فيها إليهم. لكن الحق[٦] أن الشورى شأن من شؤون الجماعة برمتها، وهي مالكتها وصاحبة الحق فيها، وفي تفويضها، وفي تقييدها وتنظيمها، بدليل فعله ﷺ، وقوله ﷻ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ**

---

[١][١] - الأمة هي الأصل، ص: ١٩:١٦
[٢] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠
[٣] - متفق عليه
[٤] - القرطبي: محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني ، إبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م، ٤٧/٤.
[٥] - الأمة هي الأصل، ص: ٢٣:١٩.
[٦] - رأي د. أحمد الريسوني، الأمة هي الأصل، ص: ٢٤.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1]. فهذه الآية تتحدث إلى جماعة المؤمنين مباشرة وأصالة، قبل أن يكون لهم خليفة ولا دولة أصلا. والشورى هنا صفة من صفات المؤمنين الذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأدوا الزكاة، وهذه الأمور ليست خاصة بالأمراء وولاة الأمر. وقد كان النبي ﷺ يستشير الناس، تنبيها على أن الشورى في أصلها حق لجميع الناس المعنيين بالأمر، أو على الأقل لجميع من أمكن ومن حضر منهم.

وإذا كان هذا هو الأصل إلا أنه لأي جماعة الحق في التوافق والتعارف على تنظيم الشورى وإقامتها على النحو الذي يناسب مصلحتها وحالها، لكن هذا لا يسقط حق الجماعة في المراجعة والتغيير، ولا يسقط حقها الأصلي فيما أنابت فيه وفوضته، أي حقها في ممارسة الشورى العامة المباشرة في أي شأن من شؤونها وعلى أي صعيد[2].

هـ- بين التمكين للأمة والتمكين للدولة

الأمة التي بناها رسول الله ﷺ كانت هي التي تدبر وتدير شؤونها الدينية والثقافية، وتحل مشاكلها المعيشية، وتنهض بمشاريعها العلمية والتعليمية، وتحقق إنجازاتها العمرانية والحضارية، وكانت الدولة تشجع وتساعد وتنظم، وقد تضعف الدولة، فتصبح عالة على المجتمع، وقد تنحرف فتصبح عائقا في طريقه، أو تطغى فتصبح سيفا على رقاب أبنائه، لكن المجتمع رغم هذا كان يظل نشيطا متجددا في طاقاته وعطاءاته، ولعل في تصفح دور (الأوقاف) في حياة الأمة يعطينا المثال على الأدوار والعطاءات العظيمة، التي تستطيع الأمة أداءها حين تأخذ حريتها وتملك مبادرتها، ولعلمنا أية خسارة نمنى بها حين يصبح التمكين (خاصا بالدولة) منزوعا من الأمة، أو حين يصبح التمكين تمكينا للدولة ضد الأمة.

وإذا كان للدولة مهام قيادية وريادية لا تنكر، إلا الدولة التي تهمش الأمة وتلغي صلاحيتها وتكبت مبادراتها، وتهيمن وتحتكر الوظائف والصلاحيات، وتجعل الآلاف أو الملايين من القادرين على الإبداع والعطاء الحضاري يقفون مشلولين، أو مناوئين، لأن الدولة هي التي تفكر وتبادر، وهم ليس لهم مكان في الدولة، مثل هذه الدولة لا يمكن أن تكون دولة رائدة ولا مبدعة حقا.

أما حين نعتمد مركزية الأمة، ونعتمد حرية المبادرة في الفكر والقول والعمل، ونشجعها ونساعدها، فإن الأمة تتحرك في كل اتجاه، وتبدع وتعطي في كل جانب، من دون أن يؤثر ذلك سلبا على الدولة وقيادتها ورعايتها، بل لا يؤثر ذلك على الدولة إلا بمزيد من القوة والعافية والرقي[3].

---

[1] - سورة الشورى، الآية رقم: ٣٨

[2] - الأمة هي الأصل، ص: ٢٤:٢٦.

[3] - الأمة هي الأصل، ص: ٢٧:٢٩.

ثانيا– الثلاثية: العقيدة – الأمة – الدولة

من خصوصيات الأمة في الإسلام – ضمن ما لها من خصوصيات – إنها ارتبطت بالعقيدة والدعوة، مما أضفى عليها بعدا غيبيا، إضافة إلى أبعاد تكوينية ووظيفية وغائية معلومة. فالأمة قد ارتبطت بالتوحيد، وهو وعاء الرسالة الخاتمة، وعندما مات النبي ﷺ لم يخلف إمامة أو دولة، ولكنه ترك أمة انبثقت منها المؤسسات والمدارس والأئمة والدول. فليست الدولة في الإسلام مدار للأمة قياما وتطورا وامتدادا وضمورا، ولكن الأمة تدور مع العقيدة، والعقيدة هي منطلق بقاء الأمة. أما الدولة فقد تكون أو لا تكون، فبتأسيسها تكتمل مقومات البنية العمرانية للأمة، وتكون أداة الذود والمدافعة عنها، وتمثيلها وصيانة مصالحها ونظمها، فالدولة ليست المنشئ للأمة أو البديل عنها، ولكنها تدخل في عداد الهيئات المكلمة أو المتممة، بقدر ما تُؤَمِّن للكينونة الجماعية الأم شروط الحضور التاريخي الفاعل[١].

والأمة هي القاعدة التي يقوم عليها البناء السياسي الإسلامي، وهي المحصلة لمجمل التفاعلات التي تجري بين الأفراد والجماعات الإسلامية. وفكرة الأمة الإسلامية فكرة متميزة في تاريخ الوعي الإنساني، استطاعت أن ترتفع بالجماعة الإسلامية إلى مستوى سامق لم تعرفه البشرية من قبل ولا من بعد. فقد استطاعت الرسالة الإسلامية الخاتمة من خلال مفهوم الأمة أن تتجاوز أواصر الدم والعرق إلى آصرة الأمة المتحدة على أساس العقيدة والفكرة والمبدأ[٢]، وهذا واضح تماما في نصوص الوحي، فالأمة تجمع بشري ناجم عن تفاعل الإنسان مع المبادئ الكلية والقيم العامة، التي تتجاوز الخصوصيات الطبيعية التي تمايز بين الناس من لون أو عرق أو لغة أو إقليم، والمستقاة من الرسالة المنزلة، لذلك فإن **وجود الأمة وغيابها يرتبط بوجود أو غياب الالتزام المبدئي والقيمي بتعاليم الوحي.** ومن هنا ارتبط وجود الأمة الإسلامية تاريخيا بقيام المجتمع المسلم في المدينة[٣].

أما نشأة وتواصل وحصانة ومناعة خصائص هذه الأمة فشيء آخر في المناط والبقاء. وطالما أن هناك قرآنا فهناك أمة، وتبقى تلك الأمة بخصائصها الأصلية ودورات تنشئتها المنيعة هي الوعاء البشري المحكم للقرآن الكريم، سواء وجدت بالقوة أو بالفعل، ولو تمثلت هذه الأمة في فرد مثل إبراهيم عليه السلام.

والعلاقة بين الأمة والعقيدة هي الخصوصية التي تشكل المدخل لمراجعة مفهوم الأمة، ولمعاودة النظر في بعض المفارقات التي وجدت في تراثنا نحن المسلمين. ففي هذا التراث يوجد الفرد المسلم، موضع التكليف والالتزام وطرف المعاملات، ويوجد الفعل مناط الوجود، والحلال والحرام، كما يكثر البحث في الإمامة وشروط

---

(١) ـ الأمة القطب، ص: ٢٤:٢٦.

(٢) ـ صافي: لؤي، العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (١١) الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ص: ٨١.

(٣) ـ المصدر السابق، ص: ٩٤:٩٦.

انعقادها، وفي الإمام ووجوب الطاعة له، وأمور السياسة الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من قضايا السياسة، والخراج والقضاء. لكن يبقى السؤال الحاضر الغائب : أين الأمة؟

والأمة الإسلامية هي التي شهد التاريخ مولدها مع شهادة: **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)**، فالفرد حين يدخل الإسلام، ينتقل ليكون جمعا في : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[1]. فكأنه قد اكتسب بموجب الشهادة عقيدة وهداية، مع هوية وانتماء وغاية، فهو في نفس الوقت الذي يدخل في رباط رأسي مع الخالق ومع الغيب ومع المصدر، فهو يدخل بهذه الشهادة في علاقة أفقية تجمعه مع الجماعة ومع الأمة. فالعقيدة تلقي بخصائصها على خصائص الجماعة، وفي نفس الوقت تصوغ نفسية الفرد المسلم، ومن خلال هذه النفسية تصاغ أيضا الجماعة، ونفسية الجماعة وخصوصيتها[2].

فإذا كان المدخل إلى الأمة في الإسلام يرتبط بالعقيدة، أكثر مما يرتبط بالدولة ومسارها التاريخي، فإننا نجد أنفسنا إزاء نسق فريد من تنشئة الأمة، تكون العقيدة فيها هي المؤسسة، ويبقى القرآن هو المدرسة، والرسول ﷺ هو مصدر الأسوة، وتكون جامعة القيم وتفعيلها هي المعيار والحكم في حضور الأمة.

وإذا كان خليل الله ﷻ إبراهيم عليه السلام بما يمثله من نهج حنيف، وُصف في القرآن الكريم (بالأمة)، فإن تاريخ الأمة في الإسلام، منذ أسسها النبي ﷺ ليجعل منها وعاء الرسالة، وحصن الأمانة ومحضنها، لم تخل قط من نماذج الفرد الأمة، وهو ذلك الفرد الذي تمثل قلبا وعقلا ووجدانا قيم الأمة ومُثلها وهمومها وآمالها، بحيث جاء فعله من موقعه في لحظة تاريخية معينة، وكأنه استجابة لحاجة جامحة تعيشها الأمة في هذه اللحظة، وكأن إرادته إرادة جامعة وليست إرادة مفردة، بها تُبعث قيمة عليا من قيم الحق، وتُحدث أثرها في واقع مشهود.

والفرد الأمة ليس بالضرورة أن يكون عمر بن عبد العزيز ليُعدِّل ويُقوِّم مسار دولة، ولو لفترة، ولا صلاح الدين لينتشل أمة مهزومة من مذلة وهوان، ولا أبا حامد الغزالي، وهو يعيش ملحمة إحياء علوم الدين، ولا ابن تيمية وهو يراوح ما بين السيف والقلم حاملا قلب هذه الأمة وعِرضها في جوفه، .... ولكن يعيش هذا الفرد في كل عصر وفي كل مصر دون اشتراط الشهرة والألقاب، ولكي يكفي أن تهب رياح الخطر على هذا الدين ومستضعفيه، فإذا الأمة تجده على ثغرة هامة من ثغورها، وقد خرج فردا أو معه نفر قليل من أولى العزم، وقد جاءوا رجالا يسعون في الله ﷻ، وقد تنادوا من كل فج عميق لسد تلك الثغرة والوقوف عليها. وهذا المعين لا ينضب، لكن السؤال هو: كيف؟ وما هي آليات الإنضاج التي تظهر في كل جيل وكل حين؟[3]

وإذا كان لنا أن نؤصل لدورة التنشئة الذاتية التي تحفظ للأمة – فردا وجماعة – قوامها، ضمن مسارات التجدد الدوري الذي أمنته الرسالة الخاتمة، فإننا نجد أنه لابد أولا من فهم العقيدة بأبعادها ودلالاتها؛ لأن العقيدة هي

---

(١) - سورة الفاتحة، الآية رقم: ٥

(٢) - الأمة القطب، ص: ٢٤:٢٦.

(٣) - المصدر السابق، ص: ٢٦،٢٧.

التي تجعل من التوحيد المنظومة القيمية والعقلية والفكرية والحياتية، التي تجمع وتصل بين عناصر كيان الأمة، ومن ثم فإن علينا التفكير في (الإطار المرجعي) الذي ينبغي أن يؤسس لإعادة بناء المدركات والمفاهيم والقيم بشكل واع، ممنطق وممنهج، عسى أن تُردم الفجوة القائمة بين وجدانيات هذه الأمة وبين أصولها، ومساحاتها المعرفية والعقلية المغيبة[١].

والمستوى الأول من ابتعاث الوعي المنهاجي هو التأمل في طبيعة العلاقة بين العقيدة والجماعة، وبين امتدادات العقيدة في الممارسة وأثرها في آليات تشكل الجماعة وتواصلها، ومستويات هذا التواصل، وقنوات الاستبطان والاستظهار، وغير ذلك.

وبالرجوع إلى نشأة الجماعة المسلمة الأولى نجد أن من سماتها أنها تجمع بين سمات (المثالية والواقعية[٢]) على نحو متفرد، ومن ذلك ما شهدته الأمة وقائع تأسيسية ومدونات سجلها التاريخ ووثقها شهود العيان، كصحيفة المدينة، ووقائع المبايعة، وعهود الأمان، فجاءت الروابط العاقدة والملزمة في الجماعة الأمة خير نموذج لنسق من المثالية الواقعية. فكانت المدينة الفاضلة في عالم الواقع وليس في عالم الخيال، كاليوتوبيات الغربية. وتظهر هذه المثالية الواقعية في فكرة (الأمة الوسط) التي تجمع المتناثرات، وتجمع المشترك، وتجمع الأبعاد المختلفة للحياة، هذه الوسطية التي تعرف من منطلق التوحيد، حيث يتكامل المثال والقيم والفكر والواقع المعاش الذي تتنزل القيم والفكر والمثال فيه، وتمثلت في الأمة صفة (القطبية) وهي الصفة التي مكنت الأمة من استقطاب شتى القبائل والشعوب والألسنة، وتجميعها وتوحيدها ودمجها، دون النظر إلى عرق أو لون أو إقليم، ودون أن تزيل خصوصيات الأمم أو تضيع ملامحها، وفي نفس الوقت تعمل على الإثراء والمحافظة على التعدد. فالعبرة في أي نظام هي بانفتاحه على الاختلافات النوعية، وإن التعدد الحقيق بالنظر إنما هو أصل من سمات الخلق وقاعدة للدافعية والتكامل في منطق قوامة السبق والتعارف، ولا يكون التنوع والاختلاف موجبا في ذاته – وبالضرورة – للخلاف والنفور والتناقض والعداوة[٣].

ثالثا – الأمة هي الأصل وهي مصدر السلطات

إذا كان كل عقد يتم بإيجاب وقبول، فإن الموجب الأول لعقد الإمامة، أو الطرف الأول إنما هو الأمة، كوحدة متضامنة ذات ذاتية مستقلة، يشار إليها بقولهم: (المسلمون). فالأمة هي من تختار من يتولى أمورها، وذلك

---

[١] ـ الأمة القطب، ص: ٢٧.

[٢] - المثالية تعني حرص الإسلام على إبلاغ الإنسان الكمال المقدور له، بجعل تصرفاته وأقواله وأفعاله وتروكه وقصوده وأفكاره وميوله، وفق المناهج والأوضاع والكيفيات التي جاء بها الإسلام، وقوام هذه المثالية: الاعتدال (عدم الإفراط والتفريط، وإعطاء كل ذي حق حقه) والشمول (أي بلوغ المسلم الكمال المقدور له بتناسق في جميع شئونه ومن جميع الجوانب.
والواقعية تعني أن الإسلام لا يغفل طبيعة الإنسان، وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، فهناك حد أدني من الكمال لا يجوز الهبوط عنه. زيدان: عبد الكريم، أصول الدعوة، ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ص:٧١:٧٤.

[٣] - الأمة القطب، ص: ٢٨،٢٩.

بواسطة البيعة الصحيحة الشرعية. كما أن العلماء قد اعتبروا إقامة الإمامة إحدى الفروض الكفائية، على الأمة بأسرها أن تقوم به، وإلا كانت كلها آثمة. فالأمة هي المسؤولة عن أداء هذا الفرض (الواجب) الكفائي، وحتى إذا أنابت عنها في إنجاز ذلك بعضا منها (أهل الحل والعقد)، فالمسؤولية تبقى دائما مسؤوليتها، والوجوب يظل واقع عليها، أولا وبالذات. والأمة لأنها صاحبة الرئاسة العامة تلك، فيمكن لها أن تعزل الإمام إذا حدث ما يستوجب عزله: أي أن للأمة إنهاء عقد الإمامة أو فسخه، لأنها المبتدئة له، وهي المشرفة عليه، وصاحبة الحق الأولى فيه[١]، فالأمة هي مصدر السلطات بالمصطلح الحديث، وكل ما يصدر عن الإمام بصفته رئيس الدولة، من سلطات أو ولايات، فمرجعه الأول إرادة الأمة، هذه الإرادة التي تظهر حين تقرر أن تنشئ أو توجب العقد باختيارها، وتمنح حق التصرف في أمورها باختيارها[٢].

*****

[١] - الريس: محمد ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، ط: مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة السابعة، ص: ٢١٦،٢١٧.
[٢] - المصدر السابق، ص: ٢٢٠.

الفصل الثالث – سمات الأمة الإسلامية في القرآن الكريم

١- أمة الخيرية

قال ﷻ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[١]، يُذكِّر الله ﷻ الأمة بواجبها بعد أن اختارها لتحم الرسالة، مقيدا هذه الخيرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان الله ﷻ[٢]، وخيرية هذه الأمة تقتضي أن يصل خيرها إلى غيرها، فيكون المعنى: كنتم خير الناس للناس. والأمة الإسلامية ليست كالأمم، فهي أمة من طراز خاص، أخرجها الله ﷻ، ولم تُخرِج نفسها، وإنما أُخرجت لتكون رائدة لكل البشرية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٣].

فهي حين تكون ذات وجود فعلي، تحقق الخيرية لنفسها وللبشرية معها، وحين ينحسر وجودها، فإنها تؤذي نفسها، وتؤذي البشرية معها. ففي فترة المد كانت مُمكَّنة في الأرض، ذات قوة حربية وسياسية وعلمية وحضارية وفكرية، تؤكد بها وجودها، وتوثر بها في العالَم المعروف حينئذ. وفي فترة الانحسار تكالبت عليها قوى الأعداء، فأفقدتها مكانتها، وفقدت البشرية في الوقت ذاته النموذج الصحيح، الذي تستضيء به، فدخلت في جاهلية عاتية، هي التي تحكم الأرض اليوم وتذيقها الوبال.

وعلى المسلم المعاصر معرفة حقيقتين:

أ- الهوان الذي تعيشه الأمة اليوم، لم يُنس أبناءها قدرها، ووظيفتها، التي أخرجها الله ﷻ للناس من أجلها.

ب- لكن هذا الهوان ينسي المسلم المعاصر هدفه، وهو أن يسترد مكان الريادة للبشرة مرة أخرى، ويرد هذه البشرية إلى صوابها[٤].

وأصل الخروج هو النفاذ عن الشيء[٥]، ويستفاد منه معان أخر، مثل الظهور والبيان والحضور بعد الكمون. وخروج الأمة يعني تجاوز حدود الحيز المكاني الذي نشأت فيه وتطورت، ليمتد النور – الذي أصبحت هي بؤرته – إلى الآفاق المظلمة، فيبلغها قبسه الساطع. ولقد أخرج الله ﷻ هذه الأمة إلى عالم الشهود بعد ما كانت قبلا في عالم الكُمون، وأشبه بالأرض الميتة الجرداء، فلما أصابها الغيث بث فيها الحياة الحقيقة، فاهتزت وربت، وصارت خلقا آخر مهيأ لأمور عظام، أظهرها الاندفاع لأجل الشهادة على الناس[٦].

---

[١] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠

[٢] - التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ٤٩٨/١.

[٣] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠

[٤] – قطب: محمد، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ط: دار الشروق ١٩٩٢، ، ص: ١٨٥.

[٥] - الرازي: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، ط: دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، ١٧٥/٢.

[٦] - مفهوم الأمة وأوصافها في القرآن الكريم، ص: ١٠٧،١٠٨.

٢- أمة الوسطية

دل على ذلك قوله الله ﷻ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾[١]. والوسطية هنا ليست موقع جغرافي – وإن كان موقعها الجغرافي في وسط الدنيا فعلا– ولكنها موقف عقيدي، واستراتيجية عمل، ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم. إنها القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال، ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور. ورغم أن هذا التوازن قد تعرض على المستوى التاريخي للتأرجح بين الحين والحين، إلا إنه في إطار التجربة الإسلامية يظل بين سائر التجارب الأخرى في العالم، أكثر وضوحا وتألقا.

وحضارة الأمة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي استطاعت من خلال رؤيتها تلك أن تجمع في كل متناسق واحد بين: الوحي والوجود، والإيمان والعقل، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها، والتراب والحركة، والمنفعة والقيمة، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، واليقين والتقريب، والوحدة والتنوع، والإشباع والتزهد، والمتعة والانضباط، والثبات والتطور، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء، والفناء والوجود[٢].

وإن ابتعاد الأمة الإسلامية عن مسلك الوسط جعلها في وضعية اختلال للميزان، وهي ابتداء مكلفة بإقامة الوزن بالقسط في كل أمر وشأن، والذي يمنعها الآن أن تتحقق به من جديد، تعطيلها العناصر التي شكلت الأمة الوسط بادئ الأمر، أي بصائر القرآن والنور الذي أنزله الله ﷻ هدى للعالمين، ومن الخسران المبين التماس (الوسط) من غير ذلك الهدي المعصوم الخالد[٣].

٣- أمة واحدة

الأمة الواحدة هي أمة غير منقسمة، إذ أنها كيان واحد فقط، متلاحم الأجزاء، وهذا هو حال الأمة المسلمة الحقة، ولا يُتصور لها حال إلا تلك. وثمة ارتباط ضروري بين الإسلام والوحدة، فهو العلة الأولى لحصولها، وهي تدور معه وجودا وعدما، فالتفكك يكون نتيجة ضرورية للتفرق في الدين والانحراف عن الحق الذي وظيفته الأساسية الجمع والتوحيد. ولهذا، فإن بقاء الأمة الواحدة مشروط ببقائها على الحق. ولا يؤثر في ذلك الاختلاف الواقع، إذا لم يؤد إلى ذهاب الريح والقوة والألفة، لأن التنوع هو خصيصة بشرية، ولا تعني وحدة الأمة إلغاءها أو طمسها، فذلك متعذر عقلا وواقعا، ومناقض لطبيعة الأشياء، قال ﷻ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن**

---

[١] - سورة البقرة، الآية رقم: ١٤٣

[٢] - مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص: ٧١.

[٣] - مفهوم الأمة وأوصافها في القرآن الكريم، ص: ١٠٤.

ذَكَر وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير ﴾[1]، فالأصل في البشر هو التنوع قصد التعارف ثم التآلف، لا التفاخر ثم التطاحن، والتقوى هي الأساس الذي يعلى شأن بعض الناس على آخرين عند الله ﷻ[2].

مما يدل على ذلك: حرص النبي ﷺ من أول لحظة في المدينة المنورة على وحدة الأمة الإسلامية، ولعل ذلك يتجلى في بناء المسجد – الذي يتوحد الناس فيه في الصلوات وغيرها، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وفي وثيقة المدينة. وقد أمر الله ﷻ بالوحدة في كتابه العزيز، يظهر ذلك في الكثير من الآيات، منها:

أ- قوله ﷻ: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَة مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[3].

ب- قوله ﷻ: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيما فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[4].

ج- قوله ﷻ: ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَج مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ** ﴾[5].

ء- قوله ﷻ: ﴿ **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْض يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم** ﴾[6].

وفي الحديث: **(مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمّى)**[7].

وعن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: **(إنَّ اللَّهَ يَرْضى لَكُمْ ثَلاثًا، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فَيَرْضى لَكُمْ: أنْ تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا به شيئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا، ويَكْرَهُ لَكُمْ: قيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضاعَةِ المالِ)**[8].

---

[1] - سورة الحجرات، الآية رقم: ١٣

[2] - مفهوم الأمة وأوصافها في القرآن الكريم، ص: ١٠٦،١٠٧.

[3] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١-٣

[4] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١٥٣

[5] - سورة الحج، الآية رقم: ٧٨

[6] - سورة التوبة، الآية رقم: ٧١

[7] - صحيح مسلم حديث رقم: ٢٥٦٨.

[8] - صحيح مسلم حديث رقم: ١٧١٥.

فالذي يوحد الأمة الإسلامية هو إسلامها لربها بصدق، وعلى قدر اعتصامها بحبل الله ﷻ تكون وحدتها، فإذا اشتد اشتدت وتقوت، وإذا ضعف تفككت وتفرقت شيعا وأحزابا.

واليوم أضحى الغلو في تقديس القومية والإثنية والعرقية، وتقديمها على الانتماء إلى الدين معول هدم لمفهوم (الأمة الواحدة)، ومدخلا لتفتيتها من الداخل، ولا سبيل لإضعاف هذه المنزع القومي الشعوبي المتنطع إلا بإحياء مفهوم (الأمة) كما يعرضه الذكر الحكيم، الذي يصون التنوع البشري للمسلمين، ويؤلف بينهم، ويحضن أعراقهم المتعددة على أساس الإخوة الإيمانية والإنسانية الرحبة، التي لا مكان فيها للتمييز والنيل من كرامة الإنسان[1].

والذي يفرق الأمة: من العوامل الداخلية: الخلاف، والجهل بالدين، والتعصب، ومن العوامل الخارجية: الاستعمار، والعنصرية، التآمر الخارجي.

*****

[1] - مفهوم الأمة وأوصافها في القرآن الكريم، ص: ١٠٧.

المقدمة الرابعة

الشهود الحضاري

الفصل الأول – الشهود الحضاري تكليف إسلامي

معنى الشهود الحضاري

الشهود الحضاري هو الشهادة على الناس المذكورة في وصف الله ﷻ لأمة الإسلام بقوله ﷻ : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ** ﴾[1]، والشهود الحضاري له عدة مدلولات:

١– من حيث الأصل اللغوي: تفيد مادة (شهد) معاني: الحضور، والعلم، والبيان، والتبليغ. والتحضر الإسلامي مفعم بهذه المعاني، فهو:

أ- تحضر قائم على العلم بحقائق الوجود الغيبية والمشهودة.

ب- تحضر ظاهر في منجزات عملية حاضرة في حياة الناس، مؤثرة فيها، فهو مبين للعالمين، ومبلغ إليهم حقائقه ومنجزاته على سبيل تعميم الخير للناس كافة.

٢– ومن حيث نظم الآيات: تفيد الشهادة على الناس معنى: المناعة، والعزة، والنفاسة، وهذه الأمور يحفظها الشهود الحضاري للأمة [2].

الشهادة على الناس تكليف إسلامي

والشهادة على الناس من مقتضيات التدين الإسلامي، ومن لوازمه المطلوبة، والأمة حين تكون أمة إسلامية حقا، فإنها تكون شاهدة على الناس، بالتحضر على وجه الضرورة. والإسلام الكامل هو علة الوسطية والشهادة، وبهذا المعنى فإن الشهود الحضاري بالنسبة للأمة الإسلامية تكليفا دينيا، فإن هي وَفَّت بالتكليف: تحقق لها الشهود الحضاري، واستحقت المدح، والتمجيد. وإن أخلت بالتكليف: تخلف ذلك الشهود، فلا تستحق منه إلا بقدر ما هي أمة مسلمة بإطلاق، ويلحقها المؤاخذة بقدر ما تخل به من الشهود الحضاري.
وشهادة الأمة الإسلامية على الناس، لا تكون إلا أن تكون هذه الأمة آخذه بأسباب العلم، والعمل الصالح. وتخلي هذه الأمة عن سنن التحضر وقوانينه، هو الذي أوصلها إلى ما آلت إليه من الخفوت ثم انتهاء ذلك الشهود[3].

(١) - سورة البقرة، الآية رقم: ١٤٣
(٢) - فقه التحضر الإسلامي، ص: ١٠.
(٣) – المصدر السابق، ص: ١٢،١١.

الفصل الأول – فقه الشهود الحضاري الإسلامي

الفصل الثاني – فقه[1] الشهود الحضاري الإسلامي[2]

تمهيد

تصور الإنسان عن حقيقة الوجود، وعن غاية التحضر، أساس الجهد الجماعي للترقي المادي والمعنوي، وهو قوام الحضارة في كل مجالاتها وكل مراحلها. والسعي لتوجيه أي حضارة توجيها يقوم انحرافها، أو يبعثها من ركودها، يتوقف على فقه (فهم) منطقها الداخلي الذي عليه قامت وتطورت، ثم إحياء ذلك الفقه (الفهم)، وتقويمه، لتعود حركة التحضر جارية عليه.

وبالنسبة للحضارة الإسلامية، فإن كل محاولة للنهوض بالتحضر الإسلامي، وإعادته إلى وضع الشهود، تتطلب أول ما تتطلب: الوقوف على ذلك الفقه، وفهم طبيعته وقواعده، ليكون ميزانا لتعديل المسار الحضاري، تعديلا يفضي إلى استئناف الحركة المترتبة بالإنسان من حيث قوامه الذاتي، ومن حيث أوضاعه المادية. ولذلك فإن محاولات النهوض بالعالم الإسلامي، وفق فقه (فهم) التحضر الغربي لم تفض إلى شيء.

وإذا كان فقه تحضر أي حضارة يكون متأتيا من الفكرة التي قامت عليها، فإن التحضر الإسلامي سيكون فقها مصبوغا بالعقيدة الإسلامية، في شرحها لحقيقة الوجود، ورسمها لغاية الحياة بناء على التوحيد.

والتحضر الإسلامي في جريانه على عقيدة التوحيد كان يتم عبر قواعد تشكل فيما بينها شبكة مترابطة موجهة، ضوابطها من تلك العقيدة، والتي نشأت منها المنجزات المادية والمعنوية.

قواعد الشهود الإسلامي

١– الخلافة عن الله ﷻ في الأرض

قال ﷻ: ﴿ **وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ [3]، والمستخلَف هو نوع الإنسان عامة. وهذه الخلافة في الأرض، هي خلافة الإنسان عن الله ﷻ ليقوم على تنفيذ مراده في إقامة الحياة في الأرض، إذ أن من معاني الاستخلاف التكليف بتنفيذ الأوامر.

[1] - هنا أيضا نعني بالفقه: المعنى المنهجي، وهو المبادئ والأصول والقواعد التي تشكل نسقا يحكم الظاهرة المعينة، أو العلم المعين، أو الحضارة المعينة، ولا علاقة له بالفقه الذي هو العلم المعروف..
[2] - فقه التحضر الإسلامي، (مختصرا) ص: ١٢٢:٨١.
[3] - سورة البقرة، الآية رقم: ٣٠

وبهذا المعنى يكون كل منشط مادي أو معنوي متجها إلى الله ﷻ ، وتكون الاتجاهات الفردية والجماعية، والمادية والمعنوية، حركة عبادة لله ﷻ ، ويصبح مفهوم التحضر مفهوما مشربا معنى العبادة لله ﷻ بمفهومها الشامل ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[1].

ولا مجال في عقيدة الخلافة، لأي معنى من معاني العزلة والابتعاد عن عالم المادة، والاقتصار على التعبد (بالمعنى الخاص) نشدانا للخلاص الفردي بعيدا عن خضم الحياة الاجتماعية والمادية.

٢- الشهادة على الناس في الدنيا والآخرة

الأصل الجامع لقواعد تلك الشهادة على الناس مضمن في قوله ﷻ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّة وَسَطا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾[2]، ورغم أن المفسرين قد ذكروا أن الشهادة المذكورة هنا خاصة بشهادة الأمة الإسلامية يوم القيامة على الأمم الأخرى أنهم قد بُلغوا رسالات أنبيائهم، إلا إن هناك أيضا شهادة للأمة الإسلامية على الأمم في الدنيا، بحكم الدلالة اللغوية، وسياقها في الآية، وارتباطها ارتباطا عمليا بالوسطية.

وإذا كان التكليف للإنسان هو تكليفه بمهمة إنجاز الخلافة في الأرض، فهي مهمة تستغرق كل الحياة الدنيا، وتمتد إلى الحياة الأخرى بالحساب والجزاء. كما إن هذا التكليف له مظهر فردي (التكاليف العينية)، ووجه جماعي (التكاليف الكفائية)، فينشأ من هذا التكليف بُعد رعاية الآخرين، ويشيع في المؤمن تصورا للإنسانية على أنها مع اختلاف الأجناس والشيع، تمثل وحدة هو جزء منها، يضره ما يضرها، وينفعه ما ينفعها، وذلك معنى ينطق به قوله تعالى: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَاد فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعا** ﴾[3]. وعناصر هذه الشهادة في الدنيا، هي:

أ- شهادة العلم، وتشمل:

- شهادة العلم بالدين: حيث أن الشهادة تقتضي العلم الصحيح بحقيقة الدين القائمة على الوحي (الكتاب والسنة).
- شهادة العلم بالكون (كتاب الله ﷻ المنظور): لأن هذا العلم المادي يؤدي إلى تسخير عناصر الكون، كما أن النظر في الكون يؤدي إلى الإيمان بالله ﷻ ، وقوة العقيدة.
- شهادة العلم بالناس: أي العلم بالقوانين والسنن الاجتماعية، التي تحكم المجتمع الإنساني في أسباب قوته وضعفه، وازدهاره وانحداره، واستمراره وانقراضه. وكذلك العلم بالشعوب والمجتمعات، من حيث

---

[1] - سورة الذاريات، الآية رقم: ٥٦
[2] - سورة البقرة، الآية رقم: ١٤٣
[3] - سورة المائدة، الآية رقم: ٣١

طبائعها وخصائصها الحضارية والثقافية وتركيبتها الاجتماعية، وجذورها التاريخية، لأن الشعوب لا تُفهم إلا بذلك. ولهذا العلم صلة بهداية الآخرين، حيث يسهل التعامل معهم والتأثير فيهم.

ب- شهادة التبليغ: فالدين للناس كافة، ومن واجب الأمة الإسلامية تبليغه ﴿ **هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ** ﴾[١]، وهذا التبليغ يكون ببيان العلم وتبليغه، وعدم كتمانه قال ﷻ: ﴿ **وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ** ﴾[٢]، وقال ﷺ : **(من كتَمَ عِلْمًا يَعلَمُهُ، جاء يومَ القيامةِ مُلجَمًا بلِجامٍ مِن نارٍ)** رواه الترمذي. كما يشمل التبليغ: التبليغ الدعوي: ﴿ **وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾[٣].

ج- شهادة العدل: فهي الأمة الوسط، ومن أخلاقها إعادة الحقوق لأصحابها، وهي أمة العدل في الحكم بين الناس ﴿ **وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ** ﴾[٤].

٣- ارتفاق الكون

من معاني الارتفاق: اللطف بالشيء، والانتفاع والاستعانة. والتعامل مع الكون من ثمرات التصور الاعتقادي الإسلامي، حيث جاءت التعاليم الإسلامية حافلة بالبيان لعلاقة الإنسان بالكون من الناحية العقدية، ومن الناحية الإجرائية، وذلك لتحقيق الخلافة في الأرض. والأساس العقدي لصلة الإنسان بالكون هو التعامل مع الكون في محوري الانتفاع والرفق، ليس إلا ثمرة للتصور العقدي له، ولهذا التصور العقدي الإسلامي عناصر:

أ- الوحدة والتوافق بين الإنسان والكون: فالإنسان ما هو إلا عنصر من عناصر الكون، ويشترك معه في جل أحكامه المادية والتي تعتبر الوجود الناقص، في مقابل الوجود الكامل لله ﷻ ، إلا أنه يتميز بخصوصه عن باقي الكائنات ، قال تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ**﴾[٥]، ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ** ﴾[٦]، ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا** ﴾[٧].

ب- استعلاء الإنسان: فلا يعني التوافق مع الكون التساوي القيمي بين الطرفين، فالإنسان وفق العقيدة الإسلامية متميز تميز رفعة واستعلاء: ﴿ **وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ** ﴾[٨]، وهذا الاستعلاء بسبب تكوينه

---

[١] - سورة إبراهيم، الآية رقم: ٥٢
[٢] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٨٧
[٣] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٠٤
[٤] - سورة النساء، الآية رقم: ٥٨
[٥] - سورة النور، الآية رقم ٤٥
[٦] - سورة الذاريات، الآية رقم: ٤٩،
[٧] - سورة الفرقان، الآية رقم: ٢
[٨] - سورة الإسراء، الآية رقم: ٧٠

الجامع بين المادة والروح: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1]، كما أنه مهيأ بوسائله الإدراكية للاستيعاب المعرفي للكائنات: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

ج– تسخير الكون للإنسان: فالكون كله مسخر للإنسان: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[3]، وكل ما في الكون خلق من أجل الإنسان ابتداء، ومركب على قوانين كمية وكيفية، تحكم عناصره، وتناسب كيان الإنسان في وجوده، وحفظ حياته، وتنميته. والكون مسخر أيضا تسخيرا معرفيا، حيث بُني مادة وحركة على قوانين ثابتة تتيح للعقل الإنساني التعامل معها.

ء– ارتفاق الانتفاع بالكون: وهذا الانتفاع يتم بواقعية، جاءت بها التعاليم الإسلامية، حيث يتحتم على المسلم إن يباشر الكون مباشرة إيمانية للانتفاع بعناصر الكون المادية، مع الانتفاع الروحي أيضا لشدة الترابط بين الروح والمادة، كما إن في الكون تتجلى معان ذات طبيعة روحانية: ﴿ **وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾[4]، وهذه الروح الكونية تجعل توافق روحي بين الكون وبين الإنسان، ولعل مما يدل على ذلك قوله ﷺ حينما لاح له جبل أحد في رجوعه إلى المدينة (**هذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ**) أخرجه البخاري.

هـ– الرفق بالكون: وذلك بالتعامل معه تعاملا يقوم على الحفاظ على مقدراته، ونظمه، وموجوداته، والحيلولة دون كل ما عسى أن يكون فيه اتلاف أو تحريف يؤثر في استتباب الحياة، ونفع الإنسان. ويشمل هذا الرفق: الرفق من التلف (التوازن البيئي)، وصيانة الكون من أي عناصر مسمومة تفضي إلى تعطيل العناصر الكونية عن أداء دورها، و(الرفق الاستهلاكي) بعدم الإسراف في استهلاك مقدرات الطبيعة، بما يفضي إلى افقار لها في غير نفع الإنسان.

*****

[1] - سورة الحجر، الآيات: ٢٩،٢٨
[2] - سورة البقرة، الآيات: ٣٢،٣١
[3] - سورة الجاثية، الآية رقم: ١٣
[4] - سورة الإسراء، الآية رقم: ٤٤

الفصل الثالث – عوائق الشهود الحضاري

تمهيد

إن مجرد انتماء الأمة الإسلامية إلى الدين الإسلامي، واتصافها بصفته الظاهرية، لا يكفي وحد مبررا للشهود الحضاري، لكن لابد من توفر شروط خاصة لا ينهض التحضر إلى بتوفرها. وقد نبه عمر بن الخطاب ﷺ الناس إلى هذا المعنى الجليل، عندما كان في حجة حجها، فقرأ قوله ﷻ: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾[1]، ثم قال: " يا أيها الناس: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها"، فقد نبه ﷺ أن خيرية الأمة التي من أهم أسسها شهودها الحضاري إنما تكتسب بشروط زائدة عن مجرد الانتساب الإسلامي العام.

فبالإضافة إلى الشروط الحضارية التي تخضع لها الأمم عامة في الإنجاز الحضاري ، تحتاج الأمة إلى التحقق بالشروط – بيناها سابقا– والتي إذا ما تخلفت أو تخلف بعضها، لم يكتمل الشهود الحضاري.

والمتأمل في واقع الأمة طيلة تاريخها، يجد أنها مرت بأوضاع مختلفة في واقعها الحضاري، فمن انطلاق وشهود، إلى خمود وغياب، إلى محاولات في النهضة والعودة. والمتأمل في الأسباب المتحكمة في كل وضع من هذه الأوضاع يجد أن شروط التحضر العامة، وشروط التحضر الإسلامي الخاصة هي التي تحدد تلك الأوضاع، فتحقق هذه الشروط هو الذي أدى إلى ازدهار التحضر الإسلامي، ثم إن تراخيها وانحلالها هو الذي أدى إلى انحسار ذلك التحضر وتراجعه إلى حد الغياب، ثم إن محاولات النهضة والاستئناف الحضاري تخضع في تقدمها وتأخرها، وفي نجاحها وفشلها لتلك الشروط في مدى تحققها على الواقع[2].

عوائق الشهود الحضاري[3]

يعيش المسلمون اليوم غيبة حضارية شاملة، ولا يمارسون مهمة الخلافة في الأرض بالشكل الصحيح، وهناك أسباب تؤدي إلى استمرار هذا الوضع الغيابي، وتشد المسلمين إليه، وتعوقهم عن الانطلاق. ونحن أمام ظاهرة معقدة تعقيد شديدا، ضاعفه السقوط الحضاري للمسلمين، وزاد من ضعفه تطاول العهد بتلك الغيبة الحضارية للمسلمين المستمرة لقرون عديدة. وهذه الغيبة الحضارية التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم، تشترك فيها ثلاثة عوامل أساسية كبرى:

---

(1) - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠

(2) - النجار: عبد المجيد عمر، عوامل الشهود الحضاري، ط: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ص: ٧:٥.

(3) - المصدر السابق، ص: ١٥ وما بعدها.

أولا- خلل في فهم العقيدة

العقيدة الإسلامية لها رؤيتها الخاصة للوجود والكون والإنسان. وحينما نتأمل حقيقة العقيدة الإسلامية التي أنشأت التحضر الإسلامي، ثم نقارن الوضع الحالي للأمة، لا يسعنا إلا أن نتأكد من تفاوت أصاب عناصر أساسية من الفهم العقائدي، أوصل المسلمين إلى قدر من الانحراف.

أ- مظاهر الخلل في فهم العقيدة

١ – خلل في فهم حقيقة التوحيد

وحدانية الله ﷻ هي جوهر العقيدة الإسلامية، وهي النقطة المركزية التي تمتد خيوطها جامعة لكل الجزئيات والفروع، فما من موجود إلا وهو راجع في علته إلى الله ﷻ ، وخاضع بكليته لتدبيره، وما من مسلك من مسالك الحياة إلا وهو راجع بسبب إلى أمره ونهيه، وما من نزوع بالفكر أو بالقلب أو بالفعل إلا وهو مشدود إلى الله ﷻ ابتغاء مرضاته. ولو تأملنا الوضع الإسلامي اليوم لوجدنا أن حقيقة التوحيد أصبحت عند عامة المسلمين مجرد فكرة ذهنية، مشوشة، مختلطة بكثير من الأمور:

- فما كان راجع كله في سبب وجوده إلى الله ﷻ، أصبح بعضه يعود إلى غير الله ﷻ من الأسباب المادية، ومن الأولياء وأهل الحظوة، وبعضها إلى السحر والتنجيم، وبعضها إلى قوة ذاتية في الطبيعة نفسها.
- وأصبحت قوانين تنظيم الحياة بعضها مرتبط بالتوحيد، مأخوذ من الوحي، وبعضها منقطع عن الوحي، مأخوذ من القوانين الوضعية، وبعضها من العقل. فترى القطيعة بين الدنيا والآخرة، وبين الدين والدولة، وبين العبادات والمعاملات الاجتماعية.
- وغدت أفكار المسلمين وقلوبهم وأفعالهم، ذات عناصر كثيرة يشاكس بعضها بعضا، ويناقض بعضها بعضا. فترى الولاء لله ﷻ والخضوع له في الصلاة والصوم، وفي ذات الوقت الولاء للسلطان والخضوع له في الربا والخمر، وترى الإيمان بحرمة الزنا، لكن القانون يحكم بحلية الزنا وتبرئه الزاني من العقوبة.

كل ذلك يدل على أن ما يعمر ذهن المسلم اليوم، خليط متدابر، لا ينظمه ناظم، ولا توحده مركزية التوحيد في عقيدة المسلمين، ولذلك أثر بعيد في الإعاقة عن الانطلاق الحضاري، فالفكرة (صحيحة أو غير صحيحة) في أية حضارة هي الدافع الأقوى لنشوئها وتطورها، والحضارة ليست في حقيقتها إلا صدى للفكرة في الواقع، وبقدر ما يصيب الفكرة من اضطراب أو تشويش أو ضعف، بقدر ما يظهر ذلك تراجعا وانتكاسا في التحضر.

والحضارة الإسلامية إنما قامت أساسا على عقيدة التوحيد، ومن ثم فإن الضعف والتشويش الذي أصاب هذه العقيدة في أذهان المسلمين كان السبب الرئيسي في ما يعيشه المسلمون اليوم من واقع حضاري، ويظهر هذا الأمر بصورة أوضح فيما يلي من الحديث عن أسباب الخلل.

٢- قصور الرؤية عن غاية الحياة

الناظر إلى أحوال العالم الإسلامي اليوم، لابد أن يلحظ إما حيدة عن الخط الذي يتجه إلى الغاية الصحيحة للحياة، وإما قصور في إدراك تلك الغاية. ويظهر ذلك جليا في المناهج التربوية في مختلف العالم الإسلامي، حيث نجد أهداف الحياة التي تربي عليها الأجيال من مثل: تحقيق المواطنة الصالحة، تحقيق الانسجام الاجتماعي، بلوغ القدرة على تحصيل الرزق، وتحقيق الذات، وبلوغ الحد الأقصى من القدرات الإنسانية.

وإذا كانت هذه الغايات وأشباهها هي التي حددتها العقول المسؤولة عن التربية، فإن عقولا أخرى على مستوى الأفراد العاديين قد تكون رؤاها لغايات حياتها أقصر من ذلك وأبسط بكثير، تكاد تقف عند حد قريب من الحد الذي تقف عنده الأنعام من تحقيق ما يحفظ الحياة، ويلبي نداء الغرائز والشهوات، من مأكل ومشروب ومنكوح وملبوس، وما يقاربها مما هو في معناها.

لقد قصر عقل الأمة اليوم عن إدراك معنى تحقيق الاستخلاف في الأرض الذي يقوم على العبودية لله ﷻ ، والتي تتمثل في الترقية الدؤوب للإنسان فردا ومجتمعا، في مجال الروح، والمادة، وارتفاق الكون، كل ذلك في نطاق إنساني عام يحدده معنى شهادة الأمة الإسلامية على الناس، في وجهة خطها مستقيم، ونهايتها الله ﷻ فيما يحقق رضاه.

٣- ضعف الصلة بالكون

البيئة الكونية هي المسرح الذي يتم عليه إنجاز الاستخلاف في الأرض، وعليه فالمسلم يؤمن بالرابطة التي تربطه بالكون بخيوط عديدة يشد بعضها بعضا:

- العقيدة: فالكون به من الآيات ما يوصل إلى الإيمان بالله ﷻ.
- العاطفة: فالإنسان مخلوق من عناصر هذا الكون.
- المعرفة: فلا يتم فعل في الكون إلا بعد معرفة أسراره.
- المنفعة: فالكون هو المرفق الذي يُزرق منه الإنسان.

وقد جاء القرآن الكريم يؤكد كما لم يسبق في دين هذه الرابطة، ويثبتها في الأذهان بأساليب بيانية متعددة ومتنوعة، تخاطب العقل والقلب والحواس الظاهرة والباطنة، يهدف من ذلك كله أن تستقر في ذهن المسلم فكرة يحل فيها الكون من ذاته محلا مكينا، ويكون ارتباطه به ارتباطا متينا، ليكون ذلك عاما محققا للاستخلاف.
وهذا الفهم للرابطة بين الإنسان والكون، أصحبت مشوشة في أذهان المسلمين اليوم:

- فمن ناحية العقيدة: أصبح النظر في الكون مادية تقف عند حد الظواهر، ولا تتعداها إلى الدلالات إلا في القليل.
- ومن ناحية العاطفة: أدت النظرة المادية تلك إلى صورة جافة ميتة من التعامل تخلو من الرابطة العقدية.
- ومن الناحية المعرفية: استقر في الأذهان أن العلم الحقيقي الجدير بالاعتبار إنما هو العلم بالدين، أما العلم بالكون فهو في درجة ثانوية لا تبلغ مبلغ الضرورة، وهذا ما يفسر لنا الاستهانة بالبحث العلمي تخطيطا وتمويلا وإدراجا في نظم التعليم وبرامجه، في عرض العالم الإسلامي.
- ومن ناحية المنفعة: الصلة أيضا واهية، فالذهن الإسلامي العام يترسب فيه النظرة الدون إلى العلاقة الانتفاعية مع الكون في كثير من الأحيان، كالنظرة الانتفاعية مع الأرض بالزراعة، والعمل بالمهن والحرف، وفي مقابل ذلك تحظى الأعمال المكتبية والوظيفية والتجارية بالاحترام والتقدير.

ب- أسباب الخلل

١ – ضعف الصلة بالوحي

مصدر الإسلام هو الوحي المتمثل في نصوص القرآن والحديث، وهذه المصدرية هي مصدرية بناء لمادة الفكرة الإسلامية في كلياتها وجزئياتها، كما أنها مصدرية طاقة لحفظ ذلك البناء، والإبقاء على تأثيره وفاعليته في النفوس، مع ما تمتاز به الفكرة الإسلامية من شمول، والذي يعطي للفكرة المنشئة للتحضر تكاملا وقوة دفع.
وصلة المسلمين اليوم بمصدر الوحي في حالة ضعف شديد، فكم من المسلمين اليوم يشكل رؤاه في حقيقة الوجود القائمة على التوحيد، وفي غاية الحياة، وفي العلاقة بالكون، الاستمداد المباشر من القرآن والحديث كمصدر وحيد ودائم للفكرة الإسلامية؟
وإذا ما تجاوزنا عائق الأمية التي تشمل العدد الأكبر من المسلمين اليوم، فإننا نجد برامج التعليم ذات الصبغة التي بدلا من أن تكون طريقا لوصل المسلمين بالقرآن والحديث، فإذا بها لا تقوم بهذا الدور، وفي أحسن الأحوال تكتفي بأن تبقي تلك الصلة عند حد المفاهيم الأخلاقية والشعائر التعبدية.
أما التعليم الديني، فرغم وجود خط الوصل بين المتعلمين وبين الوحي أحسن وأقوى، إلا أنه لا يعين المتعلم على أن يبني أفكاره عن الوجود والكون والحياة بالأخذ المباشر من القرآن والحديث، بحيث يكون هذا المصدر

هو مصدره الأوحد في ذلك، وهو مرجعه فيه عند البناء، أو عند المقارنة والتمييز، ولنا أن نتأكد من ذلك بمراجعة مقررات مادة العقيدة في هذه النظم التعليمية.

٢ – تقليد الموروث

أدى ضعف الصلة بالوحي كمصدر لبناء الفكر الإسلامي الصحيح، إلى اتخاذ الآراء والشروح الاجتهادات المتراكمة عبر العصور، مصدرا بديلا عن الوحي لبناء الفكرة عن الوجود والكون والحياة، فحل الموروث عن السابقين من المجتهدين والمفكرين محل المصدر الأصلي، في استمداد الرؤى والأفكار أو على الأقل واسطة بين المسلم وبين الوحي، يوجه الأفهام ويصوغها على نحو معين قد لا يكون هو النحو الصحيح المقصود من الوحي.

يظهر ذلك بوضوح في المؤلفات والكتب التي وضعت لغاية تعليمية أو تربوية، فإننا نجدها في معظمها آراء وأفهام السابقين والفرق والمذاهب أكثر مما هي مبنية على معاني القرآن والحديث بصفة مباشرة، وإذا وجد فيها من الآيات والأحاديث، فإنها غالبا ما تَرِد استشهادات على آراء وأفهام ومؤيدات لها، لا منطلقات أساسية منها تنبع تلك الآراء والأفهام.

وإذا كان السابقون من العلماء والفرق والمذاهب يتخذون القرآن والحديث منطلقا في بناء أراءهم وأفكارهم، إلا أن الآراء والصور التي ينتهون إليها لا تكون في حقيقتها إلا أفهاما لهم، واجتهادات في تبين المعاني تتأثر في بنيتها أو في ترتيبها أو في صياغتها بمعطيات ظرفيه من الواقع المعاش في انعكاسها على طرق الفهم، أو على تنظيم المفهوم وتوجيهه وتفعيله.

٣ – التأثر بالوافد

أدى ضعف الصلة بالوحي، وتقليد الموروث، إلى التأثر بالوافد من الآراء والأفهام الدخيلة من الفلسفات والنظم الخارجة عن النطاق الإسلامي كله. وإذا كانت الأمة الإسلامية على حال من الضعف الحضاري يجعلها على قابلية للتأثر بهذا الوافد من جهة، مع ضعف صلتها بالوحي من جهة أخرى، فإن الأفكار الوافدة كان لها أثر في تشويش الفهم الإسلامي لشِق من المسلمين، وإن كان هذا الشِق من المسلمين ليس كبيرا في عدده، إلا إنه كبير في موقعه من مراكز السلطان السياسي والتربوي والثقافي عامة، وتلك هي شريحة العلمانيين على اختلاف درجاتهم في العلمانية، بين رفض للدين أصلا باعتباره قضية باطلة، وبين حصره في الشأن الشخصي، وحسره عن مجال الحياة العامة.

ورغم أن الأمة الإسلامية في عمومها لم يصبها الخلل الوافد بنفس الشدة التي أصابت الشريحة العلمانية، إلا أن الدعاية السياسية والثقافية للعلمانية المهيمنة كان لها أثر فيما أصيب به التوحيد الشامل في أذهان أفراد الأمة الإسلامية.

ثانيا- خلل المنهج

المنهج هو ما تكون به صياغة الفكرة، وتطبيقها في الواقع، ويتوقف عليه إلى حد كبير صيرورتها واقعا حضاريا، فإذا كان المنهج صحيح أثمر في البناء الحضاري، وإذا كان المنهج غير صحيح أو عقيم، لم تكن لتلك الأفكار وجود إلا في الأذهان، شأن المدن الفاضلة، والمثل العليا التي تغنت بها فلسفات ومذاهب وأديان كثيرة، ولكنها لم تتحول إلى واقع حضاري.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية، وأساسها التوحيد، هي الفكرة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، فإن المنهج الذي صاغ به المسلمون البرامج العملية القائمة على هذه الفكرة، ثم طبقوها في واقع الحياة، تعتبر عنصرا أساسيا في نهوض الحضارة الإسلامية وازدهارها، لأن طريقة تفكير الإنسان وسلوكه تكون متكيفة إلى حد بعيد بطبيعة الفكرة التي تملأ ذهنه.

ومنهج المسلمين اليوم فيما يرومون من مسعى للنهوض يقف على مظاهر من الخلل، سواء على مستوى التفكير، أو التطبيق، ولعل أهم مظاهر ذلك تتمثل فيما يلي:

أ- البعد عن الواقعية

والمقصود بالواقعية: اعتبار الواقع المادي والواقع الإنساني عنصرا أساسيا في صياغة مشاريع النهضة وتطبيقاتها، ومرجعا لتعديل صياغة تلك المشاريع وتحسينها، ومرجعا في تطبيقها الفعلي. ويأتي البعد عن الواقعية متمثلا في إهمال هذا الواقع كليا أو جزئيا عند صياغة المشروع الإصلاحي وتطبيقه، والاكتفاء بصياغة نظرية بعيدة عن معطيات وعناصر الواقع المراد علاجه.

والإسلام قد وجه العقول إلى جعل الكون المحسوس مصدرا للمعرفة، ومنطلقا أساسيا في بناء الإصلاح، فتكونت ثقافة جديدة ينطلق فيها العقل الإسلامي في مشروع التحضر صياغة وتطبيقا من واقع المادة وواقع الإنسان، وهذا ما ظهر جليا في المنهج التجريبي للعلوم الكونية، وفي المنهج الواقعي للعلوم الفقهية والعقدية، وهو ما دفع بالتحضر إلى أوج الازدهار. أما اليوم فقد اختل هذا المنهج ويتجلى ذلك في غلبة المفهوم الصوفي في الزهد، والبعد عن واقع الكون والحياة، والانعزال عن واقع الأمة في مجريات همومه ومشاكله وعناصره المحركة له، وبالتالي عزوف الفكر الإسلامي الراهن عن الدراسة الواقعية للحياة الإسلامية خصوصا، والحياة الإنسانية

عموما، دراسة تعتمد النظر الوصفي والتحليلي العميق، والاستعاضة عن ذلك في الغالب بالنظرة الجميلة ذات المنوع التقديري الذي يصل مباشرة إلى الرفض العام دون الوقوف العلمي على التفاصيل والأسباب.

ويظهر ذلك الهروب من دراسة الواقع أيضا في المثالية السلفية، التي تحاول الاستفادة من الاجتهادات الفقهية الجاهزة التي أنجزت في القرون الأولى، وتحقق على أساسها المثال السلفي، ليجعلوا منها صورة للتطبيق على الأوضاع الراهنة في السياسة، أو الاقتصاد، أو أحوال المجتمع العامة، انصرافا عن المقتضيات المخصوصة لواقع هذه الاجهادات، والتي اختلفت واقتضى الواقع اجتهادات أخرى.

وثالث هذه الأمور هو الانصراف عن الواقع إلى المثالية الغربية كمنطلق لدراسة سبل الإصلاح، وفي هذا يندرج أصحاب النزعة العلمانية المنبثون في العالم الإسلامي، والذين يحتلون مراكز هامة في مواقع القرارات التغيرية النظرية والعملية في مختلف مجالات الحياة. وهؤلاء يقوم تفكيرهم التغييري للنهوض بالواقع الإسلامي من منظور النمط الغربي، باعتباره المثال الذي يؤدي إلى النهوض، دون اعتبار لمقتضيات الواقع الإسلامي الذاتي.

ب- اختلال السببية

ويقصد بالفكر السببي ذلك الفكر الذي يقوم على ربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، ويقدر أن النتائج لا تكون إلا من أسبابها المخصوصة سواء في مجال الطبيعة، أو في مجال الحياة الإنسانية، وتنتفي منه تبعا لذلك كل التفسيرات الخرافية والأسطورية التي تهدر السببية، وتقفز بالنتائج إلى أسباب وهمية لا صلة لها بأسبابها الحقيقية.

وقد جاء الإسلام يرسخ مفهوم السببية كقانون طبيعي واجتماعي، وذلك في نطاق ما ارتضاه الله ﷻ من نمط في تدبير الكون، وفي تصريف شؤون الحياة، وهو ما يفهم من أمثال قوله ﷻ: ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا** ﴾[1] ، ﴿ **وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾[2]، وقد أصبح هذا التعليم القرآني في قانون السببية سيرة فكرية للمسلمين، حيث فهموا أن الطبيعة في تفاعلاتها المختلفة، وفي وجوه إثمارها لمصلحة الإنسان تجري على أساس سنن قائمة على قانون الأسباب، فاستثمروا ذلك في مختلف أوجه الاستثمار.

أما المسلمون اليوم فقد ترسب في عقولهم عبر القرون ما يمثل عائقا هاما من عوائق الانطلاق الحضاري بسبب ما أصاب مفهوم السببية في الفكر والعمل معا، فيؤدي إلى طلب للنتائج من غير أسبابها، وإجراء لتصرفات الحياة على غير قواعدها المنتجة. ونرى ذلك في الخلل في فهم حقيقة التوكل على الله ﷻ ، والذي

---

[1]- سورة الكهف، الآية رقم: ٨٤

[2] – سورة فاطر، الآية رقم: ٤٣

أسهمت المنازع الصوفية بقد وافر في ترسيخه عند جموع عريضة من المسلمين المتأثرين بهذه المنازع، فيؤثرون القعود على السعي بالتعمير في الأرض زرعا وتصنيعا وتشييدا وأخذا بأسباب القوة، أو يسلكون إليها سبلا وهمية، ثم ينتظرون مددا إلهيا من الرزق والرخاء والنصر، فينتهون حتما إلى بوار في ذلك كله، ويشدون الأمة إلى واقع من التخلف.

بينما يعتقد آخرون أن الأسباب هي العاملة بذاتها دون أن يكون للقيومية الإلهية دخل في ذلك، سواء عن غفلة أو عن قصد، وهم في الغالب أولئك المتأثرين بالمنزع الثقافي الغربي القائم على التصور المادي للكون والحياة. يضاف إلى ذلك ضعف الحس السببي تجاه مظاهر الطبيعة، أو تجاه ظواهر الاجتماع، والذي يتجلى في الزهادة في مساعي الكشف عن قوانين الطبيعة وقوانين الاجماع، وهو ما يدل عليه الإهمال البين للبحث العلمي الذي هو المحضن للكشف عن القوانين السببية للطبيعة وللحياة الاجتماعية. وهذا الضعف في الحس السببي أدى إلى ميل الشق الأكبر من المسلمين إلى التفسير الظاهري السطحي لفهم الطبيعة والحياة، فلا يدركون الأسباب الحقيقة التي تحرك الطبيعة والحياة. فلا تكون لهم إذن قدرة على توجيهها نحو ما يريدون.

ج- خلل في الشمولية نظرا وعملا

إذا نظر الإنسان إلى الأمور نظرة شمولية، فإنه سيرى الأبعاد في كل الجهات، وسيرتب العناصر الجزئية وفق مبادئ كلية، فيشمل نظره أكثر ما يمكن من المعطيات التي يستبين من خلالها الحقيقة، فيضمن إصابتها بأكبر قدر ممكن، ويبنى عمله على تقدير لأوسع ما يمكن من آثاره وتداعياته.

وقد كان الفكر الإسلامي على عهد الازدهار متكونا بالتربية القرآنية تكونا شموليا، حيث كان يوسع من مادة نظره لتشمل كل شيء ممكن في عالم الشهادة وعالم الغيب، دون أن يكون أي من ذلك محجورا عليه في سبيل البحث عن الحقيقة، ويشهد ما دونه العلماء المسلمون من علوم غطت كل مجال من الكون والحياة بشمولية هذا الفكر. وهذا ما نراه واضحا في القواعد المنهجية لمثل علم أصول الفقه. ومن ذلك أيضا الالتزام بمنهج عام قامت عليه كليات تندرج تحتها الفروع والجزئيات، واعتبار المآلات التي تقدر علي أساسها المصالح وتبنى الأحكام، وكذلك جعل المقاصد الكلية العامة ميزانا شموليا يحكم الأفهام والتصرفات جميعا. وكانت هذه الشمولية في الفكر الإسلامي عاملا أساسيا من عوامل الثراء في الآراء والسداد فيها مما كان محفزا أصليا للتحضر والازدهار.

لكن كل ذلك تأثر مع الوقت، ضمن الانحدار العام للفكر الإسلامي، حتى آلت الأمور إلى ما نراه اليوم في مظاهر مختلفة تلتقي كلها عند صفة من جزئية النظر والتقدير والعمل، تنتفي فيها إلى حد كبير الرابطة الجامعة التي تترتب الجزئيات والفروع في نطاقها، بما يفضى إلى فهمها والعلم بحسبها في نطاق الكليات، وكذلك

تنحسر فيها إلى حد كبير المساحة التي تتخذ منطلقا للبحث عن الحقيقة. ولعل من أهم الآثار السلبية في هذا المجال ما نراه اليوم من غلبة ضيق ومحدودية المادة المعرفية المنوط بها الوصول إلى الحقائق، مما ينتهي في كثير من الأحيان إلى خطأ في التقدير أو ضعف فيه. ويندرج في هذا السياق الفكر السائد في بعض الحركات الإسلامية، التي تقتصر على الآراء والأفكار التراثية التي تسير الحياة الفردية والاجتماعية، واعتبار أن الحقيقة لا تستبين إلا من خلالها دون غيرها من المعطيات، فلا يستجيب مشروعهم لتطوير الحياة الإسلامية لمقتضيات تلك الحياة وملابساتها، ولا يستفيد من الكسب المعرفي الإنساني المستجد في الحياة السياسية، أو تنظيم الوضع الاقتصادي والاجتماعي، أو حتى في التصرفات الفردية الخاصة.

وشِق آخر من المسلمين يبحثون عن الحقيقة لتطوير حياة المسلمين، من خلال الاقتصار على ما هو سائد من نظم في العالم المتطور ماديا، دون توسيع مساحة البحث لتشمل التجربة التاريخية للتحضر الإسلامي، فيظنون أن ما يستخلصونه كاف لإنهاض الحياة الإسلامية، ويحسبون أنها هي الحقيقة، ولكنها لا تحمل من عناصر الحق ما يؤهلها لإنهاض الأمة، بسبب نظرتها الجزئية القاصرة.

وقد يحصر البعض المجال الزمني الذي يتحرك فيه الفكر في مجال ضيق، كأن يحصر بناء الحكم على الماضي وحده، أو الحاضر وحده، أو المستقبل وحده، فتكون تلك التجزئة الزمنة عامل ضعف وخطأ في بناء الأحكام.

وبالإضافة إلى التجزئة الزمنية في التقدير، فإن الفكر الإسلامي في واقعه الراهن ينطوي على تجزئة أخرى في النظر والبحث في القضايا والمشاكل، بحيث يفصلها عن بعضها، دون النظر إليها في نسق متكامل يحكمه إطار يشمل القضايا جميعا، حتى لا تتناقض النتائج، بل تتكامل ويؤازر بعضها بعضا. ويندرج تحت هذا السياق ما ينتهي إليه بعض الحركات الإسلامية من تقرير لوجود الدعوة إلى الإسلام، ووجوب المواجهة في سبيل ذلك، والمجاهدة من أجله، حتى يصبح هما عمليا يدفعه للتحرك بمعزل عن الظروف الواقعية التي سيكون فيها ذلك التحرك، وما تحمله من عوائق وصعوبات، وقوى مضادة، فإذا بالحق ينهزم والطاقات تهدر.

*****

المقدمة الخامسة

المجتمع المسلم

الفصل الأول – طبيعة المجتمع المسلم

ماذا نعني بالمجتمع المسلم

المجتمع الإسلامي: هو ذلك المجتمع الرباني، الإنساني، الأخلاقي، المتوازن. وهو بهذا يتميز عن سائر المجتمعات، بمكوناته وخصائصه.

والمسلمون مطالبون بإقامة هذا المجتمع، حتى يمكنوا فيه لدينهم، ويجسدوا فيه شخصيتهم, ويحيَوا في ظله حياة إسلامية متكاملة: توجهها العقيدة الإسلامية، وتزكيها العبادات الإسلامية، وتقودها المفاهيم الإسلامية، وتحركها المشاعر الإسلامية، وتضبطها الأخلاق الإسلامية، وتجملها الآداب الإسلامية، وتهيمن عليها القيم الإسلامية، وتحكمها التشريعات الإسلامية، وتوجه اقتصادها، وفنونها، وسياستها: التعاليم الإسلامية[١].

تفرد المجتمع المسلم

العلة الرئيسية في تفرد المجتمع الإسلامي بنظامه الخاص، هي أنه مجتمع من صنع شريعة خاصة، جاءت من لدن إله، وهذه الشريعة الكاملة هي التي أوجدت هذه المجتمع، وأقامته على أسسه التي أرادها الله ﷻ لعباده، وفي ظلها نمت الجماعة الإسلامية، ووجدت ارتباطات العمل والإنتاج والحكم، وقواعد الآداب الفردية والاجتماعية، ومبادئ السلوك، وقوانين التعامل، وسائر مقومات المجتمع الخاصة، التي تحدد نوعه وترسم له طريق النمو والتطور.

فالشريعة الإسلامية وحدها هي التي صنعت المجتمع الإسلامي، وهي التي حددت له سماته ومقوماته، وهي التي وجهته وطورته، ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة – كما هو الشأن في التشريعات الأرضية – إنما كانت منهاجا إلهيا لتطوير البشرية كلها وصياغتها صياغة معينة ودفعها إلى أوضاع يتم بها تحقيق المجتمع الإسلامي المنشود.

وهذه السمات ذات أثر حاسم في تحديد طبيعة المجتمع الإسلامي، وتمييزه عن جميع المجتمعات التي نشأت نشوءا ذاتيا، وأنشأت قوانينها وفق التغيرات المحدودة التي تنال حياتها يوما بعد يوم.

ومهمة التشريع في المجتمع الإسلامي كانت دائما محكومة بأصل ثابت هو الشريعة الإسلامية، ومع أن الفقه الإسلامي[٢] كان تلبية مستمرة لبروز الحاجات في المجتمع وتجدد الارتباطات، إلا أن نموه لم يكن طليقا، لأنه

---

(١) - القرضاوي: يوسف، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ط: مكتبة وهبة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م المقدمة، ص: ٥.

(٢) - الشريعة الإسلامية ثابتة لا تتغير، وهي من صنع الله ﷻ، ومصدرها القرآن والسنة. أما الفقه الإسلامي فمتغير، فهو الفهم البشري والتفسير والتطبيق للشريعة، والذي قد يختلف باختلاف الظروف، وتلبية للحاجات، وتمشيا مع الأوضاع المختلفة، بما يتوافق مع الشريعة. قطب: سيد، نحو مجتمع إسلامي، ط: دار الشروق ١٩٩٣م، ص: ٤٧.

كان دائما مشدودا إلى ذلك الأصل الثابت، محافظا على المبادئ الأساسية، والسمات الأولية التي أراد الله ﷻ لها الدوام في المجتمع الإسلامي[1].

ورغم ثبات الشريعة الإسلامية، إلا أنها هي التي كفلت إنشاء مجتمع قابل للنمو والتجدد، قادر على تحقيق مطالب البشرية المتجددة، لعدة خصائص لها:

١- أن هذه الشريعة من صنع إله يعرف طبيعة خلقه، ومن ثم جاءت وفقا للمقومات البشرية المشتركة العامة، أي وفقا لأصول الفطرة البشرية الثابتة.

٢- أنها جاءت في صورة مبادئ كلية عامة، تقبل التفريع والتطبيق في الجزئيات المتجددة والأحوال المتغيرة، دون أن تفارق أصولها الأولى.

٣- هذه المبادئ الكلية العامة جاءت شاملة لكل أصول الحياة وجوانبها جميعا، ولم تترك جانبا واحدا دون تنظيم.

٤- إن المبادئ الاجتماعية التي قامت على أساسها جاءت تقدمية، فاندفعت بالبشرية إلى الأمام، ومازال قادرة عل إعادة هذا الدور[2].

ولقد بدأ الإسلام بالبشرية من حيث هي، ليربطها بعراه ربطا واقعيا، ثم ليقودها بعد ذلك في مدارج الكمال. فالإسلام يترك الأوضاع من ناحية المبدأ – مراعاة لواقع البشرية في أي زمان، ثم يعالج الأمر من ناحية الموضوع على طريقته[3].

ومن ثم كانت جميع الأحكام والقوانين التي تنطبق على نشأة النظم الاجتماعية الغربية وتطورها غير منطبقة على المجتمع الإسلامي؛ لاختلاف نشأته عن نشأة تلك النظم، ولاختلاف القاعدة التي ترتكن عليها نشأته، ولاختلاف القانون الذي يحكم نموه وتطوره[4].

فالمجتمع الإسلامي لم يمر بمرحلة عهد الرق الذي كان سائدا في عهد الإمبراطورية الرومانية، بل إن الإسلام قد جاء فوجد جذور الرق ما تزال ثابتة وعميقة، فأخذ بيد البشرية التي أخذت تقترب شيئا فشيئا من مبادئه وأهدافه، وأخذ يجفف موارد الرق، حتى لم يعد للرق وجود في الوطن الإسلامي.

كما لم يمر المجتمع الإسلامي بعهد الإقطاع الذي حل محل عهد الرق في أوروبا، ورغم وجود ملكيات كبيرة أحيانا في المجتمع الإسلامي، نتيجة للانحراف عن سياسة المال، وسياسة الحكم، كما رسمها الإسلام، إلا إنه

---

(١) – نحو مجتمع إسلامي ، ص: ٦٣ وما بعدها.
(٢) – المصدر السابق، ص: ٦٨.
(٣) - المصدر السابق، ص: ٧٤.
(٤) - المصدر السابق، ص: ٦٤.

لم يقع في المجتمع الإسلامي أن كانت علاقات الإنتاج، ولا حقوق الملاك، على النحو الذي سار عليه نظام الإقطاع في أوروبا.

كما لم يعرف المجتمع الإسلامي النظام الرأسمالي، الذي تحولت إليه المجتمعات الأوروبية بعد نظام الإقطاع، بسبب ظهور قوى إنتاجية جديدة، وعوامل اقتصادية مختلفة. ورغم وجود المشابهة بين بعض النظم الإسلامية وبعض خصائص النظام الرأسمالي، كحق الملكية الفردية، وحق الاستثمار الفردي، وحق الإرث، إلا أن هذه الأحوال قد تضمنتها الشريعة الإسلامية قبل مولد النظام الرأسمالي بثمانية قرون، وهذه المشابهة سطحية في حقيقتها، لأن النظام الاجتماعي الإسلامي نظام متكامل، غير مقيد، ولا مقلد لأي نظام لاحق. كما أن الربا والاحتكار قاعدتان أساسيتان من قواعد النظام الرأسمالي، وهما محرمان تحريما باتا في النظام الإسلامي.

وكذلك الحال بالنسبة للنظام الاشتراكي، والاشتراكية وإن كانت تلتقي مع الإسلام في نقط كثيرة في الجانب الاقتصادي، كمحاولة ضمان حد أدنى لائق للأفراد، وتوفير العمل للمواطنين، ومسألة التقريب بين مختلف طوائف المجتمع، ومنع الإسراف، إلا أنه من ناحية الشكل فإن أسبقية النظام الإسلامي تمنع من إعطائه وصفا لاحقا، ومن ناحية الموضوع، فإن الإسلام نظام متكامل تجيء فيه هذه الاتجاهات مرتكنة إلى أصول ثابتة، ومعتمدة على فكرة كلية متناسقة الأجزاء متصلة بالعقيدة في الله ﷻ، عكس الاشتراكية المادية[١].

قوة المجتمع المسلم رغم الهزائم المتكررة

الهبوط الذي حدث في المستوى الإسلامي، في العهد الأموي، عن الذروة التي كانت على عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، هو ذاته أحد أسباب الوهم الذي يتجسد في أذهان بعض الناس من أن الإسلام قد انتهي بنهاية عهد الخلفاء الراشدين. ولنا أن نقرر أن تلك الذروة بكل روعتها، لم يكن يفترض أن تدوم في الأرض كثيرا بعد النبي ﷺ، لأن وجوده بشخصه الكريم ﷺ، كان عاملا مهما فيها، كما إن أثر النشأة الجديدة كان عاملا مهما كذلك. أما الجيل نفسه فقد ارتفع إلى تلك الذروة تطوعا لا تكليفا، فالله ﷻ لم يفرض على البشر أن يرتفعوا إلى تلك القمم الشاهقة فرضا، وإن كان قد حبب إليهم ذلك بكل تأكيد، وإنما ارتفع ذلك الجيل إلى تلك الذروة بأن أخذ المندوبات، والمستحبات، كأنها فروض، وألزم نفسه بها تطوعا لا تكليفا.

فالإسلام لم ينته بسبب بني أمية، بل إن التاريخ يسجل لهم حركة فتوحات واسعة، كانت أكبر هداية للناس في التاريخ، وأكبر نشر للحضارة الحقيقية الشامخة، والنور، وتحرير المستعبدين، وردهم إلى إنسانيتهم الضائعة[٢].

---

(١) ـ المصدر السابق، ص: ٧١ ــ ٩١.

(٢) ـ كيف نكتب التاريخ، ص: ١٣٤:١٣٨.

ولم تكن الهزائم المتكررة التي اصابت المسلمين في الشرق وفي الغرب، وقضت على الدولة الإسلامية في الأندلس، وعلى الخلافة العباسية في بغداد، لم تكن نهاية الوجود الإسلامي في الأرض، بل كانت عثرات في الطريق تبعتها انطلاقة جديدة تمثلت في الدولة العثمانية، وما قامت به من جهود جبارة في التحرك بهذا الدين في فجاج الأرض، ونشره في أوروبا خاصة.

وتلك من عجائب هذا الدين، فلو أن نظاما في الأرض أصابه ما أصاب الدولة الإسلامية من عثرات وضربات، لانتهى من الوجود، كما انتهت كل امبراطوريات الماضي في ظروف أقل شدة، وكما انتهت في الحديث الإمبراطوريات البريطانية، والفرنسية، والروسية، لأسباب أقل حدة.

إنما يكمن السر في أن الإسلام ليس مجرد نظام سياسي تسانده قوة مادية، إنا هو قبل كل شيء عقيدة ينبثق منها نظام. والأنظمة التي لا تستند إلى الدين – أو تعاديه – هشة مهما بدا من صلابتها الظاهرية. أما أصحاب العقيدة، فهناك دائما ما يشدهم ويسندهم حين تأخذهم الدوامات، ويظلون يقاومون، فلا تهلكهم الدوامة، ولا تبتلعهم في طياتها. فضلا عن كون العقيدة أمرا يلزم به كل فرد التزاما ذاتيا، لا علاقة له بالدولة، ولا بالسلطة، لأنه ميثاق بينه وبين الله ﷻ. ومن ثم يمكن أن تفسد السلطة الحاكمة – فترة غير قصيرة – دون أن يفسد الناس، ويظل المجتمع متماسكا، بما بينه وبين الله ﷻ من مواثيق العقيدة، وإن تحللت الدولة وتراخت قبضتها على الناس. إلا إنه يمكن أن تطول فترة انحراف السلطان فتفقد تلك النفوس وازعها العقيدي، بعد خفوت وازع السلطان، فتنحرف فتنفذ في الناس سنة الله ﷻ [1].

وقد جاء الصليبيون والتتار عقابا ربانيا للأمة على تفريطها في أمر دينها وانشغالها، بغير ما أمر الله ﷻ أن تشغل به من اليقظة الدائمة للأعداء، وإعداد العدة لإعلاء كلمة الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحين جاءت الحروب الصليبية كانت في غفلة من المسلمين بسبب حالهم التي كانوا عليها من التفكك، والنزاع، والترهل، والمشغلة بمتاع الحياة الدنيا، أو الزهد السلبي الذي لا يغير الواقع المنحرف، بل يُمكِّن له في الحقيقة، وبسبب القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أمرهم الله ﷻ، وكان أمرا طبيعيا أن تحل الهزيمة بالمسلمين.

لكن رغم ذلك لم يكن الإسلام قد انتهي برغم الانحرافات كلها، إنما كان المسلمون في غفوة ثقيلة، لكن الرصيد الحي الباقي في النفوس كان قادرا على العمل والحياة من جديد، وكانت عودتهم إلى طريق النصر الذي انحرفوا عنه، فكان صلاح الدين قائدا للأمة الإسلامية، قبل أن يكون قائدا عسكريا.

ثم جاء التتار يخربون كل شيء في طريقهم، حتى وصلوا إلى بغداد وعاثوا فيها من الفساد ما وصفته كتب التاريخ، ولم ينج منهم في بغداد إلا اليهود الذين عملوا لهم كأدلاء على من اختفى من علماء المسلمين أو

---

[1] ـ المصدر السابق، ص: ١٥١ وما بعدها.

تُجَّارهم ليذهبوا إليهم في مخابئهم ليذبحوهم، وكان هذا للمسلمين هو جزاء التسامح المطلق الذي عاملوا به أولئك اليهود، والتمكين الذي مكنوه لهم في دولتهم. حتى جاء القائد قطز. وقام بمثل ما قام به صلاح الدين: عرف الحقيقة، وأعلنها للناس: (لقد انهزم المسلمون أمام التتار لتهاونهم في أمر دينهم)، فليتمسكوا بهذا الدين، ووعد الله ﷻ صادق: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ**﴾[1].

*****

[1] - سورة النور، الآية رقم: ٥٥

الفصل الثاني – ملامح المجتمع المسلم

الفصل الثاني – ملامح المجتمع المسلم [1]

عُنى الإسلام بالمجتمع عنايته بالفرد، فكل منهما يتأثر بالآخر ويؤثر فيه، فالمجتمع ما هو إلا مجموعة من الأفراد ربطت بينهم روابط معينة. وصلاح الفرد لازم لصلاح المجتمع، فالفرد أشبه باللبنة في البنيان، ولا صلاح للبنيان إذا كانت لبناته ضعيفة.

كما لا صلاح للفرد إلا في مجتمع يساعده على النمو السليم، والتكيُّف الصحيح، والسلوك القويم. فالمجتمع هو التربة التي تنبت فيها بذرة الفرد، وتنمو وتترعرع في مناخها، والانتفاع بسمائها وهوائها وشمسها. وما كانت الهجرة النبوية إلى المدينة، إلا سعيا إلى مجتمع مستقل تتجسد فيه عقائد الإسلام وقيمه وشعائره[2]. وفيما يلي ملامح هذا المجتمع:

أولا– مجتمع العقيدة والإيمان

أول أساس يقوم عليه المجتمع المسلم، ويقوم به، هو عقيدة الإسلام، المتمثلة في حديث جبريل عليه السلام، عندما جاء إلى النبي ﷺ ليعلم المسلمين أمر دينهم: **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ)**[3].

وعنوان هذه العقيدة وشعارها: **(لا إله إلا الله، محمد رسول الله)**، وهذه العقيدة تمثل وجهة نظر المسلمين إلى الخلق والخالق، وإلى الدنيا والآخرة، وإلى عالَم الغيب والشهادة.

فالله ﷻ هو الخالق لكل ما في هذا الكون، لا شريك له في ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله. وهو وحده القديم الأزلي، وهو وحده الباقي الأبدي، لا ند له، ولا ضد له، ولا ولد له، ولا والد، ولا شبيه، ولا نظير. وهو الذي يدبر أمر هذا الكون كله بما فيه، وكل من في السماوات والأرض عبيد لله ﷻ وملك له. وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة المطلقة، وبعبارة أخرى: يستحق غاية الخضوع، وغاية الحب. فلا خضوع لغير سلطانه، ولا حكم غير حكمه، ولا أمر غير أمره، ولا ولاء إلا له، ولا حب إلا له وفيه.

---

[1] - القرضاوي: يوسف، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ط: مكتبة وهبة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م. (مختصرا)
[2] - المصدر السابق، المقدمة، ص: ٣.
[3] - صحيح مسلم، حديث رقم: ١٠.

معنى (لا إله إلا الله):

أ- ألا يُبتغي غير الله ﷻ ربا: ﴿ **قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ** ﴾[1]، أي رفض كل الأرباب إلا الله ﷻ ، وإعلان الثورة على المتألهين في الأرض، المستكبرين بغير الحق، الذين أرادوا أن يتخذوا عباد الله ﷻ عبيدا لهم.

ب- ألا يُتخذ غير الله ﷻ وليا: ﴿ **قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ** ﴾[2]، أي رفض الولاء لغير الله ﷻ وحزبه، فليس من التوحيد أن يزعم زاعم أن ربه هو الله ﷻ، ثم يتوجه بولائه وحبه ونصرته لغير الله ﷻ، وربما لأعداء الله ﷻ.

ج- ألا يُبتغي غير الله ﷻ حكما: ﴿ **أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا** ﴾[3]، أي رفض الخضوع لكل حُكم غير حُكم الله ﷻ ، وكل أمر غير أمر الله ﷻ ، وكل نظام غير نظام الله ﷻ ، وكل قانون غير شرع الله ﷻ ، وكل وضع أو عرف، أو تقليد أو منهج، أو فكرة أو قيمة لم يأذن بها الله ﷻ.

معنى (محمد رسول الله):

هذه الكلمة تتمة لكلمة: **(لا إله إلا الله)**، ومعناها ألا يُعبد إلا الله ﷻ إلا بما شرعه، وأوحاه على لسان رسوله ﷺ. فطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ﷻ، واتباعه من أمارات محبة الله ﷻ، والرضا بحكمه وشرعه جزءا لا يتجزأ من الإيمان بالله ﷻ.

معنى قيام المجتمع على عقيدة الإسلام

معنى ذلك أن المجتمع يجسد العقيدة، في كل تشريعاته وقوانينه، وفي تربيته وتعليمه، وفي ثقافته وإعلامه، وفي سائر أنظمته ومؤسساته وسياساته، فالمجتمع المسلم:

١- يحترم هذه العقيدة ويقدسها، ويعمل على تثبيتها في العقول والقلوب، ويربى ناشئة المسلمين عليها، ويرد عنها أباطيل المفترين، وشبهات المضلين، ويجلي فضائلها وآثارها في حياة الفرد والمجتمع، عن طريق الأجهزة التوجيهية، التي تؤثر في سير المجتمع، من المساجد، والمدارس، والصحافة، والإذاعة، والتليفزيون، والمسرح، والسينما، والأدب بكل فنونه، من شعر ونثر وقصص وتمثيل.

---
[1] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١٦٤
[2] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١٤
[3] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١١٤

٢- ملتزم بعقيدة الإسلام، فهو ليس مجتمعا ماديا، ولا علمانيا (لا دينيا)، ولا وثنيا، ولا يهوديا، ولا نصرانيا، ولا ليبراليا، ولا رأسماليا، ولا اشتراكيا ماركسيا.

٣- لا يجعل العقيدة على هامش حياة المجتمع، ولا يجعل عقيدة أخرى تزاحمها، تُبَدِّل نظرة الناس إلى الله ﷻ والإنسان، والكون والحياة:

- فلا يحل اسم (الطبيعة) محل اسم (الله) ﷻ.
- والاعتقاد فيه أن الله ﷻ خلق الكون، ولم يترك إشرافه عليه، ولا إحاطته به، ولا تدبيره له، على عكس الفلسفات الأخرى.

٤- لا ينكمش فيه مفهوم (الإيمان بالله ﷻ والدار الآخرة) ليحل محله الإيمان بالوجودية، أو القومية، أو الوطنية، أو أي أوثان عبدها الناس من دون الله ﷻ أو مع الله ﷻ ، وإن لم يسموها آلهة.

٥- لا يتوارى فيه اسم (محمد) ﷺ، الموجه المعصوم، والأسوة المطاع، لتبرز أسماء: ماركس، ولينين، وماو، وغيرهم.

٦- لا يُهجر فيه كتاب الله ﷻ، بوصفه مصدر الهداية والتشريع والحكم، لتظهر كتب أخرى تُضفى عليها القداسة، ويؤخذ منها مناهج الفكر والتشريع والسلوك، أو تستمد منها القيم والموازين والمُثُل.

٧- لا يُسَب فيه الله ﷻ، وكتبه ورسله، والناس سكوت على هذا الكفر البواح، لا يستطيعون أن يؤدبوا مرتدا كافرا، أو يزجروا زنديقا فاجرا.

٨- لا تأخذ العقيدة فيه حيزا ضئيلا محدودا من مناهج التربية والتعليم، والثقافة والفكر، والإعلام والإرشاد، والتوجيه والتأثير. بل يبني بنيانه المتين على أساس العقيدة بكل أركانه وخصائصها.

٩- يواجه الردة الحديثة، من أي مصدر جاءت، وبأي صورة ظهرت، ولا يدع لها الفرصة حتى تمتد وتنتشر، كما تنتشر النار في الهشيم، وأخطر الردة تلك التي تسبب فيها الغزو التنصيري، والغزو الشيوعي، والغزو العلماني.

ولعل التشديد في عقوبة الردة يبرره أن العقيدة هي هوية المجتمع المسلم، وهي محور حياته، وروح وجوده، فلا يُسمح لأحد أن ينال من هذا الأساس، أو يمس هذه الهوية. وخاصة أن الردة إلى جانب أنها موقف عقلي، فهي أيضا تغيير للولاء، وتبديل للهوية، وتحويل للانتماء. والردة تجعل الدين ألعوبة على طريقة بعض اليهود الذين كانوا يقولون: ﴿ **آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ** ﴾[١].

---

(١) ـ سورة آل عمران، الآية رقم: ٧٢

ثانيا- مجتمع الشعائر والعبادات

المقوم الثاني للمجتمع المسلم – بعد العقيدة هو الشعائر التي فرضها الله ﷻ على المسلمين، وكلفهم القيام بها، ليتقربوا بها إليه، ويبتغوا بها رضوانه، ويربحوا مثوبته، ويعبروا بها عن حقيقة إيمانهم به، ويقينهم بلقائه وحسابه. وأظهر هذه الشعائر هي الفرائض الأربعة التي عُرفت بأنها – مع الشهادتين – أركان الإسلام ومبانيه العظام، والتي خصها الفقهاء باسم (العبادات). وهي التي تم التنويه بأمرها في الحديث المشهور: **(بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا)**[1].

وأضاف الشيخ يوسف القرضاوي – في كتابه الرائع (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده) – فريضتين أساسيتين، أكد الإسلام أمرهما، وشدد الحث عليهما، ونوه بمنزلتها، وهما جديرتان أن تُعدا من دعائم الإسلام، وشعائره الكبرى، وهما: فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفريضة الجهاد في سبيل الله ﷻ. فتكون الفرائض الأساسية والشعائر الكبرى العملية ستا، وهي:

أ- إقامة الصلاة.

ب- إيتاء الزكاة.

ج- صوم رمضان.

ء- حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

هـ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

و- الجهاد في سبيل الله ﷻ.

وقد سُميت هذه الفرائض شعائر، لأنها علامات فارقة وظاهرة، تتميز بها حياة الفرد المسلم من غير المسلم، كما تتميز بها حياة المجتمع المسلم من المجتمع غير المسلم. كما إن إقامة هذه الشعائر وتعظيمها دليل على قوة العقيدة في القلوب، واستقرارها في حنايا الصدور، قال ﷻ: ﴿ **ذَلِكَ ومَن يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِن تَقْوى القُلُوبِ** ﴾[2]. ونذكر بعض هذه الشعائر فيما يلي:

معنى قيام المجتمع المسلم بإقامة الشعائر:

أ- **الصلاة:** المجتمع المسلم هو الذي يكون وضع الصلاة فيه كما يلي:

---

[1] - متفق عليه: رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمر.
[2] - سورة الحج، الآية رقم: ٣٢

١- لا يدع المجتمع المسلم الصلاة لضمير المسلم، إن شاء أداها، وإن شاء تركها، بدعوى أن الناس أحرار فيما يفعلون. بل الإجماع على أن من واجب الحاكم المسلم أن يتدخل بالزجر والتأديب لكل مُصِّر على ترك الصلاة.

٢- لا يسوي بين المصلين وغير المصلين، في التقديم للقيادة والتوجيه.

٣- تنشأ في دواوينه، ومؤسساته، وشركاته، ومدارسه: مساجد تقام فيها الصلاة، ويرتفع الأذان. ووقت الصلاة فيه مقدس، ومن خالف ذلك من الموظفين والعاملين، عُوقب بما يناسب المقام، ولُفت نظره إلى هذا الخطأ الجسيم.

٤- لا تقام فيه الندوات، والاحتفالات، والاجتماعات، والمحاضرات، ويدخل وقت الصلاة وينتهي، ولا أذان يُسمع، ولا صلاة تُقام.

٥- تحتل فيه الصلاة مكانا يليق بأهميتها في دين الله ﷻ، وفي حياة المسلمين، في البرامج التعليمية، والثقافية، والإعلامية.

٦- قبل ذلك كله: المجتمع المسلم هو ذلك المجتمع الذي يأخذ أبناءه وبناته بتعليم الصلاة، في المدارس والبيوت، منذ نعومة الأظافر، فيؤمرون بها لسبع، ويُضربون عليها لعشر.

ب- الزكاة: المجتمع المسلم هو ذلك المجتمع الذي تؤخذ الزكاة فيه بواسطة الإمام والسلطات الشرعية، أي بواسطة الدولة المسلمة، عن طريق الجهاز الإداري الذي نص عليه القرآن الكريم صراحة، وسماه: .(العاملين عليها)، وجعل لهم سهما من مصارف الزكاة، دلالة على استقلال ميزانيتها عن الأبواب الأخرى في الميزانية، وحتى لا تذوب حصيلتها في مصاريف الدولة المتنوعة، ولا يدرك المستحقون منها شيئا يذكر.

ولكونها فريضة تؤخذ أخذا، وليست تبرعا اختياريا متروكا لضمائر الأشخاص؛ أعلن الخليفة الأول لرسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ، الحرب على من امتنع عن أداء الزكاة، وجيش الجيوش، وبعث الكتائب، ولم يهادنهم في شيء مما أوجب الله ﷻ، ولم يفرق بين المرتدين، الذين اتبعوا أدعياء النبوة، وبين الممتنعين عن إيتاء الزكاة، وقاتل أولئك وهؤلاء.

ج- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذه الفريضة تعتبر الفريضة أو الشعيرة الخامسة من فرائض الإسلام وشعائره، وهي سياج الشعائر كلها وحارستها. والمتتبع للقرآن والسنة يجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الخصيصة الأولى التي تميزت بها هذه الأمة المسلمة، وفاقت بها أمم الأرض، قال ﷻ: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ**

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1]، قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الذكر على الإيمان مع أنه هو الأساس. وأكد على إخراج الأمة، لأنها أمة رسالة، همها أن تشيع المعروف وتثبته، وأن تزيل المنكر وتمنعه.

معنى قيام المجتمع المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قوله ﷻ: ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون** ﴾[2]، يحمل معنيين: إما إن تكون (مِنْ) في قوله ﷻ: ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ** ﴾ للتجريد وليست للتبعيض، فيكون المعنى: أن الأمة كلها داعية إلى الخير آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، كُل بحسب مكانته وطاقته، حتى تكون من أهل الفلاح.

أو تكون للتبعيض، كما هو شائع، وهي هنا تشير إلى الفرض الكفائي، الذي تقوم به طائفة متخصصة قادرة متمكنة، مُعَدة الإعداد الملائم، لتقوم بواجب الدعوة والأمر والنهي. والمخاطب هنا جماعة المسلمين كافة، وأولو الأمر خاصة، فعليهم تهيئة الأسباب لوجودها، وإعانتها ماديا وأدبيا لتقوم برسالتها. فإذا لم توجد هذه الطائفة في الأمة، عم الإثم الجميع، ككل فرض كفائي يُترك ويُهمل.

والضرر الذي يعود على الأمة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضرر بالغ الأثر:

١- يموت الضمير الاجتماعي للأمة، أو يمرض على الأقل، بعد طول الإلف للمنكر والسكوت عليه، فيفقد المجتمع حسه الديني والأخلاقي، ويفقد العقل البصير الذي يميز الخبيث من الطيب، والحلال من الحرام، والرشد من الغي. وعند ذلك تختل موازين المجتمع، وتضطرب مقاييسه، فيرى السنة بدعة، والبدعة سنة، أو يرى ما نحسه ونلمسه في عصرنا عند كثير من أبناء المسلمين، من اعتبار التدين رجعية، والاستقامة تزمتا، والاحتشام جمودا، والفجور فنا، والإلحاد تحررا، والانحلال تقدما، والانتفاع بتراث السلف تخلفا في التفكير، إلى آخر ما نعلم وما لا نعلم. وبعبارة موجزة: (يصبح المعروف منكرا، والمنكر معروفا).

٢- يخفت صوت الحق، وتتعالى صيحات الباطل، شأن مجتمع المنافين، فإذا ارتفع للحق صوت يدعو إلى الله ﷻ، ويأمر بالقسط، وينهى عن الفساد والظلم، كان جزاؤه الموت جهارا على حبل المشنقة في وضح النهار، أو الاغتيال خفية – بالرصاص أو بسياط التعذيب – في جنح الليل. كما فعل بنو إسرائيل بأنبيائهم حين قتلوهم بغير حق، فمنهم من ذبحوه بالسكين، ومن من نشروه بالمنشار، ومنهم من تآمروا على قتله وصلبه، فرفعه الله ﷻ إليه.

---

[1] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١١٠

[2] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٠٤

وإن كان بعض الناس في عصرنا يتحدثون عن (الرأي العام) وأثره في الرقابة على رعاية مبادئ الأمة وأخلاقها وآدابها ومصالحها، وتقويم ما يعوج من شؤون حياتها، فإن فريضة الأمر والنهي كفيلة بأن تنشئ الرأي العام الواعي البصير، المستند إلى أقوم المعايير الأخلاقية والأدبية، وأعدلها وأخلدها وأثبتها، لأنها معايير مستمدة من الحق الأزلي الأبدي، من الله ﷻ.

ثالثا- مجتمع الأفكار والمفاهيم والتصورات الإسلامية

تسود المجتمع المسلم أفكار ومفاهيم تحدد وجهة نظره إلى الأشياء والأحداث، والأشخاص والمواقف، والقيم والعلاقات. حيث يحكم على كل ذلك من زاوية الإسلام ووجهة نظر المصادر الإسلامية النقية، حتى تستقيم نظرة أبناء المجتمع إلى الأمور والمواقف، ويتحد تصورهم العام للأشياء والقيم، ومن ذلك ما يلي:

أ- تصحيح فهم أن الإيمان ليس مجرد إعلان وتظاهر، بل هو ما وقر في القلب وصدقه العمل.

ب- تصحيح مفهوم أن البر والتقوى هو الاهتمام بشكليات خاصة، بل أن البر من آمن بالله ﷻ واليوم الآخر....

ج- تصحيح فهم أن طريق الإيمان إلى الجنة مفروش بالأزهار والرياحين، لا فتنة فيه ولا اضطهاد، ولا عذاب.

ء- تصحيح مفهوم أن التغيير الروحي والمعنوي هو الأصل والأساس في أي تغيير وليس مجرد التغيير المادي، في قوله ﷻ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾[1].

فالمجتمع المسلم هو المجتمع الذي تسود فيه الأفكار والمفاهيم والتصورات الإسلامية:

١- يشيع فيه مفهوم الإسلام عن الحياة، وليس كما هو عند الغربين أو غيرهم.

٢- يفهم التقوى على أنه لا بد أن وراءها علم نافع، وقلب خاشع، وعمل صالح، وليست مجرد ثياب ترقع، ولحية تعفى، ومسبحة تدار في اليد.

٣- يفهم التدين على أنه ما ينتج من أثر الشعائر، فلا يؤدي الشعائر، ثم يتعامل بالربا، أو يترك زوجته مكشوفة الذراعين والساقين، أو يدع أولاده في مدارس التبشير والتنصير، أو فريسة للمربيات الكافرات أو الفاسقات، أو يرى المنكر في كل مكان ولا يحرك ساكنا.

٤- يشيع فيه المفهوم الصحيح للعدل للاجتماعي، لا أنه نهب القناطير المقنطرة، ثم التصدق بدريهمات على بعض الفقراء والمحتاجين. أو نهب الأموال المملوكة ملكية مشروعة بزعم إعطائها للفقراء.

---

[1] - سورة الرعد، الآية رقم: ١١

٥- لا ينظر إلى المرأة على أنها أحبولة الشيطان، وأخت إبليس، وأنها التي أخرجت آدم من الجنة. ولا يشيع فيه المفهوم الخاطئ عن مساواة الرجل بالمرأة.

المفاهيم الخطر على المجتمع المسلم

١- النوع الأول

المفاهيم التي دخلت على الإسلام، وعلى مجتمعاته في عصور التخلف وسوء الفهم للإسلام، مثل:

أ- التوكل يعني التواكل وعدم الأخذ بالأسباب.

ب- الزهد يعني ترك الحياة.

ج- الفقه ما نقله الأقدمون، وباب الاجتهاد قد أغلق.

ء- العقل نقيض النقل.

هـ - بركة القرآن بتعليقه للحفظ من العين أو الجان.

و- ما شاع عن الأولياء والكرامات، من اعتقادات وأفكار تناقض سنن الله ﷻ في الأنفس والآفاق.

٢- النوع الثاني

مفاهيم الغزو الفكري التي زحفت عفى مجتمعاتنا، مع زحف الاستعمار، مثل:

الإيمان بالغيب تخلف، والتمسك بالدين تزمت، والدعوة إلى تحكيم الشريعة تطرف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخل في شؤون الآخرين، واختلاط الرجل بالمرأة – بلا قيود – تحرر، والحجاب رجعية، والانتفاع بالتراث تعصب، واعتبار علماء الدين حراس التخلف، ودعاة التغريب أعلام التنوير.

رابعا- مجتمع المشاعر والعواطف الإسلامية

١- المجتمع المسلم تسوده مشاعر الولاء للإسلام وأهله وأنصاره، ومشاعر العداء لأعداء الإسلام ومحاربيه .

٢- تسوده عاطفة الإخاء الوثيق والحب العميق بين أبناء الإسلام جميعا، مهما تناءت بهم الديار، وتفرقت بهم الأوطان، واختلفت منهم الأجناس والألوان، وتفاوتت بينهم المراكز والطبقات. ولا مكان لمشاعر الكبر والتمييز بين الأجناس والألوان، ولا لمشاعر العصبية لرقعة من دار الإسلام دون رقعة، ولا لقوم من أهل الإسلام دون قوم.

٣- يأسى فيه الفرد لآلام الآخرين، ويحس بأحزانهم، ويفرح لفرحهم.

٤- لا يطغى فيه القوي على الضعيف، ولا يقسو فيه الغني على الفقير، ولا يشح فيه الواجد على المحروم.

٥- تشيع فيه المشاعر الإسلامية في كل الوسائل الإعلامية والتربوية، كالمسجد، والمدرسة، والكُتَّاب، والصحيفة، والإذاعة، والتلفاز، والسينما.

٦- تتجسد فيه مشاعر التراحم والمودة بين ذوي القربى. وتتجسد فيه مشاعر الإخاء والمحبة بين المسلمين في صورة تكافل معاشي، وتضامن عسكري، واتحاد سياسي، وتعاون اقتصادي.

٧- لا يسمح للمشاعر المضادة للمشاعر الإسلامية بالظهور والتأثير في المجتمع المسلم، بل يجتثها من جذورها حتى لا تظهر، ويطاردها إذا ظهرت بحيث تموت في مهدها.

٨- يسد النوافذ التي تهب منها ريح البغضاء والخصومة والفرقة، ويقضي على العوامل التي تدمر معاني الإخاء الإسلامي، وتهدم المشاعر الإسلامية، كالغيبة والنميمة والسخرية، وغيرها من الرذائل التي تمزق العُرى، وتقتل روح المحبة بين الناس.

٩- لا تسوده مشاعر الحقد الطبقي.

١٠- لا تتقدم فيه العصبية الوطنية، أو القومية على الأخوة الإسلامية، فلا يقول المسلم: وطني قبل ديني، ولا يقول: قوميتي قبل إسلامي.

١١- مجتمع لا يعادي المسلمين، ويوالي أعداء الإسلام، أو يسوى بين المسلمين والمشركين أو الملحدين في المعاملة، والمشاعر.

خامسا- مجتمع الأخلاق والفضائل

مهمة المجتمع المسلم بالنظر إلى الأخلاق والفضائل، ذات ثلاث شعب:

أ- التوجيه بالنشر والدعاية، ومختلف وسائل الإعلام والتثقيف، والدعوة والإرشاد.

ب- التثبيت بالتعليم الطويل المدى، والتربية العميقة الجذور، على مستوى الأسرة والمدرسة والجامعة.

ج- الحماية برقابة الرأي العام اليقظ، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينهى عن الفساد، وينفر من الانحراف، وبالتشريع الذي يمنع الفساد قبل وقوعه، ويعاقب عليه بعد وقوعه، زجرا للمنحرف، وتأديبا للمستهتر، وتطهيرا لجو الجماعة من التلوث.

فالمجتمع المسلم تكون أخلاقه كما يلي:

١- تسود فيه أخلاق المؤمنين، وتختفي فيه أخلاق الفجار.

٢- تحيا فيه أخلاق القوة، وتموت أخلاق الضعف.

٣- لا يشيع فيه خُلُق القسوة على الضعفاء، والخضوع للأقوياء.

٤- تزدهر فيه تقوى الله ﷻ ، ومراقبته، والخوف من حسابه.

٥- يسود فيه التوكل على الله ﷻ لا التواكل، والجلد لا العجز، والإيجابية لا السلبية.

٦- يكرم فيه الصالحون لا الفاسقون، ويقدم فيه أهل التقوى ويؤخر أهل الفجور.

٧- لا يُظلم فيه المحق، ولا يُحابى فيه المبطل.

٨- لا تفسد فيه الزمم، ولا تُشترى الضمائر، ولا يُقضى فيه كل أمر برشوة.

٩- يُوقَّر فيه الكبير، ويُرحم فيه الصغير، ويُعرف لكل ذي فضل فضله.

١٠- لا تتميع فيه الأخلاق، ولا يتشبه فيه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال.

١١- لا تشيع فيه الفاحشة، ولا يفقد فيه الرجال الغيرة، والنساء الحياء.

١٢- لا يتكلم الناس فيه رياء ونفاقا، وطلبا للشهرة والجاه. ويكثر فيه الأتقياء الأخفياء.

١٣- لا تسوده أخلاق المنافقين، من الكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والغدر، والفجور في الخصومة.

١٤- لا يهمل فيه الآباء الأبناء، ويعق فيه الأبناء الآباء. ولا يتجافى فيه الإخوان، ولا تنقطع فيه الأرحام. ولا يتناكر فيه الجيران. ولا تزدهر فيه سوق الغيبة والنميمة، وفساد ذات البين. ولا ينهزم فيه البذل والإيثار، أمام الشح والأنانية وحب الذات.

١٥- تحكمه فضائل ومُثل عليا، يلتزم بها، ويتقيد بحدودها، مهما يكلفه ذلك من مشقات وتضحيات، ولا تُسيره المنافع المادية، أو الأغراض السياسية، أو الاعتبارات العسكرية وحدها.

١٦- لا انفصال في هذا المجتمع بين الأخلاق وبين العلم، أو الفن، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو الحرب. وإنما الأخلاق عنصر يهيمن على كل شؤون الحياة وتصرفاتها، صغيرها وكبيرها، فرديها وجماعيها.

سادسا – مجتمع الآداب والتقاليد الإسلامية

تقاليد المجتمع المسلم وآدابه مستقاة من العقيدة وما يتبعها، ويتفرع عنها: فلهذا المجتمع آدابه وتقاليده: في المأكل والمشرب، والزينة والملبس، والنوم واليقظة، والسفر والإقامة، والزمالة والعشرة، والعمل والراحة، والصداقة والصحبة، والزواج والطلاق، والعلاقة بين الرجل والمرأة، والعلاقة بين الولد وأبيه، وفي العلاقة بين القريب وقريبه، وفي العلاقة بين الجار وجاره، وفي العلاقة بين الكبير والصغير، والغني والفقير، وبين البائع والمشتري، وفي العلاقة بين الرئيس والمرؤوس، وفي العلاقة بين الخادم والمخدوم.

آثار الآداب والتقاليد الإسلامية في المجتمع المسلم

أ- تجعل للمجتمع المسلم شخصية متميزة الملامح، واضحة التقاسيم.

ب- تنشئ بين المسلمين في كل مكان وحدة عملية واقعية، بجوار الوحدة العقدية والفكرية والشعورية.

ج- بسبب مراعاة تلك الآداب والتقاليد للفطرة، فإنها تتميز بالبساطة واليسر، وتجنب التكلف والتعقيد، والبعد عن الاختيال والإسراف.

من مظاهر الآداب والتقاليد الإسلامية

ليس بمسلم صادق ذلك الذي ينسلخ من تقاليده، وينفلت من آدابه الأصيلة، ليتقبل تقاليد دخيلة، وآدابا غريبة، عنه، فتذوب شخصيته، وتُمحى ذاتيته، ويصبح ذيلا لغيره وقد جعله الله ﷻ رأسا. ومن تلك المظاهر:

١- الأكل والشرب باليد اليمنى، وعدم التحلي بالخواتم الذهب، وستر المرأة نفسها.

٢- لا يختلط الفتيان والفتيات في المعاهد والجامعات، والمعسكرات والرحلات، ووسائل الموصلات، اختلاط تماس.

٣- يحامى الآداب الأصيلة، والتقاليد الثابتة كما يحامى عن أرضه أن تحتل، وعن حرماته أن تنتهك، وعن ثرواته أن تنتهب، وعن كرامته أن تهان، فلا تترك المؤسسات المشبوهة: الصحفية والسينمائية، والإعلامية، تخرب كيان الأمة، وتسلط عليها ريحا سموما فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء، بأمر سادتها من الصهاينة، والمستعمرين، والشيوعين.

سابعا- مجتمع القيم الإنسانية

المجتمع المسلم أيضا يقوم على القيم الإنسانية الرفيعة، التي تتطلع إليها البشرية الراقية، والتي تحترم كرامة الإنسان وحريته وحرماته، وحقوقه، وصيانة دمه وعرضه، وماله وعقله ونسله، بوصفه إنسانا، وعضوا في مجتمع. ومن أهم هذه القيم:

أ- العلم: فالإسلام دين العلم، والقرآن كتاب العلم، وقد جاء الإسلام بقيمة العلم، وأقام عليها حياة الإنسان المعنوية والمادية، والأخروية والدنيوية، وجعله طريق الإيمان، وداعي العلم، وهو المرشِح الأول للخلافة على الأرض، وبه فُضل آدم عليه السلام على الملائكة.

ب- العمل: وهو ثمرة العلم، فعلم بلا عمل، كشجر بلا ثمر، أو سحاب بلا مطر.

ج- الحرية: التي ترفع عن الإنسان كل ألوان الضغط والقهر والإكراه والإذلال. وتجعله كما أراد الله ﷻ له: سيدا في الكون، عبدا لله ﷻ وحده. وتشمل هذه الحرية: الحرية الدينية (حرية الاعتقاد، وحرية ممارسة الشعائر)، والحرية الفكرية، والحرية السياسية، والحرية المدنية، وكل الحريات الحقيقية.

ء- الشورى: فلا ينفرد إنسان بالرأي وحده، في الأمور التي تحتاج إلى مشاركة عقل آخر أو أكثر. وهذه الشورى تتمثل في حياة الفرد بالاستخارة، ومشاورة من يثق برأيه وخبرته ونصحه وإخلاصه، وفي الأسرة بالتشاور والتراضي، من أول استئذان البِكر في زواجها، ثم المشاورة بين الزوجين، وفي المجتمع والدولة، كوصف أساسي من أوصاف المؤمنين.

هـ - العدل: بإعطاء كل ذي حق حقه، سواء أكان ذو الحق فردا أم جماعة، أم شيئا من الأشياء، أم معنى من المعاني، بلا طغيان ولا إخسار، فلا يبخس حقه، ولا يجور على حق غيره. ومجالات العدل في الإسلام هي:

١- مع النفس: بالموازنة بين حق نفسه، وحق ربه، وحقوق غيره.

٢- مع الأسرة: بالعدل مع الزوجة، أو الزوجات، ومع الأبناء والبنات.

٣- مع كل الناس: مع من يحب، ومع من يكره، فلا تدفعه عاطفة الحب إلى المحاباة بالباطل، ولا تمنعه عاطفة الكره من الإنصاف، وإعطاء الحق لمن يستحق.

و- الإخاء (الأخوة): بأن يعيش الناس في المجتمع متحابين مترابطين متناصرين، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة، التي يحب بعضها بعضا، ويشد بعضها أزر بعض، ويحس كل منها أن قوة أخيه قوة له، وأن ضعفه ضعف له، وأنه قليل بنفسه كثير بإخوانه. وأدنى درجات المحبة: سلامة الصدر، من الحسد والبغضاء والأحقاد، وأسباب العداوة والشحناء، وأعلاها مرتبة الإيثار، بأن يقدم المسلم أخاه على نفسه في كل ما يحب.

ثامنا- مجتمع الشريعة الإسلامية

الذي يحكم المجتمع المسلم هو التشريع أو القانون الذي يحتكم إلى الشريعة ويحكم بها. والشريعة هي المنهاج الذي وضعه الله ﷻ لتنظيم الحياة الإسلامية على ضوء الكتاب المبين والسنة المطهرة، ولا يكون المجتمع مجتمعا إسلاميا إلا بتطبيقها والرجوع إليها في كل حياته: عبادات ومعاملات.

وإذا كان التشريع – سواء كان سماويا أو أرضيا – مقوم أساسي من مقومات المجتمع، للمحافظة على سلامة الجماعة، وصيانة كيانها المادي والمعنوي، فإن حاجة البشر إلى تشريع رباني – سالم من قصور البشر وأهوائهم – حاجة أساسية، لا يحققها للبشر إلا التشريع الإسلامي، فهو الذي يحمل هداية الله ﷻ الأخيرة للبشر،

ولا يوجد في الأرض تشريع رباني آخر غير محرف. فالبشر في حاجة إلى توجيه إلهي يجنبهم الضلال في الفكر، والغي في السلوك.

والتشريع الإسلامي ليس محصورا في الحدود والعقوبات، كما يتصور البعض، فإن التشريع الإسلامي ينظم العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأسرته، وبينه وبين مجتمعه، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الأغنياء والفقراء، والملاك والمستأجرين، وبين الدولة الإسلامية وغيرها في حالة السلم وحالة الحرب. فهو قانون مدني، وإداري، ودستوري ودولي، ....إلخ إلى جانب أنه قانون ديني. والمجتمع المسلم لا يُبنى بالتشريع وحده، بل لابد من الدعوة والتوعية، والتعليم والتربية، إلى جانب التشريع والقانون، بل قبل التشريع والتقنين. فإذا لم تتغير الأنفس لم ينفع تغير القانون.

وتحكيم الشريعة يجسد أصالة وتحرر المسلمين، فالتشريع جزء لا يتجزأ من الدين، ولا يتم الإيمان إلا بالحكم به والاحتكام إليه، ولا خيار للمسلمين في ذلك بعد التزامهم بالإسلام، والرضا به دينا، وشرعة ومنهاجا. وتحكيم الشريعة فيه معنى آخر، فالقوانين الوضعية التي تحكم في بلاد العرب والمسلمين، قوانين أجنبية عنهم دخيله عليهم، لم تنبت في أرضهم، ولم تستمد أحكامها من عقائدهم وقيمهم وأعرافهم ومسلماتهم. ولهذا أحلت ما يعتقده المسلمون حراما، وحرمت ما يعتقدونه حلالا، وأسقطت ما يعتبرونه واجبا. والعودة إلى أحكام الشريعة تعني التحرر من بقايا الاستعمار في المجال التشريعي.

والتشريع الإسلامي المنشود هو الذي يقوم على أساس اجتهاد عصري سليم، سواء أكان اجتهاديا انتقائيا مما سبق، أم إنشائيا جديدا.

تاسعا- مجتمع الاقتصاد والمال الإسلامي

لكل مجتمع مذهب اقتصادي خاص، تتمثل فيه فلسفته وعقائده ومُثُله، ونظرته إلى الفرد والمجتمع، وإلى المال ووظيفته، وفكرته عن الدين والدنيا، والغِنى والفقر، فيؤثر ذلك كله في علاقته بإنتاج الثروة، وطرائق تداولها وتوزيعها واستهلاكها، ومن ذلك ينشأ نظامه الاقتصادي.

ولأن الحديث عن الاقتصاد الإسلامي يطول، نشير إلى القواعد الأساسية التي يقوم عليها بناء الاقتصاد في المجتمع الإسلامي، وأهمها:

أ- اعتبار المال خيرا ونعمة في يد الأخيار.

ب- المال مال الله ﷻ، والإنسان مستخلف فيه.

ج- الإسلام يدعو إلى العمل والكسب الطيب، واعتباره عباده وجهادا.

ء– تحريم موارد الكسب الخبيث.

هـ – إقرار الملكية الفردية وحمايتها.

و– منع الأفراد من تملك الأشياء الضرورية للجماعة.

ز– منع المالك من الإضرار بغيره.

ح– تنمية المال بما لا يضر الأخلاق والمصلحة العامة.

ط– تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة.

ي– الاعتدال في الإنفاق.

ك– إيجاب التكافل بين أبناء المجتمع.

ل– تقريب الفوارق بين الطبقات.

عاشرا– مجتمع اللهو والفنون بالضوابط الإسلامية

المجتمع الإسلامي ليس مجرد مجتمع عبادة ونسك، ولا فقط مجتمع جد وعمل، بل إن فيه مجال لمن يلهو ويلعب، أو يضحك ويمرح، أو يغني ويطرب. فالإسلام دين واقعي يتعامل مع الإنسان كله: جسمه وروحه، عقله ووجدانه، ويطالبه أن يغذيها جميعا، بما يشبع حاجتها، في حدود الاعتدال. وإذا كانت الرياضة تغذي الجسم، والعباد تغذي الروح، والعلم يغذي العقل، فإن الفن يغذي الوجدان. ونقصد بالفن: النوع الراقي الذي يسمو بالإنسان، لا الذي يهبط به.

والله ﷻ جميل يحب الجمال، والقرآن معجزة جمالية، ببيانه، وروعة نظمه وأسلوبه، وتفرد لحنه وموسيقاه، حتى سماه بعضهم: سحرا. وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الإحساس بالجمال وتذوقه وحبه، فإنه قد شرع التعبير عن هذا الإحساس والتذوق والحب بما هو جميل أيضا. وقد استمع النبي ﷺ إلى الشعر وتأثر به، واستشهَد أصحابه بالشعر، وفسروا به معاني القرآن. فالشعر والأدب عموما له هدف ووظيفة، فهو شعر ملتزم وأدب ملتزم، وفن ملتزم.

*****

الفصل الثالث – دعائم المجتمع المسلم

الفصل الثالث – دعائم المجتمع المسلم [١]

يقدم الإسلام إلى البشرية، إلى جوار الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، المجتمع الصالح، مجتمع الإيمان والفضيلة، مجتمع المؤمنين، الأطهار الذين يعلون على جاذبية المادة، ويصلون حبالهم بالله ﷻ، ويتعايشون بمكارم الأخلاق، ويتواصون بالعدل والشورى، قال ﷻ: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾[٢]. ومن دعائم هذه المجتمع بعد العقيدة والشعائر التعبدية:

أ- الإخاء والمحبة

وهذا مقتضى الإيمان، الذي يربط بين أهله برباط العقيدة الوثيق: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[٣]، وقد أثبت التاريخ والواقع أنه لا رباط أقوى من العقيدة، وأن لا عقيدة أقوى من الإسلام. وأدنى مراتب هذا الإخاء: سلامة الصدور من الحسد والبغضاء، التي اعتبرها الحديث (داء الأمم) وسماها (الحالقة)، التي تحلق الدين.

وكلما عمقت جذور الإيمان، امتدت فروع الإخاء وظلاله وثماره في النفس والحياة، وتحررت الأنفس من الأنانية المقيتة، وتطلعت إلى العطاء لا الأخذ، وإلى التضحية لا الغنيمة. وفي الحديث: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)**[٤].

ب – التعاطف والتراحم

التعاطف والتراحم من ثمرات الإخاء الحق، وهو ما صوره الحديث الشريف أبلغ تصوير حيث قال: **(ترى المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الأعضاء، بالحمى والسهر)**[٥].

---

[١] - الإسلام حضارة الغد، ص: ١٨٤:١٨٩.
[٢] - سورة الشورى، الآيات: ٣٦:٣٨
[٣]- سورة الحجرات، الآية رقم: ١٠
[٤] - صحيح البخاري، حديث رقم: ١٣
[٥] - متفق عليه

ج- التساند والتعاون

التساند والتعاون المظهر العملي للإخاء والتراحم. والتعاون الإسلامي مجاله البر والتقوى، وليس الإثم والعدوان، قال ﷻ: ﴿ **وتَعاوَنُوا عَلى البِرّ والتَّقْوى ولا تَعاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والعُدْوانِ** ﴾[1]، وقد مثل النبي ﷺ ذلك بقوله: **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)**[2] ولهذا حرم الله ﷻ الربا والاحتكار، لما فيهما من استغلال القوي للضعيف. والتساند والتعاون يشمل التعاون بين أفراد الشعب وفئاته بعضهم وبعض، أو بين الشعب والحاكم.

ء- التكافل والتضامن

حيث ينهض القوي بالضعيف، ويعود الغني على الفقير، ولا يضيع عاجز ولا مسكين، في هذا المجتمع، والحد الأدنى في ذلك هو فريضة الزكاة، قال ﷻ: ﴿ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾. والتكافل الإسلامي يستوعب كل جوانب الحياة المادية والمعنوية، فهو تكافل معيشي، وعلمي، وأدبي، وعسكري، إلى غير ذلك.

هـ – التواصي والتناصح

التواصي والتناصح من التكافل الأدبي، الذي يجعل كل مسلم مسؤولا عمن حوله من أبناء المجتمع، ينصح لهم وينصحون له، ويوصيهم بالحق والصبر، ويتقبل الوصية منهم كذلك. وليس في المسلمين أحد أكبر من أن يُنصح، ولا أصغر من أن يَنصَح. وهذا من أساسيات الدين، وموجبات الإيمان، وشروط النجاة من الخسران.

و- التطهر والترقي

المجتمع المسلم مجتمع نظيف، يربي أبناءه على الطهارة والعفة والإحصان، ويُحرِّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. والمجتمع المسلم ليس مجتمع ملائكة مطهرين، ولكن من أبتُلي منهم بارتكاب عصية، استتر بها، ولم يتبجح بفعلها، أو بالإعلان عنها، وبذلك ينحصر أثرها، ثم يُرجى منه بعد ذلك أن يتوب منها.

---

[1] - سورة المائدة، الآية رقم: ٢

[2]- سبق تخريجه.

ز – العدالة

العدالة في المجتمع المسلم تشمل عدالة التعامل بين الناس في شؤون الحياة، فالعدل فريضة، والظلم حرام، كما في الحديث القدسي: (**يا عبادِي إني حرَّمتُ الظُّلْمَ على نَفسِي وجعلتُه بينَكم مُحرَّمًا؛ فلا تظّالَموا**)[1]، وتشمل العدالة الاقتصادية أو الاجتماعية، التي تقف في وجه الأقوياء حتى لا يمتصوا دماء الضعفاء، بل تعمل على الحد من طغيان الأغنياء، بقدر من ترفع من مستوى الفقراء، وما تفرض لهم من حقوق في المال: الزكاة أولها، وليست آخرها.

وتشمل العدالة القانونية والقضائية، بحيث يصل لكل إنسان حقه، وإن كان عند خليفة المسلمين، وأن يستوفي عقوبته على جرمه، وإن كان ابن أمير المؤمنين: (**وأيْمُ اللهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا**)[2].

ء – مجتمع متقدم

فالمجتمع المسلم ليس مجتمعا متخلفا بحال. والتقدم المقصود هنا هو أن المجتمع المسلم له أهداف يتحرك للإمام في سبيل تحقيقها. وأهداف المجتمع المسلم هي الأهداف التي جعلها الإسلام أهدافا أساسية لحياة البشر على الأرض، والتي هي مناط التقدم الذي حققه هذا المجتمع في فترات التزامه بالإسلام، وهي الاستخلاف في الأرض بما يتضمنه من معنى العبادة الشاملة، وعمران الأرض. ولا يكون تقدمه كالتقدم الغربي الذي عَمَّر الأرض وعمل على أن تأخذ زخرفها وتتزين، لكن بلا عبادة لله ﷻ ، ولا خلافة عنه. وهذا التقدم مربوط في الإسلام بأفضل الغايات، وأرفع المقاصد، واتخاذ أمثل الوسائل، وأحسن الأساليب.

والتقدم الذي يطلبه الإسلام للحياة: (تقدم متكامل)، روحي ومادي، أخلاقي وعمراني، دنيوي وأخروي، علمي وإيماني. وهو تقدم في الأهداف والغايات، وتقدم في الوسائل والأساليب معا، فالإسلام يحرص على نظافة الوسيلة، حرصه على شرف الغاية، ولا يقبل بحال الوصول إلى الغايات النبيلة بوسائل خسيسة، بل هو يرفض الوصول إلى الحق بطريق الباطل، فيرفض أكل الربا وكسب الحرام لبناء المساجد، وتشييد المدارس، فإن الله ﷻ طيب لا يقبل إلا طيبا.

وفي ضوء هذا المفهوم المتكامل للتقدم، قامت الحضارة الإسلامية الشامخة، التي جمعت بين الروائع المادية التي تمثلت في مبدعات العمارة والفنون وغيرها، وبين المعاني الإيمانية والأخلاقية، التي كانت هي الدوافع

---

[1] ــ البحر الزخار، حديث رقم: ٤٠٥٣.
[2] ـ صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٧٨٨.

الحقيقية وراء هذا الإبداع، وكانت هي السند الروحي والمعنوي لهذه الحضارة، التي لا تخطئ العين في علم مظاهرها ومنجزاتها: أنها حضارة ربانية، محورها الإيمان، وركيزتها الأخلاق.

*****

الفصل الرابع – عوامل ضعف المجتمع الإسلامي

الفصل الرابع – عوامل ضعف المجتمع المسلم

تمهيد

إذا استعرضنا أحوال المسلمين منذ عهد الإسلام الباكر حتى اليوم، مارين بالغزوات، فالحروب في فارس والروم، فهجمات الصليبيين والمغول، فحملات المبشرين، قادتنا كلها إلى نتيجة واحدة، هي أن المسلمين كانوا يضعفون ويقوون، ولكن الإسلام كان قويا على الحالتين، وينهزمون وينتصرون، ولكن الإسلام كان ينتصر دائما، وأساس انتصاره هو أسسه ومبادئه، فلا نزاع إن الهزائم التي لحقت بالمسلمين أكثر جدا مما أحرزوه من انتصارات، لقد كثرت أخطاؤهم فتوالت هزائمهم، أما الإسلام فلا خطأ منه ولا خطأ فيه. وإذا قام المصلحون اليوم يطلبون إلى المسلمين أن يهبوا من رقدتهم، فهم يبغون الفوز للمسلمين ويحرصون على إسعادهم. أما الدين فله رب حماه ويحميه، ورعاه ويرعاه[1].

عوامل ضعف المجتمع المسلم

فيما يلي بعض أسباب ضعف المجتمع المسلم:

أولا– الأسباب الداخلية

أ– أسباب سياسية وإدارية

١– الحروب والصراعات الداخلية التي لا تكاد تخلو منها سنة من السنوات على مدار التاريخ الإسلامي.

٢– أطماع السلطة والصراع عليها.

٣– فساد بعض الحكام المسلمين، وفساد اتباعهم من حين إلى آخر.

٤– تسلط الأجناس غير العربية وتعصبهم لإجناسهم، مع ضعف الثقافة والتربية الإسلامية، كالفرس، والترك، حيث لم تكن لهم الثقافة التي تؤهلهم للحكم.

٥– ضعف وتدهور الدولة العثمانية في عهودها الأخيرة.

٦– انتشار الفساد الإداري.

٧– ظهور الفرق والمذاهب المنحرفة، واستحوازهم على كثير من المناطق والبلدان.

---

[1] ـ شلبي: أحمد، موسوعة الحضارة الإسلامية، ٦ـ المجتمع الإسلامي، أسس تكوينه-أسباب ضعفه-وسائل نهضته، ط: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٠م، ١٧٣/٦.

ب- أسباب اقتصادية ومالية وإدارية

١- عبث الأمراء بالأموال العامة، والإسراف والبذخ على حساب فقراء الأمة.

٢- انتشار الربا والاحتكار في المجتمع.

٣- الانغماس في الترف والإسراف.

ج- أسباب علمية ودعوية

١- اغلاق باب الاجتهاد مما أدى إلى جمود المجتمع وعدم قدرته على التطور مع المتغيرات، واللجوء إلى غير الشريعة لسد العجز القانوني.

٢- ضعف الدعاة والعلماء المسلمين في القرون المتأخرة.

٣- تولى أمر الخلافة خلفاء جهلة ينتهكون المحارم ويعادون العلماء.

ء- أسباب دينية

١- الخلافات الدينية والمذهبية، وظهور المذاهب المنحرفة: كالخوارج، والجبرية، والمرجئة، والمعتزلة.

٢- انتشار الصوفية الانعزالية.

٣- ظهور الروافض كالبويهية، والشيعة.

٤- انتشار البدع والمنكرات والسحر والشعوذة.

٥- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم التواصي بالحق.

٦- جهل المسلمين بدينهم، وأحكامه ومبادئه.

و- أسباب اجتماعية

١- تأثير الفلسفة في ضعف المجتمع المسلم.

٢- انتشار مظاهر الكفر والشرك في المجتمع.

٣- التعلق بالدنيا والانغماس في الشهوات.

٤- انتشار الظلم والجور في المجتمع.

٥- التفرق والتنازع و اختلاف القلوب.

٦- اختفاء الأخلاق الإسلامية في القرون المتأخرة.

٧- ظهور النزعة القومية والوطنية، وتقديمها على الرابطة الإسلامية.

ب- أسباب صحية

تفشي الطاعون والأوبئة والأمراض الفتاكة، في بعض البلدان الإسلامية، في بعض المراحل التاريخية.

ثانيا – الأسباب الخارجية

أ- أسباب سياسية وعسكرية

١- الهجمات والحملات الصلبيبة على مدار التاريخ الإسلامي.

٢- زحف المغول على العالم الإسلامي، والذي أدى إلى تدمير الحضارة الإسلامية.

٣- الاستعمار الغربي الحديث.

٤- المؤامرات الخارجية، والتبعية للخارج.

٥- القضاء على الخلافة العثمانية.

٦- تقطيع أوصال الأمة الإسلامية بالحدود المصطنعة.

٧- زرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة الإسلامية.

ب- أسباب اقتصادية ومالية

١- اكتشاف الممرات البحرية، والذي أدى إلى الضعف السياسي والاقتصادي، والتسلل الاستعماري للعالم الإسلامي.

٢- احتكار الشركات الغربية للثروات الإسلامية.

٣- إغراق الدول الإسلامية بالديون الخارجية، واستخدامها كوسيلة للسيطرة الغربية.

ب- أسباب ثقافية وفكرية

١- أندية ومؤسسات حديثة تكيد للإسلام في غفلة من المسلمين، كالروتاري، والماسونية، والليونز.

٢- الغزو الفكري، ونشر الثقافة الغربية. وانتشار مراكز ومؤسسات التغريب الفكري والثقافي.

٣- الاستشراق والتبشير، والهجوم على الإسلام والقرآن والسنة.

٤- فصل الدولة عن الدين.

ء- أسباب اجتماعية

١ – حصر التشريع الإسلامي في الأحوال الشخصية.

٢- إشاعة الفاحشة بين الناس وإغراقهم بالملذات.

٣- نشر التعليم العلماني، وإضعاف التعليم الديني[١].

*****

[١] - شلبي: أحمد، موسوعة الحضارة الإسلامية، ٦- المجتمع الإسلامي، أسس تكوينه-أسباب ضعفه-وسائل نهضته، ١٧٤/٦، البغدادي: على محمد، عوامل فلاح الأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم (دراسة موضوعية)، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية – غزة. المقدمة ص: ي. ، بني عياش: محمد سعيد أحمد محمود، المجتمع الإسلامي، معالم قوته، أسباب ضعفه، وسائل نهوضه، بحث منشور في مجلة دراسات: علوم الشريعة والقانون، الصادرة عن الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، المجلد: ٤٥، عدد: ٤، ملحق: ٢، ٢١٠٨، ص: ١٧٤:١٨٢.

المقدمة السادسة

الدولة الإسلامية

تمهيد

تمهيد

لكل أمة تاريخا تسجله من منطلق عقيدتها وواقع حياتها، وتحرص على تنقيته من كل ما يخالف تلك العقيدة حتى يكون ناصعا منسجما مع ما تصبو إليه نفوس أبنائها، وما تريد أن تنشأ عليه الأجيال في المستقبل. إلا أن تاريخ الأمة المسلمة قد لعبت فيه الأيدي المنحرفة في الماضي، وحرفته أقلام المستعمرين وأنصارهم في الحاضر، حتى صار تبعا لتاريخ الانحراف في الأدوار التاريخية التي مرت، وشبيها بتاريخ أوروبا في العصر الحديث، يتماشى معه، ويتممه على أرضنا التي نحيا عليها.

ودائما تحاول الأمة القوية أن تفرض لغتها وتاريخها على الأمم الضعيفة أو التي أخضعتها بالسيف، ولقد طغت الدول الأوروبية على البلدان الإسلامية خلال القرون القليلة الماضية، وفرضت تاريخها عليها، وحاولت فرض لغتها أيضا، إلا أن وجود القرآن الكريم قد حال دون ذلك بالنسبة إلى اللغة، أما التاريخ فقد بقي يدرس حتى بعد زوال الاستعمار في البلدان الإسلامية[١].

وبلادنا الإسلامية، كانت – في عصور الجهل في أوروبا – ينتشر فيها العلم، ويسيطر فيها النظام، وتتواجد فيها القيم. فالمدن عامرة بالمدارس والمكتبات، وهي قبلة المتعلمين، ومساجدها مراكز إشعاع، هذا إضافة إلى الحضارة التي تتسم بالإنسانية، بل تعدت إلى الرفق بالحيوان، فالحضارة أعمال يبتكرها البشر، وتنظيم وتخطيط لخدمة الإنسان، فإذا لم تخدمه فليست بحضارة[٢].

ودراسة التاريخ من القضايا التربوية المباشرة، إذا وضعنا في اعتبارنا أن التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث التاريخية، إنما هو إلى جانب ذلك تفسير لتلك الأحداث وتقويم لها. والتفسير والتقويم يشملان ذات القيم والمبادئ والأفكار التي تقوم عليها التربية، وتسعى إلى تحقيقها. ومن ثم فإن صلة التاريخ بالتربية صلة مباشرة، بحيث نستطيع أن نقول مطمئنين: إن درس التاريخ وتفسيره تفسيرا إسلاميا هو في حقيقته درس في التربية، وإن التفسير الإسلامي للتاريخ أمر ذو أهمية بالغة في تكوين الأمة التي يراد لها أن تتربى بدراسة التاريخ[٣].

والدرس التربوي الأكبر، المستفاد من تتبع أحوال هذه الأمة في صعودها وهبوطها، ورفعتها وانتكاسها، هو تتبع السنن الربانية من جهة، وأنها لا تحابي أحدا ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحد، وإبراز الحقيقة الرئيسية في حياة هذه الأمة من جهة أخرى: (أنها لا تُمَكَّن في الأرض إلا وهي متمسكة بدينها، عاملة بمقتضيات التكليف الرباني لها، وأنها كلما حادت عن الطريق أصابتها العقوبة الربانية، فزال عنها التمكين، وأصابتها النكبات).

---

[١] - التاريخ الإسلامي، ١- قبل البعثة، ص: ٥.

[٢] - المصدر السابق، ص: ٨،٧.

[٣] - قطب: محمد، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ط: منبر التوحيد والجهاد، المقدمة، ص: ٢.

وأنها من جهة ثالثة، لا تبرأ من نكباتها إلا بالعودة الصادقة إلى الله ﷻ ، وأنها حين تعود لا تكون ممكنة في داخل حدودها فسحب، بل تكون في مقام التوجيه والشهادة على كل البشرية [١].

ويُستمد التفسير الإسلامي للتاريخ من الإسلام: من المقررات الإسلامية ربانية المصدر (من القرآن الكريم، والسنة المطهرة) عن الوجود الإلهي، والوجود الإنساني، والوجود المادي، وعلاقة الخالق بمخلوقاته، وعلاقة الخلق بخالقهم، والسنن التي يُجرِي بها الله ﷻ أمر البشر وأمر الكون[٢]. ويختلف التفسير الإسلامي للتاريخ عن غيره من التفاسير الغربية في نظرته المبدئية إلى الإنسان – خليفة الله ﷻ في أرضه – ومن ثم يتناول:

أ- الدوافع، والعوامل المؤثرة، وطريقة تأثيرها في مجريات حياته، على أساس أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر من الله ﷻ ، وبحسب سنن معينة يجري الله ﷻ بها قدره في الحياة الدنيا. ومن ناحية أخرى فالتاريخ هو سعي الإنسان لتحقيق ذاته بما يشتمل عليه من طاقات وقدرات، وتطلعات وأشواق، إلى جانب الضرورات القاهرة، والرغبات القريبة.

ب- الحكم على الإنجاز البشري في أي مرحلة من مراحله بأنه خطأ أو صواب، منحرف أو مستقيم، رفيع أو هابط، وذلك على أساس أن هناك غاية ربانية من خلق الإنسان، هي أن يكون خليفة في الأرض، على أساس اتباع هدى الله ﷻ [٣].

ويمكن تقسيم التاريخ الإسلامي إلى ثلاثة أقسام، حسب مُثلنا، وقيمنا، ومفاهيمنا:

١- مرحلة ما قبل الإسلام، وهي مرحلة الجاهلية الأولى.

٢- مرحلة التاريخ الإسلامي: وتبدأ بمرحلة الغربة الأولى للإسلام، فتشمل حياة الرسول ﷺ، ثم الخلفاء الراشدين من بعده، ثم الدول الإسلامية التالية للخلافة الراشدة، حتى سقوط الدولة العثمانية.

٣- مرحلة التاريخ الحديث أو التاريخ المعاصر، وهي مرحلة الغربة الثانية للإسلام.

*****

---

(١) – كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: ٢٩.

(٢) - المصدر السابق، المقدمة، ص: ٥.

(٣) - حول التفسير الإسلامي للتاريخ، المقدمة، ص: ٦،٧.

الفصل الأول – نظرة تاريخية

الفصل الأول – نظرة تاريخية

لا يمكن إغفال الأثر الذي تركته أحوال الأمة الإسلامية في أوضاع البشرية على مدار التاريخ، سواء في حالة المد، أو في حال الجزر. ففي فترة المد الإسلامي استمدت أوروبا أكثر مؤثرات نهضتها من الإسلام ومن الحضارة الإسلامية. أما حين نكلت الأمة عن رسالتها، وانحسر المد الإسلامي من جراء ذلك، فقد فقدت البشرية النموذج الصحيح، الذي يمكن أن تهتدي به، ولم يبق إلا النموذج الجاهلي المنحرف[1].

وفي البداية نقول إن الله ﷻ لم ليكن ليترك خلفيته في الأرض دون هداية لمراده، ولذلك بعث ﷻ، في كل أمة رسولا منهم بلسانهم، ﴿ **يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾[2]، ويعرفهم الله ﷻ جلت قدرته، ويرسم لهم الطريق السوي ليسلكوه، وليعيشوا في راحة وأمن وطمأنينة، فيؤلفون مجتمعا فاضلا، وأمة مسلمة قائمة بأمر الله ﷻ تطبق نظامه في الأرض، لتكون أمة مُستَخلَفة في هذه المعمورة كما أراد لها ربها. ولقد كان الله ﷻ يبعث في كل أمة رسولا منهم، وربما كان من أسباب ذلك تعدد اللغات، وبعد المسافات، وانعزال الشعوب عن بعضها بشكل أو بآخر. حتى إذا تطورت المواصلات، وزادت الاتصالات بين الشعوب، كان لابد من دعوة جامعة لبني البشر تتمثل في رسول يجمع الدعوات، ويختم الرسل، وينسخ ما كان خاصا بقوم، ويضم ما تشترك به البشرية جمعاء. ولما كانت الشعوب كثيرة ومتعددة، كان لا بد من أن يكون هذا الرسول الخاتم للأنبياء من أحد هذه الشعوب، ولا داعي لأن تحتج بقية الشعوب على أنه ليس منها، ولكن يمكن أن يكون من شعب وسط بين هذه الأمم، وهذا ما كان في الشعب العربي، الذي تقع بلاده في موقع وسط يمكن أن تكون الدعوة من هذا المكان إليها جميعا[3]، مع أسباب أخرى.

لكن لنعود قليلا إلى الوراء، قبل البعثة النبوية الشريفة، لنتعرف على التغيير الهائل الذي أنتجته البعثة النبوية الشريفة، في الواقع العربي آنذاك، حتى تتضح لنا الصورة، وتظهر الحقيقة. حيث تكفي نظرة سريعة في أحوال الأمم والشعوب المعاصرة لبعثة النبي ﷺ حتى يكتشف المرء إلى أي هوة سحيقة كان العالم قد وصلها في مشرقه ومغربه، من الشرك والكفر والفوضى الدينية، والانحلال الاجتماعي والاضطراب الاقتصادي، والفساد، والظلم السياسي، والديني، والاجتماعي، والفوضى الجنسية.

أما العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ فمع إنهم قد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي، بأخلاق ومواهب تفردوا بها، وأهلتهم لاحتضان الرسالة الخاتمة، إلا إنهم هم أيضا كانوا قد ابتلوا في ذلك الوقت –

---

[1] - كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: ٢٦.
[2] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٦٤
[3] - شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، ٢- السيرة، ط: المكتب الإسلامي، ص: ١٠،٩.

لبعدهم عن النبوة والأنبياء، ولانحصارهم في شبه جزيرتهم، وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم، بانحطاط ديني شديد، ووثنية سخيفة، قلما يوجد لها نظير في التاريخ[١].

والذي يذكره التاريخ: أن العرب قد تأخروا عمن حولهم في الحضارة، وغلبت عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشة القبائل الرُّحل، لا يَقرون في مكان، ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالا وثيقا. وليس هذا النوع من المعيشة بالذي يُرقِّي قومه ويُسلمهم إلى الحضارة. وهذه العيشة البدوية هي التي كانت سائدة في جزيرة العرب، ولكن أيضا كانت هناك أصقاع ممدنة كاليمن. لكن البدو كانوا القسم الغالب. وهؤلاء البدو وأشباههم ينقسمون إلى قبائل، حيث كانت القبيلة هي الوحدة التي بُني عليها نظامهم الاجتماعي. وهذه القبائل كانت في نزاع دائم، وكانت الغارة على القبائل المعادية، والسلب والنهب، من وسائل العيش. ولذلك كانت القبيلة التي ضعفت تضطر إلى الاحتماء بقبيلة قوية تذود عنها، ولكن قل أن يدوم حلفهم أو يطول.

ولم يكن للبدوي خُلق يؤهله للتجارة، حتى إذا اشترك فيها اقتصر عمله على أن يكون سائقا أو هاديا للطريق أو حاميا من إغارة أمثاله.

وأفراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون التضامن ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما. وكانت وطنية البدوي وطنية قبلية، لا وطنية شعبية، وهذا الشعور بالارتباط بقبيلة يحميها وتحميه هو المُسمى: (العصبية)[٢].

ولقد كانت الأمية غالبة على العرب، ما خلا (حِمْيَر) في اليمن، وسكان (الحِيرَة) في العراق. ومع غلبة الأمية فإن علومهم كانت ابتدائية، وأكثرها تجارب وأشعار تُحمل في الصدور. ومن علومهم: النجوم، والأنواء والرياح، والكهانة والعرافة، والطب، والنسب، والتاريخ. ولكي تتضح الصورة أكثر، يكفي أن نذكر أن الإسلام يوم جاء، لم يكن في قريش كلها سوى سبعة عشر رجلا يكتبون[٣].

وقد جاء الإسلام يوم جاء، والعرب يئدون بناتهم، قال ﷻ : ﴿ **وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ** ﴾[٤]، كما شاع فيهم الأنكحة الفاسدة المحرمة، كنكاح: المقت، والمتعة، والاستبضاع، والخدن، والبدل، وغير ذلك. وكانت البغايا ينصبن على أبوابهن رايات ليُعرف مكانهن[٥]. كما انتشرت فيهم الأمراض الاقتصادية، والمظالم الاجتماعية، وغير ذلك مما هو مبين في كتب التاريخ.

ولقد أرسل الله ﷻ نبيه ﷺ في تلك البيئة المظلمة، فأنارها بكتاب سماوي لا تنقضي عجائبه، وبإيمان واسع عميق، وتعاليم متقنة، وتربية حكيمة، وشخصية فذة، فبعث ﷺ بذلك في الإنسانية حياة جديدة متحضرة[٦].

---

(١) - الندوي: أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط: مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر، ص: ٣١.
(٢) - أمين: أحمد، فجر الإسلام، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص: ١٤:٢٠.
(٣) - على: محمد كرد، الإسلام والحضارة العربية، ط: مؤسسة هنداوي ٢٠١٧، ص: ١١٢:١١٦.
(٤) - سورة التكوير، الآية رقم: ٨
(٥) - الإسلام والحضارة العربية، ص: ١١٧.
(٦) - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: ١٠٢.

ولقد وضع النبي ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز، وعجائب، وقوى، ومواهب، فأصاب الجاهلية في مقتلها، أو صميمها، وأرغم العالم العنيد بحول الله ﷻ على أن ينحو نحوا جديدا، ويفتتح عهدا سعيدا، هو ذلك العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين العالم، والذي لم يكن لغير الإسلام في إقامته واستدامته، نصيب[١].

*****

[١] – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: ١٠٤، قطب: سيد، المستقبل لهذا الدين، ط: دار الشروق، ص: ٦.

الفصل الثاني – الدولة الإسلامية الأولى

تعريف الدولة الإسلامية

قد يثير استخدام مصطلح الدولة تحفظات البعض، لأن فقهاء السياسة الشرعية المتقدمين قد استخدموا مصطلحي: (الإمامة)، و(الخلافة) للإشارة إلى السلطة السياسية، ولأن هذا المصطلح قد برز إلى حيز الاستخدام عقب انقسام الأمة الإسلامية إلى وحدات سياسية مستقلة، أو شبه مستقلة، نتيجة لضعف سلطة الخلافة المركزية للنظام السياسي الإسلامي. لكن لا مشاحة في الألفاظ إذا تطابقت المفاهيم[١].

وقد يمكننا تعريف الدولة الإسلامية بقولنا: "الدولة الإسلامية هي البنية السلطوية للأمة، والتي توجه الفعل السياسي وتحدده، وفق منظومة المبادئ السياسية الإسلامية"[٢].

الدولة الإسلامية الأولى

انطلقت إرهاصات بناء الدولة الإسلامية الأولى بمكة، بدعوة النبي ﷺ بمكة الحجاج – في مواسم الحج كل عام – يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، ولهم الجنة، فكان يردد عليهم: **(يَا أَيّهَا النّاس قُولُوا لا إلَهَ إلّا اللهُ تُفْلحُوا وَتَمْلِكُوا بهَا العَرَبَ وَتَذِلّ لَكُمُ العَجَمُ وَإذا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا في الجَنّةِ)**[٣] في إشارة إلى السيطرة السياسية التي ستتحقق للمؤمنين على العرب والعجم. ثم كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية بمثابة تحالفا وعقدا سياسيا وعسكريا واجتماعيا، لتأسيس الدولة الإسلامية، وكان ذلك وراء تحفيزه ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة، ومن ثم إنشاء الدولة الإسلامية الأولى[٤].

ولم تكن في بلاد الحجاز قبل ظهور الإسلام دولة بالمعنى الذي نفهمه الآن، وإنما كانت القبيلة هي الوحدة السياسية الأساسية، ورئيسها هو سيد القبيلة، والشعب هو أبناء القبيلة، والعلاقة بينهم هي رابطة الدم، والوطن هو الأرض التي نشأت فيها القبيلة[٥].

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، فكان هناك:

---

[١] - العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة ، ص: ١١٣

[٢] - المصدر السابق، ص: ١١٩.

[٣] - الزهري: محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ت: د. علي محمد عمر، ط: مكتبة الخانجي – القاهرة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م، ١٨٤/١.

[٤] - حدرباش: لوهاب، الدولة الإسلامية الأولى: دراسة في الجانب السياسي، بحث منشور في مجلة المعيار (تصدر كل ٣ أشهر عن كلية أصول الدين- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة / الجزائر، مجلد: ٢٥، العدد: ٢٠٠٢/٦م، ص: ٦١٨.

[٥] - الشاهين: محمد عمر، أسس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، السنة الرابعة: ٢٠٠٩ المجلد:٤، العدد: ٢، ص: ٩٨.

١- المسلمون من الأوس والخزرج الذين دانوا بالإسلام، وهم متفاوتون في الناحية المادية.

٢- المسلمون المهاجرون من مكة إلى المدينة فرارا بعقيدتهم، وقد تركوا أموالهم وأملاكهم، فهم فقراء، وبحاجة إلى دعم إخوانهم من سكان المدينة.

٣- أناس أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، كي لا يفقدوا مراكزهم، ودعم قبائلهم. كعبد الله بن أبي سلول.

٤- المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد.

٥- اليهود، وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وكانوا يتحكمون في يثرب سياسيا واقتصاديا، قبل قدوم الرسول ﷺ إليها، مستغلين أوضاعهم المالية، وكانوا يوقدون نار الخلاف بين قبائل يثرب، ويعطون السلاح لكلا الطرفين، فيتاجرون بالسلاح، ويمتصون دماء الحيين.

وقد كان هناك خلاف مستحكم بين الأوس والخزرج، وكانت بينهم حروب في الجاهلية، وآخرها يوم بُعاث، ولا يزال في النفوس شيء منها. كما كان لكل حي في المدينة مكان يلتقون فيه، يسمرون ويسهرون، ويتقايضون، وينشدون الأشعار، فكانت هذه الحال تدل على التفرقة والاختلاف[1].

وفور وصوله ﷺ إلى المدينة سعى إلى تحويل يثرب إلى معشر واحد يلتف حوله الناس، وقد سلك في ذلك طريقين:

أ- إحلال الأخوة الدينية محل الأخوة القبلية بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج.

ب- وضع ميثاق للعمل المشترك بين المسلمين ويهود يثرب، يعتمد على المبادئ المشتركة بين الفريقين.

ثم تمثلت الخطوات الأولى في بناء الدولة في:

١- بناء المسجد

حيث كان المسجد مركز إدارة الدولة، ففضلا عن الجوانب الدينية، كان للمسجد دورا بارزا في الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية والقضائية، وغيرها.

٢- المؤاخاة بين المؤمنين

بعد بناء المسجد عمد الرسول ﷺ إلى توحيد الأمة ورص صفوفها، فدأب إلى إذابة العصبيات الجاهلية، وتوحيد المهاجرين والأنصار، فجعلهم أمة واحدة، أو جسدا واحدا، بنيانه كالبنيان المرصوص.

---

[1] - التاريخ الإسلامي، ٢- السيرة، ص: ١٤٧:١٤٩.

٣- وضع دستور الدولة

وهو ذلك الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ حين قدومه إلى المدينة بقصد تنظيم شئون دولته الناشئة، والذي سُمي بعدة تسميات: الصحيفة، الكتاب، والوثيقة، الدستور، الحلف، ...إلخ. وقد حدد فيه النبي ﷺ معالم الدولة الإسلامية في بداية تكوينها، فهو عبارة عن بنود تهدف إلى تنظيم العلاقات بين شرائح المجتمع، وبيان ما لهم من حقوق، وما عليهم من التزامات، واستطاع أن يجعل من المدينة المنورة مدينة موحدة[١].

ومن ثم كان إنشاء هذه الدولة إشارة عملية إلى انتقال مركز الثقل الديني، إلى الأمة الإسلامية، وبعبارة أخرى: تسلم أمة الإسلام أمانة الاستخلاف في الأرض، والشهود الحضاري.

*****

(١) ـ الدولة الإسلامية الأولى: دراسة في الجانب السياسي، ص: ٥،٤.

الفصل الثالث – تسلم الأمة الإسلامية أمانة الاستخلاف

تسلم الأمة الإسلامية أمانة الاستخلاف

الحديث عن استخلاف الإنسان في الأرض جاء مبكرا في القرآن في سورة البقرة، وهي السورة الأولى في ترتيب المصحف بعد سورة الفاتحة، وافتتاحية سورة البقرة ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدى لِّلۡمُتَّقِينَ** ﴾[١] جاءت مناسبة[٢] للإشارة إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾[٣]: لما سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم، قال لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه[٤]، وعن عبد بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿ **ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾؛ قال: "هو كتاب الله"[٥].

ويكاد يتفق جمهور المعاصرين على أن المحور الذي تدور حوله سورة البقرة هو الخلافة في الأرض ومقوماتها وأهلها. ويمكننا أن نقول إن محور سور البقرة يدور حول: منهج خلافة الله ﷻ في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه[٦]. فهذا المحور يتضمن : الحديث حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله ﷻ بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم ﵇ صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم[٧].

وقد تحدثت الآيات الكريمات عن بني إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة، من سوء أخلاقهم والتي مثلتها قصة البقرة أتم تمثيل:

١– ميلهم لسفك الدماء حتى مع الأنبياء، ولا شك أن القتل لا تصلح معه الخلافة.

٢– مجادلتهم، وعدم امتثالهم للأمر بسهولة.

٣– لم يتغلغل التوحيد في نفوسهم، ولذلك عبدوا العجل.

---

(١) - سورة البقرة، الآية رقم: ٢

((٢)) – المناسبة بين أمرين مرجعها إلى معنى رابط بينها، عام أو خاص، عقلي، أو حسي، أو خيالي، أو غيره من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه . وفي كتاب الله سبحانه تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها. وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها، وهذا من صور إعجاز القرآن الكريم. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤م، ٣/٣٧١، مسلم: مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، ط: دار القلم، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص ٥٨.

(٣) - سورة الفاتحة: الآية رقم: ٦

(٤) - السيوطي: جلال الدين (ت ٩١١ هـ)، أسرار ترتيب القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، مرزوق على إبراهيم، ط: دار الفضيلة، ص: ٥٥.

(٥) - الحاكم: محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ)، المستدرك على الصحيحين، ت: الفريق العلمي لمكتب خدمة السنة، ط: دار المنهاج القويم للنشر والتوزيع- الجمهورية العربية السورية ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م، حديث رقم: ٣٠٥٨. (ش)

(٦) - التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ص: ٢٨،٢٧.

(٧) - في ظلال القرآن، ٢٨/١.

٤– قساوة القلوب، بحيث لم يعد فيها خير [١].

ثم انتقل الحديث لمخاطبة المؤمنين وتكليفهم لحمل الأمانة العظمى في الكون، ومقومات استحقاق أمة الإسلام للقوامة والخلافة.

وفي الحديث عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **(مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهود والنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَى اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا :لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ :أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِي شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، قَالُوا :لَكَ مَا عَمِلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ).**[٢]

مجتمع المدينة في عصر الرسول ﷺ

العرب كانوا قبل الإسلام شتيتا متناثرا، لا يتجمع على شيء، وعلى الرغم من وجود مقومات التجمع الأرضية كلها – وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الثقافة، ووحدة التاريخ، ووحدة المصالح – لم تنشأ الأمة رغم مرور الزمن، بل كانوا قبائل متناحرة، تأكلها الحروب والثارات، وقبل ذلك مجافاة الهدي الرباني، حتى جاء الإسلام، وجعل منهم تلك الأمة الفذة.

ومع أنه لا شك أن صفات الخامة العربية قد أهلتهم ليكونوا تلك الأمة، إلا إن الذي فعل فيهم فعل السحر، وأخرج منهم في سنوات قليلة نسيجا غير مسبوق ولا ملحوق، عدة أمور:

١– القرآن الكريم

عاش الجيل الأول مع القرآن الكريم حياة كاملة – إن صح التعبير – فكل جملة، وكل عبارة، وكل توجيه، وكل أمر أو نهي، يصل إلى نفوسهم بشحنته الكاملة، ويحركها الحركة التامة المطلوبة، فكانت المعرفة للتنفيذ الفوري.

فهذا القرآن هو معجزة النبي ﷺ، وما يقوم به أعظم من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، الذي تنتهي إليه أحلام الجاهلين وتصوراتهم. إن مهمته هي إنشاء الإنسان في أحسن تقويم، وذلك أعظم عند الله ﷻ من كل ما يتصورون[٣].

إن هذا الكتاب المبارك أعاد ترتيب ذرات كيانهم – كما يعيد المغناطيس ترتيب ذرات الحديد – بتخلله في النفوس، حتى تصبح قوى كونية، وطاقات، بعد أن كانت مبعثرة ضائعة في التيه.

---

[١] - التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ص: ٣٣.

[٢] - صحيح البخاري، حديث رقم ٥٣٣.

[٣] - واقعنا المعاصر، ص: ٣٧.

فعل القرآن ذلك بنسقه اللغوي المعجز ، وقوة بيانه، ووضوح معانيه، وتشريعاته، وتوجيهاته، وتنظيماته، وقصصه، وأمثاله، وعِبره، وبتذكيره الدائم عظمة الله ﷻ، وقدرته المعجزة التي لا تحدها حدود.

وكانت (لا إله إلا الله) هي مفتاح القلوب، ومفتاح الطريق لهذه القلوب حين تتجه الوجهة الصحيحة، وتهتدي بنور الله ﷻ. فالإنسان عابد بفطرته، وإنما يختلف المعبود الذي يتوجه إليه العبادة. وعلى حسب المعبود يكون منهج الحياة، وهم قد اتبعوا المنهج الرباني الذي يُصلح الحياة البشرية والنفس البشرية. ولن يستقيم المنهج حتى يعلم المسلم صدقا ويقينا أنه لا إله إلا الله ﷻ.

و(لا إله إلا الله) هي أيضا الإعداد للجهاد؛ لأن القلب البشري يحتاج – لكي يدخل الجهاد بشتى أنواعه وشتى مخاطره– أن يؤمن مرة أخرى بلا إله إلا الله، وأن الله ﷻ هو المحيي المميت، الضار النافع، القابض الباسط، وإلا تزلزلت قدماه على الطريق عند أول اهتزازة تحدث في هذا الإيمان.

كما إن القلب البشري لا يصمد أمام الشهوات المحببة إلى النفس إلا أن يؤمن إيمان يقين أنه (لا إله إلا الله)، وأن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ**﴾[1].

وبلا إله إلا الله يسهل على الإنسان الانضباط في الحدود التي رسمها الله ﷻ دون أن يشعر بالحرمان، لأنه يعلم أن كل متاع زائد يشتهيه في الأرض، ويمتنع عنه طاعة لله لن يضيع.

٢– السنة المطهرة

السنة المطهرة مكملة القرآن وشارحته: ﴿ **وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[2].

والسنة قد أجملت ما قصه القرآن الكريم في موضوعات التشريع، وتوسعت في موضوعات الترغيب والترهيب في مقابل توسع القرآن في ذكر اليوم الآخر بمشاهده الأخاذة.

٣– وجود الرسول الكريم ﷺ بينهم

فقد كان لوجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين ظهرانيهم تأثير مباشر بالغ الأثر في تلك النفوس التي أحاطت به، وأحبته، وتربت على عينه، ونهلت من معينه، واتخذته الأسوة والقدوة، من طريق: الصحبة، والرؤية والسماع.

---

[1] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٤

[2] - سورة النحل، الآية رقم: ٤٤

والذين أحبوه والتصقوا به وعايشوه عن قرب، قد تأثروا به أكمل التأثر، فاستطاعوا أن ينهلوا من معين القرآن أكثر، ويكون استواؤهم على القمة السامقة أيسر. ذلك أن القرآن وإن كان معين لا ينضب، إلا إنه يعطي كل إنسان على قدر سعة الإناء الذي يغترف به، وعندما تتسع القلوب وتشف الأرواح بمصاحبة ذلك الروح العظيم ﷺ، تكون قدرتها على تشرب روح القرآن أكبر، وقدرتها على صحبة القرآن والعمل به أوسع وأعمق.

٤- النشأة الجديدة

كل نشأة جديدة تكون أنشط وأكثر حيوية، وأكثر فاعلية من الأجيال السابقة. فهذه النشأة الجديدة من ناحية قد أعادت تركيب النفوس على صورة جديدة، فتصبح نفوسا جديدة بالفعل، مذخورة الطاقة، حادة الفاعلية، ومن ناحية أخرى فإن مع النشأة الجديدة تكون التحديات أعنف وأشق وأقسى، وهذا من شأنه شحذ النفوس الحية، واستخلاص أقصى طاقة منها. وباجتماع الأمران معا نستطيع تصور الفاعلية الهائلة التي تكون لتلك النفوس وهي تعمل في واقع الحياة.

وهذا الجيل الفذ كان أقدر الناس على تقدير النعمة الجديدة حق قدرها، وهم الذين عايشوا الجاهلية، ثم انتقلوا إلى الإسلام. كما زاد من الأمر حرصهم على الإسلام، وحرصهم على أن يظل البناء الذي شيدوه تحت قيادته وإشرافه سليما من كل نقص[١].

أبرز السمات في جيل الصحابة

إن أبرز السمات الرئيسية للأمة الإسلامية قد تجسدت في جيل الصحابة:

١- صدق الإيمان، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة، وصدق الجهاد في سبيل الله ﷻ.

٢- تحقيق معنى أمة العقيدة في صورته الحقيقية.

٣- تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض.

٤- أخلاقيات لا إله إلا الله.

٥- الوفاء بالمواثيق[٢].

[١] - واقعنا المعاصر، ص: ١٥:٢٥.

[٢] - واقعنا المعاصر، ص: ٣٢.

وقد أخذت هذه الدولة الوليدة في التطور شيئا فشئيا، وأخذ شعبها في الزيادة، بدخول الناس في دين الله ﷻ أفواجا، واتسع إقليمها ليشمل كل الجزيرة العربية في حياة النبي ﷺ، وتطور دستورها وقانونها مع تتابع نزول الوحي[1].

*****

[1] ـ الدولة الإسلامية الأولى: دراسة في الجانب السياسي، ص: ٦٢١.

الفصل الثالث – دولة الخلافة الراشدة

خلافة النبي ﷺ

لم يحدد الدين الإسلامي للمسلمين نظاما محددا للحكم، لأن منطق صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان يقتضي ترك النظم المتجددة قطعا بحكم التطور للعقل الإنساني الرشيد، يصوغها وفق مصلحة الجماعة، وفي إطار الوصايا العامة والقواعد الكلية التي قررها هذا الدين، كالشورى والعدل ومنع الضرر والضرار. وعلى المسلمين أن يصوغوا لمجتمعاتهم نظما للحكم تقربهم من تحقيق هذه المثل العليا[١].

وقد قضت الضرورة في النظر العقلي والشرعي بقيام خليفة للنبي ﷺ بعد وفاته[٢]، وتحقق ذلك بإجماع الصحابة بالسقيفة على وجوب إقامة من يخلف رسول الله ﷺ عند وفاته، وكان ذلك الاختيار لأبي بكر ﷺ بالشورى والاختيار والعقد والبيعة لا بالميراث، ذلك طالما أن النبي ﷺ لم يوص بأحد لخلافته على رأس الدولة[٣].

ثم أوصى أبو بكر ﷺ باستخلاف عمر بن الخطاب ﷺ. أما عمر ﷺ فقد حدد ستة نفر من الذين مات الرسول ﷺ وهم عنهم راض، وعهد إليهم فيما بينهم لاختيار الخليفة، فاختاروا عثمان بن عفان ﷺ، وبعد مقتله ﷺ تولى الخلافة على بن أبي طالب ﷺ. وحسب العديد من الروايات، فإن علي ﷺ لم يقبل المنصب بسهولة، بل فُرض عليه من قبل الخوارج الذين احتلوا المدينة، وأجبروه على القبول بعد أن يئسوا في إقناع أحد الصحابة الثلاث الباقين من الستة الذين اختارهم عمر ﷺ، فأمهلوا سكان المدينة يومين وإلا قتلوا أهلها بما فيهم الصحابة. ولعل من الأسباب التي أربكت الإمام علي ﷺ هو خوفه من ضعف البيعة نتيجة غياب العديد من كبار الصحابة عن المدينة، بعدما غادروها استنكارا لما آل إليه الحال[٤].

والخلفاء الراشدون ﷺ قد سهروا على أن يُبايَعوا بالاختيار والرضا من قبل الأمة على أساس الشورى، قبل شروعهم في تولية مهام الدولة، وممارسة الحكم، وتسيير شؤون الأمة الإسلامية، فكانت خلافتهم ﷺ خلافة شرعية. وكانوا حكاما في خدمة شعبهم الذي اختارهم، ولم يُفرَضوا على الأمة من جهة معينة، فكانت العلاقة التي تربط الطرفين مميزة ونادرة في تاريخ البشرية، حيث التف المحكومين بحاكمهم، وأيدوه وعزروه في قراراته واختياراته، فقويت الدولة بذلك، وازدهرت، واتسعت رقعتها الجغرافية، وتعددت مواردها الاقتصادية.

---

[١] - الدولة الإسلامية الأولى: دراسة في الجانب السياسي، ص: ٦٢٢.

[٢] - كان للنبي (ص) صفتين: صفة النبوة، وصفة الحكم، فلما توفي انتهت صفة النبوة، لأنها لا تجوز لغيره، وبقيت صفة الحكم، وهي التي أصبح بها الخلفاء من بعده يطلق عليهم: خليفة رسول الله، أي خلفته على حكم الأمة.

[٣] - الدولة الإسلامية الأولى: دراسة في الجانب السياسي ، ص: ٦٢٣

[٤] - المصدر السابق، ص: ٦٢٧. نقلا عن عبقرة عمر لعباس العقاد.

وبتنازل الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ عام ٤١ هـ (عام الجماعة)[١]، تكون الدولة الإسلامية قد انتقلت من نظام الخلافة المثالية إلى الخلافة الواقعية، أو قد انحرفت الخلافة نحو الملك، بداية من حكم معاوية بن أبي سفيان ﷺ الذي لم تتم خلافته بالمبايعة الحرة أو الاختيار من الأمة، إنما من قبل الشام فقط ليبايعه الناس بعد عام الجماعة، لتزيد شدة الانحراف، عندما عهد بالخلافة لابنه يزيد، فحلت الوراثة محل البيعة[٢].

صفات المجتمع المسلم في عهد الخلفاء الراشدين

المجتمع المسلم في عهد الخلفاء الراشدين تميز بما يلي:

١- الإيمان الصادق العميق بالله ﷻ وباليوم الآخر.

٢- تطبيق تعاليم الإسلام بجدية واضحة، والتزام.

٣- أقل قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التاريخ.

٤- أعلى مستوى للمعني الحقيقي لأمة العقيدة.

٥- مجتمع قائم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من العقيدة.

٦- مجتمع مجند للعمل في كل اتجاه.

٧- مجتمع متعبد لله ﷻ [٣]

*****

---

[١] - كان من رأي جنود علي ﷺ أن يبايعوا الحسن بن علي ﷺ على الخلافة تعد قتل أبيه، فبايعوه، لكنه نظر إلى الظروف نظرة صائبة، ولم ير الخير إلا في التنازل لمعاوية، وبيعته، وسلم إليه الكوفة، أواخر ربيع الأول سنة ٤١هـ. الخضري: محمد، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية، ت: الشيخ محمد العثماني، ط: دار القلم، بيروت – لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ص: ٤٠٧.

[٢] - المصدر السابق، ص: ٦٢٧.

[٣] - كيف نكتب التاريخ، ص: ١٤٢،١٤١.

الفصل الرابع – الدولة الأموية

الانحرافات التي حدثت في الفترة الأموية

انحرفت سياسة الحكم في الفترة الأموية إلى وضع آخر غير ما كان الأمر عليه أيام الخلافة الراشدة، وأهم هذه الانحرافات هي :

١– الانتقال إلى الملك العضوض

كان اختيار الراشد الخامس: عمر بن عبد العزيز، فلتة في تاريخ الدولة الأموية، وبعد موته استمر الملك العضوض حائلا دون استمرار عملية التصحيح التي بدأها، وظلت المعاملة العنيفة للمعارضين والمعترضين تجعل جمهرة الناس يقيمون في داخل أنفسهم، ويتركون الاشتغال بالسياسة إلى غيرها من ألوان النشاط.

٢– وقوع المظالم على الناس، بسبب هذا الانحراف

ربما أدى إلى ذلك الانحراف: الخوف من اتساع رقعة الفتنة التي بدأها عبد الله بن سبأ، والتي قتل بسببها عثمان بن عفان ﷺ وما مر بالأمة بعدها من فتن، وكذلك كثرة الفتوحات مما أدى إلى وجود عدد كبير من الناس على حداثة عهد بالإسلام. وقد أدى ذلك إلى تضحية الصحابة ﷺ ببعض المُثل الإسلامية الرفيعة في سبيل الاستقرار. وقد تبدو جسامة الأثار التي ترتبت على هذين الانحرافين حين نرى العهود التالية تأخذهما كأنهما مبادئ مقررة، مما أدى إلى استقرار لون من الاستبداد الساسي في حياة المسلمين، كأنه أصل من أصول الحياة السياسية الإسلامية.

٣– البحبحة في بيت المال

حيث أباح الأمويون لأنفسهم الانفاق من بيت مال المسلمين لشراء الأنصار وتثبيت الملك، متأولين ذلك أنه من باب تأليف القلوب[1].

[1] ـ كيف نكبت التاريخ، ص: ١٢٧:١٢٩.

سقوط الدولة الأموية

كان لخلفاء البيت الأموي جملة من العيوب، كانت سببا في القضاء عليهم، وهي:

أولا – ولاية العهد

كانت ولاية العهد سببا كبيرا في انشقاق البيت الأموي، حيث أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر، لكن بدأ عبد الملك بن مروان وغيره بشق هذا البيت بتغيير تلك القاعدة. فظهرت الصراعات بينهم، وهبت أعاصير أخمدت أنفس البيت الأموي وجعلتهم أثرا بعد عين.

ثانيا – إحياء العصبية الجاهلية

تلك العصبية التي جاء الإسلام، وقضى عليها، وشدد على أن حياة الأمة الإسلامية لا تستقيم مع تلك العصبيات الجاهلية. لكن بسبب الصراعات الداخلية أججت تلك العصبيات مرة أخرى، ولم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية في قلب الأمة ذهاب البيت الأموي وحده، بل كان من ذلك ضعف الأمة الإسلامية نفسها، وتغلب الأعاجم على أمرها، حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية.

ثالثا – تحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في أمر قوادهم

حيث كان تحكيم بعض الخلفاء أهواءهم في أمر قوادهم، وذوي الأثر الصالح من شجعان دولتهم، السبب المتفرع عن السبب الأول والثاني. وكان من نتيجة ذلك أن فقدت الدولة البيوت التي كانت تواليهم، وكان لها أعظم الأثر في خدمة بني أمية، والأمة الإسلامية، ففسدت قلوب الناس، حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية[1].

المجتمع المسلم في العهد الأموي

لكن الإسلام رغم كل هذه الانحرافات في عهد الأمويين لم ينته ، بل إن التاريخ يسجل لهم حركة فتوحات واسعة، كانت أكبر هداية للناس في التاريخ، وأكبر نشر للحضارة الحقيقية الشامخة، والنور، وتحرير المستعبدين، وردهم إلى انسانيتهم الضائعة[2].

والمجتمع المسلم في العهد الأموي كان في المستوى العادي للإسلام، وهو في الأساس مستوى رفيع في حد ذاته، وإنه يحقق للناس معه الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه أي نظام آخر. كما إنه لم يخل المجتمع المسلم

---

[1] - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية، ص: ٥٧٣:٥٧٦.

[2] - كيف نكتب التاريخ، ص: ١٣٥:١٣٨.

في كافة عصوره من نماذج مثل النموذج الأول، إلا إن كثافة تلك النماذج لم تكن ككثافة النماذج في مجتمع الذروة[1].

*****

[1] ـ كيف نكتب التاريخ، ص: ١٤٢.

الفصل الخامس – الدولة العباسية

الانحرافات في العصر العباسي

أضاف الانقلاب العباسي على الخلافة الأموية، انحرافات جديدة، لم يكن لها وجود في عهد الأمويين:

١- الترف الذي أخذ يغشى قصور الخلفاء، ثم الأمراء والوزراء، ثم التجار والأغنياء، ثم أفراد الشعب، في المدن، في نهاية المطاف.

٢- جعل العباسيون الوراثة بالدور، حتى إذا جاء الدور على طفل ولوه، بينما كان الأمويون يحرصون على اختيار أصلحهم للحكم.

٣- أما العنف فيكفي في بيان حقيقته ومداه: أن يُطلق على مؤسس الدولة لقب: (السفاح)، من كثرة ما سفك من الدماء.

٤- أما عن البحبحة في بيت المال، فحدث ولا حرج. ثم إنهم قد أنشأوا أيضا بيت مال خاص تتجمع فيه وفورات أموال الخليفة، مما يستولى عليه من الموارد العامة. وهذا هو الترف المدمر الذي لا يصيب أمة من الأمم ثم تبقى على تماسكها وترابطها وجديتها.

٥- من أخطر الانحرافات في العصر العباسي: ما جاءت به الفتوحات الإسلامية الواسعة، من سبايا شقراوات فاتنات من بلاد الروم، ويظهر خطرهن مما يلي:

أ- بقين على يهوديتهن أو نصرانيتهن، وبقين على كيدهن للإسلام.

ب- شَغلهن الخلفاء والأمراء عن أمور الدولة، فتسلمتها أيدي غير أمينة، مما أدى إلى ظهور الانشقاقات في الأسرة الحاكمة، حتى وصل الأمر إلى حد حرب الأمراء بعضهم بعضا، واستخدام جيوش الإسلام في هذه النزاعات المنحرفة، بدلا من الجهاد في سبيل الله ﷻ.

ج- ظهور الجواري المغنيات، اللاتي صار تدريبهن على الموسيقى للترف والترفيه صنعة من صناعات المجتمع العباسي الرابحة.

٦- عاث الفرس – من كان منهم لا زال حاقدا على الإسلام – الفساد في المجتمع الإسلامي، بشعرائهم، وأدباءهم، والخلعاء منهم، ومتحلليهم، وزنادقتهم، لفتنة المجتمع الجاد عن جدية الإسلام، ورفعة أهدافه، وشغله بسفاسف الأمور، وشغله عن صفاء العقيدة بعقائد منحرفة.

٧- الغزو الثقافي الإغريقي متمثلا في المنطق والفلسفة، وما أدى إليه من ظهور الفِرَق وعِلم الكلام، وهو لوثة أصابت المثقفين، فظهرت الفرق الزائغة عن الإسلام.

٨- ظهور الصوفية، كمظهر مجتمعي جماعي، ربما كرد فعل لكثير من الانحرافات في آن واحد، حيث اعتزل الصوفية المجتمع الفاسد، ولجأوا إلى (الذكر) يرضون به عواطفهم الدينية، ويبتعدون به عن الدنس والأقذار، أو إشباعا للتطلعات الوجدانية، في مقابل جفاف الدراسات السائدة في ذلك الزمان.

وأيا كانت الأسباب التي أدت إلى انتشار الصوفية، فهي انحراف من أخطر ما وقع في العالم الإسلامي من انحرافات، سواء من ناحية الأفكار الإلحادية الهندية، أو من ناحية سلبيتها، وتواكلها، وقعودها عن العمل الإيجابي في واقع الحياة.

وحين تراكمت هذه الانحرافات، وبلغت مداها خلال أربعة قرون أو خمسة، جاء الصليبيون ثم جاء التتار[١].

الصلة بين التصوف والتشيع

رغم ما يبدو من خلاف بين التصوف والتشيع؛ فإن هناك ما يشير إلى وجود أصول مشتركة بينهما، ويظهر ذلك أحيانا في صورة تأثير التشيع على الحركة الصوفية في الجملة. وقد عرض بعض الباحثين المعاصرين إلى ظاهرة الصلة بين التشيع والتصوف، فأثبت وجود صلة بينهما في الانتماء التاريخي؛ إذ إن سلاسل الصوفية تلتقي مع الشيعة في الإمام السادس من أئمتهم، كما أن هناك مظاهر مشتركة بين معتقد الإمامة لدى الشيعة والولاية لدى الصوفية، إلى غير ذلك من مسائل وأفكار متشابهة بين الطائفتين[٢]- [٣].

حسنات العصر العباسي

رغم الانحرافات التي حدثت في العصر العباسي، إلا أن الإسلام لم ينته، فمن ناحية كان داخل هذه القرون حركة حية موارة في كل اتجاه، ونخص بالذكر: الحركة العلمية، والحركة الحضارية، حيث كانت صلتهما بالإسلام سبب تميزهما وتفردهما، فلم يحدث قط صراع بينهما وبين العقيدة.

---

[١] - كيف نكتب التاريخ، ص: ١٤٤:١٥١.

[٢] - موقع الدرر السنية. موسوعة الفرق، تمهيد: ارتباط التصوف بالتشيع https://dorar.net/frq/٢٦٤٩/تمهيد-ارتباط-التصوف-بالتشيع

[٣] - للتوسع في موضوع صلة التصوف بالتشيع، يُنظر: الشيبي: كامل مصطفى، الصلة بين التصوف والتشيع، ط: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ١٩٨٢م.

١- الحركة العلمية الإسلامية

انبثقت هذه الحركة من العقيدة، ونمت وترعرعت في ظل العقيدة، فكون (**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضةٌ على كلِّ مُسلمٍ**)[١] صان الحركة العلمية عن أن تستخدم في إفساد العقيدة أو الأخلاق، وجعلها تعبدا أو تقربا إلى الله ﷻ، وهذا ما منع استخدام العلم في التدمير والخراب والشر. وعلى كلٍ فإن دراسة الحركة العلمية الإسلامية كمنهج دائم، أمر هام ونحن نحاول استعادته في واقعنا المعاصر.

٢- الحضارة الإسلامية

حيث كان ارتباط هذه الحضارة بالعقيدة أيضا، سببا لأن تكون حضارة قيم، لأنه حين تفقد الحضارة القيم، تؤول إلى السقوط[٢].

سقوط الدولة العباسية

يقول المؤرخون إن جمهور البغداديين كان يتألف في تلك الفترة من أهل السنة (الجمهور الأكبر)، والشيعة، وكانوا في نزاع مستمر، أدى إلى حروب وشدائد بينهما، رائدها الجهل والغفلة عن المصالح. وكان وزير الخليفة المستعصم: ابن العلقمي من رجال الشيعة، وكان يسوؤه ما يلقاه أهل مذهبة من اضطهاد أهل السنة لهم، وكان يزيد في مساءته أن أهل البيت العباسي كانوا يساعدون أهل السنة، لإنهم عماد بيتهم.
وقد حدث أن أغار أهل السنة على الكرخ، وهو محلة الشيعة، فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم، وكان ذلك بأمر أبي بكر- أحد أولاد الخليفة المستعصم. فيقال أن الوزير ابن العلقمي (على هذا أكثر المؤرخين) قد راسل هولاكو يحرضه على قصد بغداد، ويطمعه فيها، وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية، ولا يهمه بعد سقوط عدوه من يتولى الملك بعده.
فسارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة في بغداد عام ٦٥٦ هـ، ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف، واكتفى بقفال الأبواب. فجد المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام. وخرج المستعصم إلى هولاكو ومَثَّل بين يديه، وقدم له جواهر نفسيه، ولآلئ ودرر معباة في أطباق، ففرق هولاكو

---

(١) - هذا الحديث ضعفه بعض العلماء، لكن حسنه آخرون، بكثرة طرقه وشواهده، مثل: المزي، والزركشي، والسيوطي، والسخاوي، والذهبي، والمناوي، والزرقاني، وهو في صحيح ابن ماجة. وعلى القول بصحة الحديث، فإنه يشير إلى العلم الشرعي الذي هو فرض عين (غير الفرض الكفائي)، وهو ما يصحح به الإنسان عقيدته وعبادته، وما لا يسعه جهله، كمعرفة التوحيد، وضده الشرك، وأصول الإيمان، وأركان الإسلام، وأحكام العبادات، ونحو ذلك.
موقع الإسلام سؤال وجواب، سؤال: هل توجد أي أحاديث شريفة في فضل طلب العلم في المدينة المنورة؟. برقم: ٩٥٨٩٧، https://islamqa.info/ar/answers/٩٥٨٩٧/هل-صحت-احاديث-في-فضل-طلب-العلم-في-المدينة-النبوية

(٢) - كيف نكتب التاريخ، ص: ١٥٣:١٥٩.

ذلك على أمرائه. واصطحب المستعصم معه، وقتله وابناه الأكبر والأوسط ومعهم جماعة من الخواص. وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة. أما بغداد دار الخلافة، وعاصمة الملك، فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية، فقد قتل معظم أهلها، وقليل منهم من نجا، واستبقى المغول جماعة من الشيعة والنصارى، وسكان بغداد، بعد أن أفنى أكثر أهلها[١].

حال الدولة الإسلامية عند سقوط الدولة العباسية

عند سقوط الدولة العباسية كان في العالم الإسلامي ما يلي من الدول الإسلامية:

١- غرناطة بالأندلس.

٢- دولة الموحدين، بشمال إفريقيا.

٣- الدولة الزيانية، بالجزائر.

٤- الدولة الحفصية، بتونس.

٥- الدولة المرينية، بمراكش.

٦- دولة المماليك البحرية، بمصر.

٧- الدولة الرسولية، باليمن.

٨- الإمام الزيدي: المتوكل شمس الدين، بصنعاء.

٩- ركن الدين قليج أرسلان الرابع، من السلاجقة.

١٠- الدولة الأرتقية، بماردين.

١١- الأتابكية السلغرية، بفارس.

١٢- الأتابكية الهزارسبية، ببلورستنان.

١٣- دولة قتلغ، بكرمان[٢].

* * * * *

---

[١] - الخضري: محمد، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، ت: الشيخ محمد العثماني، ط: دار القلم، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، ص: ٥٥٠:٥٥٢.

[٢] - المصدر السابق، ص: ٥٥٣،٥٥٤.

الفصل السادس - الدولة العثمانية

نشأة الدولة العثمانية

لم تنشأ الخلافة العثمانية في الأصل نتيجة المبايعة الحرة العامة، بل قامت على القوة والغلبة، ولم تكن مستوفية للشروط التي يريدها الإسلام، وقد جرت على نظام الوراثة، إلا إنها ظلت تمثل قوة الإسلام، ووحدة أكثرية المسلمين، وقامت طويلا بواجب الدفاع عن الأوطان الإسلامية، وحفظ كيانها، واعترف المجتمع الإسلامي بالولاء لها، ولرئيسها على أنه الخليفة الواجب طاعته ومعاونته.

لكن لما اعترى الوهن هذه الدولة وضعفت عن القيام بواجب الدفاع الذي ينتظره منها المسلمون، وعن العمل لحفظ قوة الإسلام وعزته، فقدت أساس وجودها كقائد للعالم الإسلامين ووجب أن تنتقل هذه القيادة لدولة إسلامية أخرى[1].

ولقد كانت فترة الخلافة العثمانية فترة عجيبة حوت كثيرا من المتناقضات: فقد كانت فترة مد وانحسار في آن واحد، بصورة لم يكن لها مثيلا في التاريخ. فقد كانت:

– مد عسكري هائل مكتسح متفوق، وقوة سياسية مرهوبة الجانب في العالم أجمع. وفي نفس الوقت: انحسار فكري وحضاري، وفقر في العلم والفقه.

– حماسة دينية ملتهبة، وإخلاص متفان في خدمة الإسلام، لكن بغير وعي كاف بحقائقه، ومراميه.

ثم آل الأمر في النهاية، إلى انحسار سياسي، وعسكري، وفكري، وعلمي، ووقع في تلك الفترة من الانحرافات والمساوئ شيء كثير. إلا أن الصورة في مجموعها ليس بالسوء الذي صُوِّر عن عمد، ومن الحقائق التي يجب أن تُعلم:

١– العثمانيون هم أبغض المسلمين جميعا إلى أوروبا الصليبية، لأنهم توغلوا بالغزو العسكري في داخل أوروبا، أكثر مما توغل الفتح العربي، كما إنهم استولوا على القسطنطينية، التي كانت موضع فخرهم، واعتزازهم، على مدى قرون طويلة، وكانت مركز الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

٢– القوة العسكرية للدولة العثمانية هي التي وقفت في وجه المطامع الأوروبية الصليبية في النفاذ إلى العالم الإسلامي من جهة الشرق للاستيلاء على بيت المقدس.

---

[1] ـ النظريات السياسية الإسلامية، ص: ٢٠٧.

٣- الصهيونية العالمية تبغض الدولة العثمانية لرفض السلطان عبد الحميد إعطاء اليهود وطنا قوميا في فلسطين، فتعاونوا مع الصليبية العالمية لتشويه صورة الدولة العثمانية والقضاء عليها.
٤- المخطط الصليبي الصهيوني كانت له مصلحة قوية في تفتيت الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، حتى يمكنهم ابتلاعه بسهولة، لذلك أثارة الكراهية بين العرب والأتراك[١].

مزايا العثمانيين

١- العثمانيون كانوا دماء جديدة بالنسبة للواقع الإسلامي المتفكك المترهل، الذي أوصل العباسيون إليه المجتمع الإسلامي في نهاية أيامهم. فبعثوا فيه القوة من جديد، وأعادوا إليه جديته، وحولوه من عجزه ويأسه، إلى قوة مقتحمة، تصنع الأمجاد، وتثير الاعتزاز في نفوس المسلمين، واستمر ذلك حتى آخر أيامها.
٢- كانوا عبقرية حربية وسياسية فذة، دوخت أوروبا الصليبية في مناوراتها عدة قرون، وظلت القوة العسكرية للعثمانيين تمنع وتزجر وترهب أوروبا لمدة أربعة قرون على الأقل.
٣- كانوا مخلصين للإسلام، راغبين في نشره وجعله ذا سلطان في الأرض، واهبين قوتهم كلها لعزته ونصرته.
٤- حفظوا وحدة العالم الإسلامي من التفكك عدة قرون[٢].

عيوب العثمانيين

١- كانوا أول خلافة إسلامية ذات لسان غير عربي، ولم يستعربوا، وكان ذلك معوقا عن التفقه في هذا الدين رغم الحماسة الظاهرة له.

٢- رغم حماسهم للإسلام لم يكونوا قد تشربوا روحه تماما، ولذلك ظلوا محتفظين ببعض نظمهم وتقاليدهم الجاهلية، كنظام الإقطاع بكل مظالمه الاجتماعية والاقتصادية في ربوع الأرض التي حكموها (نظام الباشوات).

٣- في سبيل الاحتفاظ بوحدة الدولة وعدم تفككها على أيدي الولاة الطامعين – كما حدث في العصر العباسي – استخدموا نظاما إداريا كانت مساوئه أكثر من محاسنه، حيث كانت فترة الولاية القصيرة تجعل هَمّ الولاة جمع المال، فزاد ذلك من المساوئ.

(١) – كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: ١٧٦:١٧٩.
(٢) – المصدر السابق، ص: ١٨٠.

٤- بسبب نزعتهم العسكرية تعاملوا مع البلاد التي فتحوها بلون من الشدة، ليست من روح الإسلام الذي يجعل خيلاء العسكرية في ساحة الحرب وحدها. وإذا كان الشعب التركي يتحمل هذه النزعة لوجودها عنده، إلا أن البلاد المفتوحة لم تطق قسوتهم، وهذا مما استغله الأعداء في إثارة النعرات القومية وعمليات التفتيت.

٥- بسبب عدم تفقههم في الدين، رفضوا إعادة فتح باب الاجتهاد الذي كان قد أغلق في نهاية العصر العباسي، لتوهمهم أنه قد قيل في الفقه كل ما يمكن أن يقال، وكان هذا من أهم أسباب تجمد الفقه، وركوده في وقت كان قد جد في حياة الناس ما يستلزم إعادة فتح باب الاجتهاد، للإحاطة بذلك الجديد، وضبطه بضوابط الشريعة. وكانت النتيجة أنه حين ضغطت الحوادث دون غطاء لها من الشريعة أن فتحت ثغرة استغلها اليهود والنصارى المتربصون، فدسوا على السلاطين (قوانين) أو (تنظيمات)، مستمدة من النظم الأوروبية، على أساس أنها لا تخالف مقاصد الشريعة الإسلامية، فكان هذا هو المنزلق الذي أدى في النهاية إلى وهم أن الشريعة موكلة بما كان في الماضي، أما ما يجد فيطلب من النظم الأوروبية، فسهل على العابثين بعد ذلك تقليص الشريعة في قوانين الأحوال الشخصية، واستدراج الأمة إلى الانسلاخ منها تدريجيا، والحكم بغير ما أنزل الله ﷻ.

٦- لما اتسع نطاق الدولة العثمانية، دفعها الغرور إلى اعتبار نفسها الدولة العظمي في الأرض، فتراخت، وأترفت، ولم تعد كما كانت في أول عهدها.

وقد تأثر المجتمع الإسلامي في العهد العثماني بجميع انحرافاته، حيث أنه بعد طول المرض في العهد العباسي، قد فقد المجتمع كثيرا من قدرته على افراز الأجسام المضادة التي تقاوم الأمراض، فكان أشد ما أصاب المجتمع الإسلامي ما يلي:

أ- تحول الدين تدريجيا إلى تقاليد تُراعى إلى حد التقديس، ولكنها خاوية من الروح.

ب- تحول الدين إلى طرق صوفية، ملأت أرجاء العالم الإسلامي، بشكل ملحوظ، وهي بروحها السلبية كانت عائقا عن الحركة الحية، في واقع الحياة، فضلا عن انحرافات العقيدة التي لا يتقبلها الإسلام، كما كانت الصوفية طريقا لانتشار التشيع في العالم الإسلامي، ومدخلا لها.

وفي النهاية أصبح الدين مجموعة من الخرافات عن المشايخ والأولياء، وأصحاب المقامات، وأصحاب الكرامات، شغلت الناس عن حقيقية الدين الواعية، وكونه نظاما واقعيا، يشمل كل الحياة، وشغلتهم عن اتخاذ الأسباب بالتطلع إلى خوارق العادات.

وهذا التحول الخطير في فهم الناس للدين، وفي طريقة ممارستهم له كان له أثره الخطير في تحول خط التاريخ الإسلامي، برغم المد العسكري الذي قام به العثمانيون في أوروبا وآسيا، وكان هذا في الحقيقة بداية الانحسار [1].

---

[1] - كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: ١٨١:١٨٤.

عوامل ضعف الدولة العثمانية[1]

لم يعرف التاريخ الإسلامي دولة بلغت من المجد والازدهار وعلو الشأن، ما بلغته الدولة العثمانية، فقد اتسعت لتشرق شمسها على بقاع واسعة من العالم القديم، وتجمع تحت ظلال سلطتها شعوب متعددة الأعراق والأنساب والأديان، لمدة تزيد على ستة قرون. إلا أن تلك الدولة ما لبثت أن أصابتها أدواء الضعف، وألقت بها في مهاوي التخلف والانحطاط.

إن الدول لا تنهار عادة لطارئ واحد يلم بها، أو لداء منفرد يصيبها، وإنما تحتاج لسقوطها اجتماع عوامل عديدة، تصيب أجهزتها، وتستنزف مواردها، وتلقي بها إلى نهايتها، إلا أن بعض تلك العوامل تكون أشد فتكا بأركان الدولة، وأدعى إلى انهيارها من غيرها. ونشير إلى بعض تلك العوامل فيما يلي:

الأسباب الاقتصادية

١- لعبت سيطرة الدول الأوروبية الحديثة على الممرات والطرق التجارية والبحرية، إضافة إلى سيطرتها على السواحل الشرقية لأفريقيا، وسواحل عُمان، وبعض موانئ الخليج العربي، وضربها للأساطيل التجارية العثمانية في المحيط الهندي، وبحر العرب، دورا مهما في تدفق الثروة إليها، وإفقار الدولة العثمانية. يضاف إلى ذلك مرور الطرق التجارية البرية بمناطق طالما عصفت بها الحروب والثورات، وهددت سبلها: قلة الأمن، وغياب الاستقرار، وانتشار الفوضى وقطاع الطرق.

٢- أدى اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وتغير الطرق التجارية العالمية إلى جعل اقتصاد الدولة العثمانية قائما بالدرجة الأولى على النشاط الزراعي، وكانت الإمبراطورية العثمانية تفتقر إلى المصانع لمواكبة بريطانيا وفرنسا وروسيا، وكانت نتيجة ذلك ضعف النمو الاقتصادي للدولة العثمانية، كما إن الفائض الزراعي الذي كانت تنتجه الدولة العثمانية، كان يذهب لسداد قروض الدائنين الأوربيين.

٣- كان نظام الاقطاع العسكري العثماني يغذي كتائب الخيالة في جيوش الدولة بعشرات الآلاف من الفرسان ويؤمن نفقاتها دون اللجوء إلى خزائن الدولة، ولم تكن كتائب الانكشارية المشاة - رغم دورها البارز في كسب المعارك ونجاح الحملات العسكرية - ذات أعداد كبيرة نسبيا، في النصف الأول من عمر الدولة العثمانية، وبالتالي لم تكن هناك نفقات كبيرة محملة على خزائن الدولة.

[1] - محفوض: خالد، ما هي العوامل التي أدت لانهيار الدولة العثمانية؟ مدونة على موقع الجزيرة مدونات، يوم ٢٩ سبتمبر ٢٠١٩. https://www.aljazeera.net/blogs/٢٩/٩/٢٠١٩/ما-هي-العوامل-التي-أدت-لانهيار-الدولة، موقع الجزيرة، ستة أسباب أدت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، منشور على موقع الجزيرة، يوم ٢٨ مارس ٢٠٢٣. https://www.aljazeera.net/culture/٢٠٢٠/٣/٨/ستة-أسباب-أدت-إلى-سقوط-الإمبراطورية، سعد: آلاء، أبرز العوامل التي ساهمت في ضعف الدولة العثمانية، مقال على موقع مرسال، يوم ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣ https://www.almrsal.com/post/١٠١٩٠٥٣

٤- بسبب التطورات الحديثة التي طرأت على تسليح الفرق والكتائب العسكرية في ذلك الوقت، ظهرت الحاجة إلى جيش مدرب احترافي يرابط بالثكنات، خاصة في ظل عدم قدرة كتائب الفرسان على حسم المعارك، والانتصار بالحملات العسكرية، مما أدى إلى زيادة أعداد الانكشارية، وبالتالي زيادة العبء على خزائن الدولة.

الأسباب السياسية

١- الافتقار المتزايد لقدرة وقوة السلاطين العثمانيين.

٢- عدم تماسك الدولة العثمانية بدرجة كافية.

٣- طموح الدول الأجنبية في زوال الدولة العثمانية.

٤- تدخل الانكشارية في القرارات التي لا تحقق مصالحهم.

الأسباب العسكرية

١- رغم الزيادة في الإنفاق العسكري بشكل كبير على كتائب الإنكشارية، إلا أن أفراد تلك الكتائب أصبحوا يثورون أكثر مما يحاربون، وأصبح التمرد في ساحات المعارك طبعا ملازما لهم، وركنوا إلى تجميع الثروات، وانحصرت مهمتهم في التحكم بمقاليد الأمور، ومعارضة السلاطين، في كل أمر لا يصب في مصالحهم، ولا يشبع رغباتهم.

٢- شكلت الإمبراطورية الروسية أكبر مصدر تهديد للإمبراطورية العثمانية، وكان تهديدا وجوديا حقيقيا.

٣- دعمت روسيا والنمسا للقوميين المتمردين في البلقان، لتعزيز نفوذهما هناك، وكان البريطانيون والفرنسيون حريصين على اقتطاع الأراضي التي تسيطر عليها الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا.

٤- ربما كان وقوف الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، السبب الأهم وراء زوال الدولة العثمانية، حيث أدت هذه الحرب إلى تفكك الدولة العثمانية بسبب انحيازها إلى الطرف الخاسر، وعندما انتهت الحرب، قرر المنتصرون تقسيم أراضي الدولة العثمانية فيما بينهم.

الأسباب الاجتماعية

١- كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية بامتياز، حيث كان جل مواردها مخصص للإنفاق على الجيوش والحملات العسكرية، في الوقت الذي كان فيه إجمالي ما يصرف على الصحة والتعليم والتنمية، لا يعادل عشر ما تنفقه الدولة على الدفاع، وقد أدى إهمال المشاريع التنموية، وإهمال المرافق العامة، إلى تعميق حالة الركود

الاقتصادي، الأمر الذي أضاع معه عائدات كبيرة، كان بإمكانها أن تملأ خزائن الدولة، وتسهم في رفاهية مجتمعاتها.

٢- بلغت نسبة الأمية في معظم الدول العربية في أوائل القرن العشرين نسبة التسعين بالمئة. ولذلك أصحبت أكثر المشاريع التنموية والعمرانية، في أواخر عهد العثمانيين لا تقوم إلا على أكتاف المهندسين والفنيين الأوربيين.

٣- رغم أن حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة التركية قد أوقدت جذوتها في عهد السلطان أحمد الثالث، إلا أن هذه الحركة قد اصطدمت بمجتمعات كان جل أبنائها أميون يعيشون في حالة من الفقر والعوز.

٤- لم يكن الاقتباس عن الأمم الأوروبية مقتصرا على العلوم البحتة وحسب، بل امتد ليشمل الآداب والفلسفة، والعادات، وطرق الحياة والملبس والمأكل والمشرب، وما يؤدي إليه من تأثيرات سلبية على المجتمعات المسلمة.

٥- نظام الامتيازات الأجنبية الذي عمل به السلاطين العثمانيون، والذي كان يهدف في عهد ازدهار الدولة إلى تشجيع التجارة في البر العثماني لزيادة واردات الدولة الضريبية، إلا أن تلك الامتيازات قد ساهمت بشكل أو بآخر في فصل الأقليات في الدولة العثمانية عن باقي مكونات المجتمع، وحولت ولاء كثير من أفرادها إلى أوروبا وزعمائها.

٦- التنوع الهائل في العرق واللغة والاقتصاد والجغرافيا، لم يكن يناسب المجتمعات المتجانسة الحديثة، ودرجت الشعوب المختلفة التي كانت جزءا من الإمبراطورية، على التمرد بشكل مضطرد، مما أدى بالدولة العثمانية إلى السماح لعديد من الدول بالاستقلال المصحوب بالتنازل عن المزيد من الأراضي.

*****

الفصل السابع – الفتن والحركات الباطنية في الدولة الإسلامية في العصور المختلفة

أولا – الفتن في عهد الخلفاء الراشدين

دخل الفرس في دين الله ﷻ بعد هزيمتهم الحربية التي ما كانوا يتوقعونها على يد العرب بالذات، وبعد زوال الملك الممتد الجذور في التاريخ الذي لم تغنه جذوره العميقة في معركة الحق، فانهار في لحظات.

وكان الجيل الأول ولا شك ينطوي على ضغينة هائلة للعرب الفاتحين، حتى وأن كان قد دخل في الإسلام.

ويبدو أنه بعد أن انهزم الفرس لم يكن من سبيل أمام كثير من الفرس إلا أن يتظاهروا بالدخول في الإسلام، مع وجود قلة قليلة هم الذين حسن إسلامهم، واستقاموا على منهج الله ﷻ [1].

وبدأت المجوس (الفرس) في الانتقام من المسلمين، وكيف لا ؟ وهم الذين أُشربوا حب الغدر والتآمر، ومردوا على الكيد والفوضى، وكان أول أعمالهم اغتيال الفاروق عمر ﷺ بوصفه من كان وراء فتح بلادهم، وزوال ملكهم.

وقد بدأت المؤامرة بتسلل أبو لؤلؤة المجوسي والهرمزان إلى مدينة الرسول ﷺ واتخاذها موطنا لهما، وكان عمر ﷺ لا يحب أن يكثر الفرس والروم في المدينة.

وفي عام ٢٣ هـ، وبينما كانت آخر حصون الفرس تتهاوى أمام الفتح الإسلامي، أقدم أبو لؤلؤة على طعن عمر بن الخطاب ﷺ بخنجر مسموم، كان قد صنعه لهذا الغرض. – يلاحظ أن الرافضة قد استمروا في سب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بعد وفاته، حتى الآن ، فمن منهجهم شتم عمر ﷺ، وما ذلك إلا أنه طهر الأرض من ظلمهم وأطفأ بيوت نارهم في فارس[2].

وفي عام ٣٥ هـ، لما وقع الخلاف المشهور بين على بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – انتهز المجوس (الفرس) الفرصة مرة أخرى لتفريق كلمة المسلمين، وإضعاف شوكتهم، وخاصة أن الدعوة لآل البيت تجد رواجا لدى جميع المسلمين، وخاصة عند العامة.

حيث وقف عبد الله بن سبأ (اليهودي) وأنصاره في صف علي، فالتحمت مؤامرات اليهود مع مؤامرات المجوس الذين أرادوا من وراء الدعوة لآل البيت تحقيق الأهداف التالية:

---

[1] - واقعنا المعاصر، ص: ١١٤، الغريب: عبد الله محمد، وجاء دور المجوس – الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية، ط: مكتبة الرضوان ٢٠٠٥، ص: ٥٨.

[2] - وجاء دور المجوس، ص: ٥٨.

١- في التشيع لآن البيت إحياء لعقائد (زردشت، ومانو، وفردك) حيث لابد من وجود عائلة مقدسة تتولى شؤون الدين، ويكون فيها الحكام، وسدنة بيوت النار، كعائلة (ميديا، والمغان). فأشاعوا في الناس أن آل البيت هم ظل الله ﷻ في الأرض، وأن أئمتهم معصومون، وتتجلى فيهم الحكمة الإلهية.

٢- عند فتح فارس تزوج الحسين بن علي – رضي الله عنهما- (شهربانو) ابنة (يزدجرد) بعد ما جاءت مع الأسرى، وكان هذا الزواج من الأسباب التي ساعدت على وقوف الإيرانيين مع الحسين ؓ بالذات، لأن الدم الذي يجري في عروق (على بن الحسين) بالذات دم فارسي من قبل أمه، من سلالة الساسانيين، المُقدسين عندهم، وفي تشيعهم لآن البيت إحياء لعقيدة المجوس.

وبعد الحادث الأليم الذي أودى بحياة أمير المؤمنين (على بن أبي طالب) ؓ راح اليهود والمجوس يدفعون أنصار على لقتال بني أمية، ووجدت الدعوات الباطنية فراغا، فأخذت تنشط، وظهر منها:

أ- السبيئة: نسبة لعبد الله بن سبأ الذي نادى بألوهية علي بن أبي طالب ؓ.

ب- الكيسانية: أصحاب كيسان مولى علي بن أبي طالب ؓ.

وغير ذلك.

ثم ظهرت وكثرت الدعوات الباطنية، وإن كان جوهرها ومضمونها واحد، وإن اختلفت الأسماء. فجوهر الحركات الباطنية المجوسية واحد على مدار التاريخ.

فحركة: مزدا، وزردشت، والمانوية، والمزدكية، لا تختلف في أصولها العامة عن: الكيسانية، والراوندية، والبرمكية، والزنادقة. وهذا لا تختلف عن: البوهيين، والعبيدين (الفاطميين) ، والقرامطة. وهؤلاء لا يختلفون عن: الصفويين، والدروز ، والنصيريين، والحشاشين، والبهائيين. وهذه الحركات والفرق تأثرت باليهود والنصارى والبوذيين.

ومن هنا ندرك أسرار المؤامرات التي يتعاون في تخطيطها وتنفيذها: دول الغرب الصليبية، واليهود، والشيوعيون، وسائر الفرق الباطنية، ضد المسلمين السنة.

ومن هنا نعلم أيضا أن رفع الشيعة لشعار (آل البيت) وعصمة الأئمة في أصله معتقد مجوسي، وجميع الحركات الباطنية كانت تعتقد بعائلة دينية مقدسة[١].

---

[١] - وجاء دور المجوس، ص: ١٠٢،١٠٣.

ثانيا – الفتن في العصر الأموي

تراجعت هذه الحركات أمام تخطيط بني أمية، الذين ضربوا بيد من حديد، وظن الناس أنه لن تقوم قائمة للفرس بعد خلافة معاوية ﷺ، إلا إن معظم الناس كان يجهل تاريخ أديان الفرس، وقدرتهم على التحول من العلنية إلى السرية. ولم يكن بنو أمية نياما، ولكن التنظيم أقوى من الفوضى، وما كانت الفرقة والتناحر والترف الحاصلة في العصر الأموي قادرة على دحر التخطيط والعمل الجاد المستمر السري للحركات الباطنية.

ثالثا – الفتن في العصر العباسي

يبدوا ان الأجيال التالية من الفرس أيضا قدر ورثوا ما كان في قلوب آبائهم من ضغن، وحافظوا عليه وسعوا للإفساد من الداخل، حين قام الشعوبيون بالانقلاب العباسي ضد الدولة الأموية، وهو انقلاب فارسي في الحقيقة، وإن كان الحكم قد ظل للعرب فترة من الوقت – في الظاهر على الأقل– إلا إنهم قد بدأوا في نشر سمومهم الشعوبية، من داخل الدولة، كما فعل ابن المقفع، أو نشر الفسق والفجور في المجتمع كما فعل بشار، وأبو نواس.

ولقد كانت الشعوبية الفارسية هي رد الفعل للكبت الي زاوله الأمويون على الفرس، حتى وإن كان بحسن نية، وحرصا خالصا على الإسلام[١].

وقد ظل الحال في العهد الأموي على ما هو عليه، حتى عام ١٢٩ هـ، عندما ظهر أبو مسلم الخراساني، قرب (مرو) واحتلها عام ١٣٠ هـ، ثم سقطت خراسان كلها بأيدي العباسيين، وبعدها وجه أبو مسلم جيوشه إلى العراق، فاحتلها، وأظهرت هذه الحركة (أبو العباس السفاح) من مخبئه، وبويع له بالخلافة عام ١٣٢ هـ. ومن هنا بدأ حكم الفرس فعلا، وكان خلفاء بني العباس أشبه بالضيوف، باستثناء وقفات طيبة من بعض خلفائهم تكاد لا تذكر من ندرتها[٢].

---

(١) - واقعنا المعاصر، ص: ١١٤،١١٥.

(٢) - وجاء دور المجوس، ص: ٥٩:٦٥.

رابعا – الفتن في العصر العثماني

نعرض فيما يلي بعض نماذج من الفتن التي حدثت في العصر العثماني:

١– فتنة الإنكشارية

اعتمد العثمانيون منذ نشأتهم على القوة العسكرية، على اعتبار أنها العامل الرئيسي في نشر الإسلام، وبهذا أصبح الجيش في الدولة العثمانية شريانا رئيسيا، أُولي كل اهتمام ورعاية حتى غدا اليد الأولى في نشر الإسلام، والمحافظة على الدولة وكيانها[١]. وكان العنصر الرئيسي في الجيش العثماني ما عرف بالإنكشارية، وهي هيئة عسكرية فريدة حظيت من الدولة العثمانية باهتمام بالغ، لم تحظ به أي هيئة حكومية أخرى. وكانوا طائفة عسكرية من جنود المشاة، يشكلون تنظيما خاصا بهم، لهم ثكناتهم وشاراتهم، ودراستهم، وامتيازاتهم، وكانوا أعز فرق الجيش نفرا، وأقواهم جندا، وأكثرهم نفوذا.

وأفسحت لهم الدولة الطريق كي يقفزوا إلى أعلى الرتب العسكرية، ويتقلدوا أخطر المناصب القيادية، العسكرية، والمدنية على حد سواء. وإذا كانت الدولة قد استفادت منهم في ساحات القتال في عصرها الذهبي، فقد أضيرت منهم في العصور التالية، أذ نزعوا إلى حركات العصيان العسكري لتحقيق مطالب لهم حينا، وللتدخل في السياسة العليا للدولة أحيانا، متجاوزين اختصاصاتهم كمحاربين محترفين. واستراحوا لسلاح التمرد يشهرونه في وجوه السلاطين، والصدور العظام (رؤساء الوزارة) ومن إليهم من كبار رجال الدولة، فيعزلون ويقتلون هؤلاء وأولئك. والعجيب أنه لما دب الوهن إلى صفوفهم، وفقدوا الكثير من كفايتهم القتالية ازدادوا شعورا بقوتهم، وأمعنوا في طغيانهم، بحث غدوا مركز قوة خطير في الدولة، وشجعهم على ذلك ضعف السلاطين والصدور العظام [٢].

ولم يتمكن غير السلطان محمود الثاني من القضاء على فتنة الإنكشارية، وذلك حينما استصدر فتوى من شيخ الإسلام بوجوب إبادة هذه الفئة الطاغية والضالة، فحاصر ثكناتهم صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيو عام ١٨٢٦م، وسلط عليهم المدفعية من جميع الجهات، فنال منهم منالا كبيرا. ولما أيقنوا أنه لا طاقة لهم على مقاومة المدفعية، التجأوا إلى ثكناتهم طلبا للنجاة، لكن سطلت المدافع قذائفها على الثكنات وهدمتها واشتعلت فيها النيران، حتى دمرتها على رؤوس البقية الباقية منهم. وتولى الجنود النظاميون إلقاء جثث الإنكشارية في البحر. ويقدر عدد قتلاهم في ذلك اليوم بستة آلاف انكشاري، وقيل أضعاف هذا العدد.

---

[١] ـ صالح الغازي: أماني بنت جعفر، دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية (الجيش الجديد)، ط: دار القاهرة، ٢٠٠٧م، ص: ٢١.

[٢] ـ الشناوي: عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ط: مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ١٩٨٠م، ٤٧٢،٤٧١/١.

وفي صباح اليوم التالي، أصدر السلطان فرمانا بإلغاء الفيالق الإنكشارية إلغاء كليا. وصدرت الأوامر إلى حكام جميع ولايات الدولة بتعقب كل من بقى من الإنكشارية على قيد الحياة، وإعدامه أو نفيه خارج البلاد، حتى لا تبقى منهم باقية في نطاق الدولة، ولا تقوم لهم قائمة[١].

٢- يهود الدونمة

الدونمة[٢] طائفة دينية ظهرت في القرن السابع عشر الميلادي، بمدينة إزمير التركية، مهدت للحركة الصهيونية، وكانت أول من دعا إلى إقامة دولة لليهود وعاصمتها القدس. ويطلق عليها أيضا اسم "السبتية" نسبة إلى مؤسسها (سبتاي زيفي)، الذي وضع أصول هذا المذهب وقواعده وفروعه. وقد ولد في يوليو/ تموز ١٦٢٦م في مدينة إزمير التركية، لأبوين يهوديين هاجرا من إسبانيا إثر الاضطهاد الديني ومحاكم التفتيش، بعد سقوط آخر معقل للدولة الإسلامية في الأندلس. وقد سيطرت هذه الطائفة على الاقتصاد والإعلام في الدولة العثمانية، ونشرت الأفكار الهدامة في المجتمع التركي، وعملت على الإطاحة بالخلافة.

كان (سبتاي) قد اصبح حاخاما وحصل على الأستاذية في سن صغيرة، وساعدته شخصيته القوية على جذب عدد من التلاميذ. ونتيجة لأفكاره الخارجة على الشريعة اليهودية، حكم عليه رئيس الطائفة اليهودية في إزمير بالإعدام، فهرب إلى إسطنبول، وانهالت عليه الوفود من إزمير ورودس وبروسيا وصوفيا وأدرنه واليونان وألمانيا، وأطلق عليه اسم (ملك الملوك). ولما أرسل رجال الدين وحاخامات اليهود في إزمير يحذرون الدولة العثمانية منه، فر هو وأتباعه إلى مدينة سالونيك، حيث عاش ٨ سنوات، لكن أصدرت المحكمة الملية اليهودية حكما بكفره واستحلال دمه، فهرب إلى أثينا، ثم عاد إلى إزمير ومنها مرة أخرى إلى إسطنبول.

اشتد الصراع بين سبتاي وحاخامات اليهود بسبب تطاوله على المعتقدات المتوارثة لديهم، وإشاعته القصص الخيالية التي يدعي فيها أن له "معجزات"، وبسبب التغييرات التي أدخلها على الشريعة اليهودية، وإحداثه الفوضى بين اليهود، فقام الحاخام (نحيما كوهين) بإبلاغ السلطان العثماني أن سبتاي يقوم بمحاولة تمرد على الدولة العثمانية وإقامة دولة لليهود على حسابها.

---

[١] - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ٥٤٩/١:٥٥١.

[٢] - يعود اسم الدونمة إلى اللفظ التركي "دونمِك(Dönmek) "، الذي يعني العودة أو الرجوع، وذلك لأن أتباع هذه الفرقة تظاهروا بتركهم دينهم وتحولوا إلى الإسلام، فأطلق عليهم الناس هذا الاسم للدلالة على الهداية بالعودة للدين الحق، أو لأنهم ليسوا مسلمين حقيقيين؛ مما يعني الارتداد.
ووفق الثقافة التركية، من دخل في الإسلام حقيقة يسمى "المهتدي"، ومن أسلم ظاهرا يدعى منافق، أما هذه الفرقة فهي الوحيدة التي انفردت بهذا اللفظ.
موقع الجزيرة، الدونمة كيف ساهموا بإسقاط الدولة العثمانية؟ مقال منشور يوم ٨ يناير ٢٠٢٣.
https://www.aljazeera.net/encyclopedia/الدونمة-الدولة-العثمانية ٧/١/٢٠٢٣

فقامت السلطات العثمانية بسجنه، وقُدم للمحاكمة حيث حُكم عليه بالإعدام بتهمة ادعاء النبوة، فقرر سبتاي إنقاذ نفسه ومريديه فأعلن إسلامه يوم ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٦٦٦م، فعفى عنه السلطان محمد الرابع، وعيّنه رئيس الحجاب في القصر السلطاني، وغير سبتاي اسمه إلى (محمد عزيز أفندي) ولبس الجبة والعمامة.
وبناء على موافقة الحكومة العثمانية على طلب سبتاي للقيام بدعوة اليهود إلى الإسلام، أدخل سبتاي عددا كبيرا منهم إلى الإسلام مبطنين باليهودية، فكانوا يؤدون الشعائر الدينية الإسلامية ظاهريا، كما غيروا أسماءهم الرسمية، في حين احتفظ كل واحد منهم باسم يهودي خاص، واستمروا في المحافظة على عاداتهم الخاصة من لباس وأعياد وشعائر تقام باللغة الإسبانية، كما كانت لهم مدارس ومقابر خاصة بهم.

ولما تنبه بعض أركان الدولة إلى الخطر القادم، والأفكار الخطيرة التي كان يحملها هؤلاء وكيدهم للإسلام، وأن إسلامهم إنما كان (تَقِيَّة)، والهدف منه ضرب الإسلام من الداخل، فقُبض عليه مع بعض أتباعه ونُفوا إلى ألبانيا، وبقي هناك ٥ سنوات يتواصل مع أتباعه عن بعد بالرسائل أو المندوبين حتى توفي يوم ٣٠ سبتمبر/أيلول ١٦٧٥م. وبعد وفاة سبتاي انتقل مركز أنشطة الدونمة إلى سالونيك حتى عام ١٩٢٤م، إذ استقر معظمهم بعد ذلك في إسطنبول، وتوجه بعضهم إلى مدن أخرى مثل إزمير وأنقرة وبورصة، حيث أكملوا المسيرة.

التأثير الاقتصادي

كان يهود الدونمة أصحاب مهن وخبرة في شؤون المال والتجارة والصيرفة، كما تلقوا الدعم المالي من الشركات اليهودية الأوروبية والأميركية، فتمتعوا بهيمنة اقتصادية في الدولة العثمانية، وشكلوا قوة اقتصادية ضاغطة في اتجاه تحقيق أهدافهم ومساعيهم. وقد برزت منهم شخصيات لعبت دورا أساسيا في الاقتصاد التركي، وعلى رأسهم (محمد جاويد بيك)، الذي كان وزيرا للمالية في الدولة العثمانية، وكان يعقد الصفقات التجارية ويوفر المال اللازم لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين. ومارس ضغوطا عديدة على الدولة العثمانية من أجل تحقيق أهداف اليهود، كما كان لـ (موشيه الآتيني) دور بارز في الاقتصاد، وكان متحكما في تجارة التبغ والخمر والأفيون، وسيطر على العديد من الشركات في الدولة.

التأثير السياسي

شكل يهود الدونمة قوة سياسية ضاربة في عمق الدولة العثمانية، أدت إلى ضعفها ثم انهيارها، وقد شغل العديد منهم مناصب سياسية رفيعة، عملوا من خلالها على تقويض الحكم العثماني.

كما أسسوا المحافل الماسونية داخل الدولة العثمانية، وكانوا أبرز رجالها، واستخدموا شعارات خادعة مثل الحرية، ومكافحة الاستبداد، ونشر الديمقراطية، لاجتذاب الناس، وترويج الأفكار الهدامة. وقد شكلت هذه المحافل مراكز قوة في الدولة، وخرج منها الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار الموظفين والمسؤولين، الذين كانوا خاضعين لتأثير يهود الدونمة. وقد ساهم يهود الدونمة في ثورة ١٩٠٨م، حيث تخفوا في زي الجنود، وتسللوا في صفوف الجيش، وبدأوا بتحريضهم للقيام بثورة على السلطان. وفي عام ١٩٢٣م أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام الجمهورية في تركيا، وانتخبت (مصطفى كمال أتاتورك)، وكان يهود الدونمة من أشد مسانديه في الوصول إلى الحكم.

التأثير الإعلامي وإفساد المجتمع

سيطر يهود الدونمة على الصحف الكبرى والمجلات في الدولة العثمانية عن طريق تمويلها أو امتلاكها، كمجلة (اجتهاد) المعادية للإسلام، وصحيفة (تركيا الفتاة) الناطقة باسم الاتحاديين، وصحيفة (اللونار) أهم صحف سالونيك. واشتهرت العائلات اليهودية بتأثيرها الواسع في الميدان الإعلامي كعائلة (قبانجي) و (كبار) و(إيبكجي)، ومن خلال الدعم المادي، استطاعوا التحكم بالإعلام التركي وتوجيهه وفقا لأهدافهم. ومع ظهور الجمهورية الحديثة، زادت السيطرة اليهودية على الإعلام، فامتلكت أكثر المجلات والصحف انتشارا مثل مؤسسة جريدة (حُريِّت)، وهي الجريدة الأكثر انتشارا على مستوى تركيا، وقد وصل توزيعها إلى مليون نسخة يوميا. وتمتلك هذه المؤسسة دار نشر وعدة مجلات دورية، ساهمت في الهجوم على الحجاب، وهيأت الرأي العام التركي لقبول دولة صهيونية على أرض فلسطين. وامتلكوا صحيفة (كوان آيدن)، ثاني صحف تركيا توزيعا، وجريدة (ترجمان) الثالثة من حيث الانتشار في تركيا، وجريدة (مِلِّيت).
كما سيطروا على الإذاعة والتلفزيون، ونشروا من خلالهما أفكار اليسار المتطرف في المجتمع. وقد برز الكثير من الكتّاب والإعلاميين الذين ينتمون إلى الدونمة، كـ (خالدة أديب) و (أحمد أمين يلمان) و (عبدي إيبكجي) و (إسماعيل جم) وغيرهم، الذين استطاعوا بث الفكر الغربي والماركسي والدعوة إلى السفور والانحلال الخلقي.

كما ساهموا في إذكاء روح القومية التركية، وتشويه صورة الدولة العثمانية ورجالاتها، كما روجوا للدولة التركية العلمانية، وعملوا على تحسين صورة اليهود وبث الكراهية للعرب، وغير ذلك من المبادئ الهدامة[١].

* * * * *

[١] - موقع الجزيرة، الدونمة كيف ساهموا بإسقاط الدولة العثمانية؟ مقال منشور يوم ٨ يناير ٢٠٢٣.
https://www.aljazeera.net/encyclopedia/٢٠٢٣/١/٧/الدونمة-الدولة-العثمانية

المقدمة السابعة

الإمامة والإمام

الفصل الأول – التعريف بالإمامة وبيان منزلتها في الدين

الفصل الأول – التعريف بالإمامة وبيان منزلتها في الدين

أولا – التعريف بالإمامة

١- الإمامة لغة

الإمامة في اللغة: مصدر الفعل: (أَمَّ) تقول: أمَّهم وأمَّ بهم: تقدمهم. والإمام (مفرد: أئمة): الذي يؤتم أو يُقتدى به، من رئيس أو غيره. كأن يُقتدى بقوله أو فعله، أو غير ذلك محقا كان أو مبطلا، فيفعل أهله وأمته كما يفعل، أي: يقصدون لما يقصد، وأصل (أَمَّ) يدل على القصد(١).

٢- الإمامة اصطلاحا

هي النيابة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وقد عرف العلماء الإمامة بعدة تعريفات متقاربة:

- قال الماوردي: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسية الدنيا"(٢).
- وذكر ابن خلدون أنها: "خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به"(٣).
- وقال الجويني: "الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا"(٤).
- وعرفها سعد الدين التفتازاني بأنها: "رياسة عامة في أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبي ﷺ "(٥).

٣- الملامح الأساسية لنظام الإمامة

من تلك التعريفات يمكننا أن نتلمس الملامح الأساسية لنظام الإمامة في الإسلام:

أ- نيابة عن النبوة

الأئمة خلفاء رسول الله ﷺ في أمته، والقائمون على أمورها من بعده، ولما كان رسول الله ﷺ قد بُعث لإقامة الدين، وسياسة أمور الناس وفقا لمقتضاه، فقد أصبح لزاما على كل من يلى أمور الناس من بعده، ويقوم فيهم

---

(١) - المفردات في غريب القرآن، ص: ٨٧، الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للماليين – بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ١٨٦٥/٥ ، معجم مقاييس اللغة، ٢١/١ ،

(٢) - الماوردي: علي بن محمد بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ)، الأحكام السلطانية، ط: دار الحديث – القاهرة، ص: ١٥.

(٣) - ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)، مقدمة ابن خلدون، ت: عبد الله محمد الدرويش، ط: دار يعرب – دمشق، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م، ٣٦٥/١.

(٤) - الجويني: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، إمام الحرمين (ت ٤٧٨ هـ)، غياث الأمم في التياث الظلم، ت: عبد العظيم الديب، ط: مكتبة إمام الحرمين ١٤٠١ هـ، ص: ٢٢.

(٥) - سعد الدين التفتازاني: مسعود بن عمر بن عبد الله (ت ٧٩٣ هـ)، شرح المقاصد، ت: الدكتور عبد الرحمن عميرة، ط: عالم الكتب، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٢٣٢/٥.

مقامه أن يكون همه الأول حفظ الدين بأقصى الوسع على المسلمين، وأن يجر عساكر الإسلام لإرغام المعاندين والمحاربين.

وهذه السمة لا تخلع على الأئمة نوعا من القداسة أو العصمة، ولا تجعلهم فوق المساءلة، كما قد يتوهم البعض، ولكنها قيد يرسم للأئمة معالم الطريق، فلا شرعية لأعمالهم إلا بقدر ما تتضمنه من موافقة لهدي رسول الله ﷺ، فإن خالفوا عن أمره فقدوا سند استحقاقهم للولاية، وأصبحت تصرفاتهم فيما خالفوا فيه هديه ﷺ منعدمه[١].

ب- المسؤولية عن إقامة الدين، وتدبير مصالح المسلمين

إقامة الدين وسياسة الدنيا به، هو الفارق الأساسي بين نظام الإمامة وغيره من النظم الوضعية المعاصرة، التي فصلت بين الدين والدنيا، وحملت الكافة على مقتضى الهوى والشهوة. فنظام الإمامة يهدف إلى إقامة الدين، وحمل الكافة على مقتضى منهاجه وشرعته في مختلف شؤون الحياة[٢].

ج- الإمامة ولاية عامة

حيث تشمل جميع الشؤون الدينية والدنيوية، وينسحب حكمها على كافة المسلمين. وهذه السمة تبرز الأمة الواحدة، وتجعل من الإمامة التجسيد العملي لهذه الوحدة، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يكون لأمراء الأقاليم حرية واسعة في النظر واتخاذ القرارات، بتفويض من الإمام الأعظم[٣].

ء- تسميات أخرى للإمام

قد يسمى الإمام بالخليفة، أو الإمام الأعظم، أو أمير المؤمنين، وكل ذلك بمعنى واحد، وهو رئاسة الدولة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا[٤]. وأول من سُمي أمير المؤمنين هو الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، حيث كان أبو بكر ﷺ يكتب: (من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ)، فلما أراد عمر ﷺ أن يكتب، أرادوا أن يقولوا: (خليفة خليفة رسول الله ﷺ)، قال عمرﷺ: "هذا يطول"، قالوا: لا، ولكنا أمَّرناك علينا، فأنت أميرنا، قال: "نعم، أنتم المؤمنون وأنا أميركم"، فكتب: (أمير المؤمنين)[٥]. لكن لا يعني ذلك أن الرئيس الأعلى للدولة في الإسلام يجب أن يلقب بأحد هذه الألقاب حتى يصير هذا المنصب إسلاميا. إنما المهم في هذا المجال أن

---

[١] - الصاوي: صلاح، الوجيز في فقه الخلافة، ط: دار الإعلام الدولي، ص: ٦.
[٢] - المصدر السابق، ص: ٧.
[٣] - المصدر السابق، ص: ٨.
[٤] - رضا: محمد رشيد، الخلافة، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ص: ١٤.
[٥] - السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، تاريخ الخلفاء، ت: حمدي الدمرداش، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص: ١١١. (ش)

يكون المسلمون ورئيسهم خاضعين لقانون الإسلام حتى يمكن أن يوصف النظام بأنه نظام إسلامي، بغض النظر عن الألقاب التي يمكن أن تطلق على هذا الرئيس[١].

ثانيا – الإمامة من فروع الدين وليست أحد أركان الإيمان

الخلافة الإسلامية أو الإمامة العظمى هي نظام الحكم في الشريعة الإسلامية والذي يقوم على استخلاف قائد مسلم على الدولة الإسلامية ليحكمها بالشريعة الإسلامية، وليست أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان.

فأركان الإيمان هي ما وضحه النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام حيث قال: **(الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره)** ولم يذكر الإمامة، وهذا حديث متفق على صحته متلقى بالقبول، وأجمع أهل العلم على صحته. والآيات التي شهدت للمؤمنين بالإيمان لم تذكر الإمامة[٢]، كقوله ﷻ: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[٣].

فإن قيل: "قد دخلت في عموم النصوص الدالة على الإيمان، أو هي من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو دل عليها نص آخر". فنقول: هذا كله لو صح لكان غايته أن تكون من بعض فروع الدين لا أن تكون ركنا من أركان الإيمان، فإن ركن الإيمان ما لا يحصل الإيمان إلا به كالشهادتين، فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فلو كانت الإمامة ركنا في الإيمان لا يتم إيمان أحد إلا به لوجب أن يبين ذلك الرسول ﷺ بيانا عاما قاطعا للعذر[٤].

وكذلك لكون نصب الإمام الموصوف بصفات الإمامة المخصوصة يعتبر من الفروض الكفائية[٥]. وهذه الفروض من الأحكام العملية دون الاعتقادية[٦].

وإنما نؤكد على هذه المعاني، ليُعرف قدر الإمامة في دين الله ﷻ، بلا زيادة ولا نقصان. لأن الشيعة قد جعلوا الإمامة من الإيمان الموصل إلى جنة الرحمن، حتى يؤمن الناس بالأئمة، اعتقادا منهم أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله ﷻ يختار من يشاء من عبادة للنبوة والرسالة، ويؤيده بالمعجزات، فكذلك يختار

---

[١]- عثمان: محمد رأفت، رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ط: دار الكتاب الجامعي، ١٩٧٥م، ص: ٤٨.

[٢] - ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨ هـ)، منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية، ت: محمد رشاد سالم، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، ١٠٨/١.

[٣] - سورة الحجرات، الآية رقم: ١٥

[٤] - منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية، ١٠٩/١.

[٥] - أمور كلية تتعلق بها مصالح دينية أو دنيوية، لا ينتظم الأمر إلا بحصولها، فيقصد الشارع تحصيلها في الجملة، من غير أن يقصد حصولها من كل أحد.

[٦] - شرح المقاصد – التفتازاني، ٢٣٢/٥.

للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه ﷺ بالنص عليه، وأن ينصبه إماما للناس من بعده، للقيام بالوظائف التي كان على النبي ﷺ أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي ﷺ، وإنما يتلقى الأحكام منه بتسديد إلهي. فالنبي ﷺ مبلغ عن الله ﷻ، والإمام مبلغ عن النبي ﷺ ، والإمامة متسلسلة في اثني عشر، كل سابق ينص على اللاحق. بل أكثر من ذلك، حيث وصل الأمر ببعض الشيعة الإمامية إلى اعتقاد أن أئمتهم أفضل من الأنبياء[1].

ثالثا – ظهور منصب الإمامة (الخلافة)

كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية – وما تلاهما من الهجرة، نقطة تحول في حياة الإسلام، حيث كانتا أشبه بالعقد الاجتماعي في المفهوم الحديث، هذا العقد الذي حدث مرتين عند العقبة، وقامت على أساسه الدولة الإسلامية، عقد تاريخي: فهو حقيقة يعرفها الجميع، تم فيه الاتفاق بين إرادات إنسانية حرة، وأفكار واعية ناضحة، من أجل تحقيق رسالة سامية.

وهكذا تم تكوين الدولة الإسلامية في وضح النهار، في ضوء التاريخ. وإذ بدأت عملها لم تكن هناك وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها أنها سياسية: كأدوات تنفيذ العدالة، أو تنظيم الدفاع، أو بث التعليم، أو جباية المال، أو عقد معاهدات، أو إنفاذ سفارات، إلا كانت تلك الدولة تؤديها.

وقد تميزت هذه الدولة الوليدة بمبدأ حرية التفكير للفرد، أو بتعبير آخر الاعتراف بحق الفرد في التفكير المستقل، والأخذ بالنتائج التي يهديه إليها بحثه، غير ملتفت إلا لصوت ضميره. وهذا المبدأ الذي يُعرف في كتب الفقه والأصول باسم (الاجتهاد). وقد أُعترِف به مصدرا من مصادر القانون الإسلامي. وهو مبدأ انفرد بتقريره الإسلام، ولم يُسبق إليه، ولم يلحق فيه أيضا، إلا بعد مضي عهود طويلة، بعد نحو ألف عام.

وقد ظلت الأمور هادئة من ناحية الموقف الداخلي طوال عهد الرسول ﷺ، والوحدة متحققة، وإذا نشا بين المسلمين خلاف، فيُرجع إلى الرسول ﷺ، وهو يحكم بينهم بالحق والعدل، وعليهم الطاعة. لكن ما كاد رسول الله ﷺ يُقبض إلى الملأ الأعلى حتى أحس المسلمون بالفراغ، ووجدوا أنفسهم أمام مشاكل ومسؤوليات جسيمة، ترتبت على هذا الفراغ، وكان عليهم أن يبعثوا كل قواهم لينهضوا بهذه الأعباء التي أُلقيت عليهم.

وقد وجدوا أنهم ورثوا (دولة): أي نظاما سياسيا، أقر لكل فرد منهم بحق التفكير والبحث في شئون هذه الدولة، ولم تفرض عليهم قيود تمنعهم من استعمال هذا الحق، والبلوغ به إلى غايته. وهكذا بدأت الآراء تظهر، وتتشعب وجهات النظر، في اجتماع السقيفة، وكان الخلاف حول مسألة الخلافة أو الإمامة. وهنا كان أصل تلك المسألة الكبرى التي شغلت كل مفكري الإسلام السياسيين فيما بعد.

---

[1] ـ رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: ٢٤،٢٥.

وقد اختلف المسلمون في الإمامة لأن رسول الله ﷺ – وهذا هو الثابت تاريخيا – لم يبين هذا الأمر بوضوح. فلم يعين من يخلفه، ولم يبين الطريقة التي ينتقل بها الاستخلاف، ولم يحدد الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم، وما إلى ذلك من التفاصيل، وإنما أوضح القواعد العامة. لكن تم عقد اجتماع (السقيفة)، والذي كان أشبه بجمعية وطنية أو تأسيسية، تبحث في مصير أمة لأجيال عديدة لاحقة، وتضع لها دستورا، يكون أساسا لحياتها في المستقبل. وكانت أكبر نتيجة لهذا الاجتماع أنه على أساسه قام (نظام الخلافة) الذي بقى منذ ذلك الوقت، في شكل أو آخر، إلى القرن العشرين[١].

رابعا – الفرق بين الخلافة والملك

مما سبق في تعريف الإمامة، يتضح لنا أن العلماء الذين تصدوا لتعريفها قدموا أمور الدين والعناية به وحفظه على أمور الدنيا، بمعنى جعل الثانية تابعة للأولى، وبيان أن سياسة الدنيا يجب أن تكون بالدين وشرائعه وتعاليمه، وأن فصل الدين عن السياسة مخالفة صريحة لتعاليم الإسلام ولشريعته الربانية، وان سياسة الدنيا بالقوانين الوضعية أو بالآراء والشهوات النفسية مخالفة أيضا للإسلام، فلا يجوز أن يُطلق على هذا النوع بأنه حكم إسلامي، أو متمش مع الشريعة الإسلامية، بل هو مخالفة صريحة لها لا يقره الإسلام[٢].

ولهذا فرق العلماء بين الخلافة والملك، قال ابن خلدون في مقدمته: "الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية، ودفع المضار، والخلافة، هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا كلها ترجع عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[٣].

وهذا الفرق بين الخلافة والملك هو ما ثبت في الحديث الحسن، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ :كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ، فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ، فَقَالَ :يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ :أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ، فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ**

---

[١] - النظريات السياسية الإسلامية، ص: ٣١:٣٨.

[٢] - الدميجي: عبد الله بن عمر بن سليمان، الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض– المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨ هـ، ص: ٣٧.

[٣] - مقدمة ابن خلدون، ٣٦٥/١.

مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ)" ثُمَّ سَكَتَ[١].

خامسا – الخلافة في العصر الحديث

انتهى دور من أدوار الخلافة بسقوط الدولة العثمانية، ومن واجب المسلمين العمل لبدء دور جديد لها. وحقيقة الخلافة – كما سبق وذكرنا – أنها قيادة عامة للأمة الإسلامية، تمثل وحدتها، وتحفظ كيانها، وتذب عنها الأخطار، وتحقق مصالحها المشتركة، وتنفذ مبادئ الإسلام. فهي تقوم على أساس الإسلام، وتنفذ شريعته، وتحفظ أوطان الإسلام، وتدافع عن أهله، وتعمل لنشر رسالته في العالم.

ولا يشترط في العصر الحديث أن توجد دولة واحدة، بسبب التغيرات السياسية الحاصلة، وخاصة أن علماء الإسلام قد أجازوا تعدد الحكومات أو الدول الإسلامية، وليس من الشرط أن تنحصر السلطة في فرد أو شخص أو أسرة. والذي يوجبه الإسلام في العلاقات بين دوله هو أن تتحقق الفروض والأصول الأساسية، وهي الاتحاد في أي صورة عملية بين المسلمين وأن يقيموا دولتهم على أساس الشورى وأن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن يقوموا متضامنين بواجب الجهاد، وأن يعملوا لرقي الجماعات بالتزام الفضائل والدعوة إلى الموروث ومنع الرذائل أو إزالة المنكرات، وأن يبذلوا الجهد لنشر رسالة الإسلام بين العالمين[٢].

*****

[١] – مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ١٨٤٠٦.

[٢] - النظريات السياسية الإسلامية، ص: ٢٠٨:٢١٤.

الفصل الثاني – الخليفة (الإمام)

الفصل الثاني – الخليفة (الإمام)

الحكم الشرعي لنصب الإمام وأدلته

أجمع سلف الأمة، وأهل السنة، وجمهور الطوائف الأخرى على أن نصب الإمام – أي توليته على الأمة – واجب كفائي على المسلمين، واستدلوا بأدلة عديدة منها:

١- من القرآن الكريم

قال الله ﷻ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ** ﴾[١]، حيث فُرض على الأمة طاعة أولى الأمر، وهم الأئمة[٢]. قال ابن كثير: "الظاهر – والله أعلم – أن الآية عامة في جميع أولى الأمر من الأمراء والعلماء"[٣].

ووجه الاستدلال من هذه الآية: أن الله ﷻ أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم وهم الأئمة، والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر؛ لأن الله ﷻ لا يأمر بطاعة من لا وجود له، ولا يفرض طاعة من وجوده مندوب، فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده، فدل على أن إيجاد إمام للمسلمين أمر واجب عليهم[٤].

٢- من السنة

أ- عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ أنه قال: (**مَنْ مَاتَ وَليسَ في عُنُقِهَ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جاهِلِيّةً**)[٥].

ب- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (**مَنْ خرجَ مِنَ الطاعةِ وفارَقَ الجَماعَةَ ماتَ مِيتةً جَاهليَّةً**)[٦]

ومعلوم أن إيجاب البيعة يستلزم المبايَع، وهو الخليفة.

٣- من الإجماع

أي إجماع الصحابة، حيث أنهم أجمعوا على تقديم اختيار الخليفة على دفن النبي ﷺ.

---

[١] - سورة النساء، الآية رقم: ٥٩

[٢] - الأحكام السلطانية، ص: ١٦.

[٣] - ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت ٤٧٧ هـ)، ت: سامي بن محمد السلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، ٣٤٥/٢.

[٤] - الدميجي: عبد الله بن عمر بن سليمان، الإمامة العُظمى عند أهل السنة والجماعة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض – المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨ هـ، ص: ٤٧.

[٥] – صحيح مسلم، حديث رقم: ١٨٥١.

[٦] – صحيح مسلم، حديث رقم: ١٨٤٨.

٤- عقلا

أ- أنه ما لا يتم إلا به ما وجب من إقامة الحدود وسد الثغور، ونحو ذلك مما يتعلق بحفظ النظام .

ب- أن فيه جلب منافع ودفع مضار لا تحصى، وذلك واجب إجماعًا .

ج- وجوب طاعته في المعروف شرعا، وهذا لا يحصل إلا بمعرفته عن طريق نصبه إماما.

وجوب معرفة الأمة لمن تولى أمرها

إذا استقرت الخلافة لمن تقلدها، لزم كافة الأمة أن يعرفوا أنه تم اختيار خليفة تتوفر فيه صفات الخلافة، لزمت معرفته على التفصيل التالي:

١- أهل الحل والعقد، الذين تقوم بهم الحجة وببيعتهم تنعقد الخلافة. يجب عليهم معرفته بعينه واسمه، كما عليهم معرفة الله ﷻ ومعرفة رسوله ﷺ .

٢- الذي عليه الجمهور أن معرفة الإمام تلزم الكافة على الجملة دون التفصيل، وليس على كل أحد أن يعرفه بعينه واسمه إلا عند النوازل التي تحوج إليه. ويرى سليمان بن جرير : واجب على الناس كلهم معرفة الإمام بعينه واسمه.

ويُسمى (خليفة) لأنه خلف رسول الله ﷺ في أمته، فيجوز أن يقال: يا خليفة رسول الله، وعلى الإطلاق فيقال :الخليفة. واختلفوا هل يجوز أن يقال :يا خليفة الله؟ فجوزه بعضهم؛ لقيامه بحقوقه في خلقه، ولقوله ﷻ: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ** ﴾.[١] وامتنع جمهور العلماء من جواز ذلك، ونسبوا قائله إلى الفجور وقالوا: يستخلف من يغيب أو يموت، والله ﷻ لا يغيب ولا يموت، وقد قيل لأبي بكر الصديق ﷺ: (يا خليفة الله)، فقال: لست بخليفة الله، ولكني (خليفة رسول الله ﷺ)[٢].

منصب الرئيس الأعلى للدولة لا يورث

أجمع جمهور علماء الأمة الإسلامية (شذ عنهم الشيعة) على أن منصب الرئيس الأعلى للدولة لا يورث، وأنه لابد من وجود صفات معينة فيمن يرشح لتولى هذا المنصب الخطير. هذه الصفات أو الشروط التي اشترطها العلماء فيمن يراد توليته رياسة الدولة الإسلامية، هي شروط يجب مراعاتها في الحال التي تكون صفة الاختيار متوافرة للأمة فيها، فيجب عليها في هذه الحال أن لا تولى أمورها إلا من تحققت فيه هذه الشروط. أما إذا انتفت حال الاختيار، وأُلجئت الأمة إلى حال لا اختيار لها فيها، كتغلب البعض ممن لا يصلحون

---

[١] - سورة الأنعام، الآية رقم: ١٦٥

[٢] - الأحكام السلطانية – للماوردي، ص: ٣٩.

للإمامة العظمى بالانقلابات العسكرية، فالعلماء في هذه الحال يقررون أنه يجوز إقرار هذه الحال مؤقتا – للضرورة – إلى أن تحين فرصة التغيير بمن هو مستوف للشروط المطلوبة، إذا كانت محاولة التغيير ستؤدي إلى فتن يجب أن تصان الأمة عن الدخول في شرورها[1].

مهام الخليفة ومسؤولياته

قال الجويني (إمام الحرمين): مهمة الإمامة: "حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين[2]".

وقال الماوردي:

"الذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل.

الثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم، ولا يضعف مظلوم.

الثالث : حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

والرابع: إقامة الحدود؛ لتصان محارم الله ﷻ عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرما، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة؛ ليقام بحق الله ﷻ في إظهاره على الدين كله.

والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف.

---

[1] - رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: ١٢١.
[2] - غياث الأمم في التياث الظلم ، ص: ٢٢.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة.

العاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح"[١].

كيفية اختيار الإمام

الإمامة فرض كفائي، كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط الفرض الكفائي عن سائر الأمة، وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان، ليس على الأمة عداهما في تأخير الإمامة حرج ولا مأثم:

١- الفريق الأول - أهل الحل والعقد

أهل الحل والعقد، هم أهل الاختيار، الذين عليهم اختيار إمام الأمة، ومسؤولون عن إتمام عقد الإمامة وإنفاذه نيابة عن الأمة كلها في استعمال ما هو حق أصلي لها، فهم منتدبون منها أو هم ممثلوها. وأهل الحل والعقد هيئة خاصة إذا تعينت بأفرادها أصبحت هي المسؤولة عن تأدية الواجب المنوط بها. فعليهم أمر اختيار الإمام بعد البحث.

وإذا تعينت هذه الهيئة بأفرادها أصبحت المسؤولة أولا عن تأدية الواجب، ويقع عليها الإثم إذا قصرت في أدائه. والفقهاء لم يعينوا هذا الفريق بعبارات واضحة أو أوصاف محددة، ومع ذلك يفهم من أقوالهم: أنه يُترك للأمة تعيينها، وهذا التعيين يكون حسب ظروف الأحوال والعصور. ومن شروطهم الذي ذكرها الماوردي في الأحكام السلطانية:

١- العدالة الجامعة لشروطها، أي الاستقامة والأمانة والورع.

٢- العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها.

٣- والرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح، وبتدبير المصالح أقوى وأعرف.

وبلغة العصر: لابد أن يتوفر فيهم الأخلاق الدينية الفاضلة، والعلم بأحكام منصب الإمامة، في الدين، والثقافة والخبرة السياسيتين. ويفهم من الشرطين الأخيرين أن رأي غير المثقف – ومن باب أولى (الأُمي) – لا يُعتد به لأنه يكون غير قادر على الاختيار.

---

[١] - الأحكام السلطانية - للماوردي، ص: ٤٠.

وأشار النووي إلى إن أهل الحل والعقد هم: العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيسر اجتماعهم، وهذا فيه بعض التعيين لصفاتهم، حيث نص – على الأقل – على العلماء، ولكننا لا نستطيع تحديد القسمين الآخرين، إذ لا ندري ما صفة الرياسة، أو معنى الوجاهة بوجه قاطع. ولكن يظهر أنه يقصد قادة الأمة، أو العناصر البارزة فيها أو الذين يمثلون مصالحها. وعلى كل حال، فإنه لابد أن يكون متوفرا فيهم الشروط التي نص عليها فقهاء السياسة الشرعية.

٢- الفريق الثاني – أهل الإمامة

أهل الإمامة هم الذين تتوفر فيهم الشروط، حتى ينتصب أحدهم للإمامة.
ويشترط فيهم عدة شروط، من أهمها: الإسلام، والحرية، والذكورة، والعدالة على شروطها الجامعة، والعلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام (عند الجمهور)، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية، وتدبير المصالح، والشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة، وجهاد العدو[١].

وموضوع الإمامة والإمام، وما يختص بهما من تفصيل، إنما مكانه في الأصل كتب السياسة الشرعية، وإنما أردنا الإشارة إلى بعض ما يفيدنا في استكمال موضوع فقه التمكين. والذي يعنينا هنا هو تقرير أن الأمة في حاجة إلى إمام، وهذا الإمام يختاره أهل الحل والعقد. ولكل منهما صفات وشروط، حتى تتحقق خلافة على منهاج النبوة. وهذا يدعونا إلى الاجتهاد في إعادة بناء وإحياء الأمة الإسلامية، تلك الأمة التي يخرج منها، أشخاص على مستوى منهاج النبوة، يكون منهم الأئمة وأهل الحل والعقد، وكل ما تحتاجه دولة إسلامية حديثة من كوادر وطاقات.

* * * * *

[١] ـ الأحكام السلطانية، للماوردي، ص: ١٧:٢٠، النظريات السياسية الإسلامية، ص: ٢٢:٢٤.

المقدمة الثامنة

غربة الإسلام

الفصل الأول – الغربة الأولى للإسلام

الغربة الأولى للإسلام

حينما دعا رسول الله ﷺ الناس إلي الإسلام، لم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد، فكانت تلك الغربة الأولى، وهاجر من هاجر إلى الحبشة فراراً بدينه من الفتن وبنفسه من الأذى والاضطهاد والظلم والاستبداد، وهاجر رسول الله ﷺ بأمر الله ﷻ إلى المدينة، بعد ما ناله من شدة الأذى ما ناله، رجاء أن يهيئ الله ﷻ له من يؤازره في دعوته، ويقوم معه بنصر الإسلام. وقد حقق الله ﷻ رجاءه، فأعز جنده ونصر عبده، وقامت دولة الإسلام، وانتشر بحول الله ﷻ في أرجاء الأرض، وجعل ﷻ كلمة الكفر هي السفلى وكلمة الله ﷻ هي العليا والله ﷻ عزيز حكيم، ولله ﷻ العزة ولرسوله وللمؤمنين.

واستمر الأمر على ذلك زمناً طويلاً ، ثم بدأ التفرق والوهن ودب بين المسلمين الضعف والفشل شيئاً فشيئاً، حتى عاد الإسلام غريباً كما بدأ ، لكن ليس ذلك لقلتهم، فإنهم يومئذ كثير، وإنما ذلك لعدم تمسكهم بدينهم واعتصامهم بكتاب ربهم وتنكبهم هدي رسول الله ﷺ إلا من شاء الله ﷻ. فشغلهم بأنفسهم وبالإقبال على الدنيا فتنافسوا فيها كما تنافس من كان قبلهم وتناحروا فيما بينهم على إمارتها وتراثها، فوجد أعداء الإسلام المداخل عليهم، وتمكنوا من ديارهم ورقابهم، فاستعمروها وأذلوا أهلها وساموهم سوء العذاب، فكانت هذه هي غربة الإسلام التي عاد إليها كما بدأ بها.[١]

عناصر غربة الإسلام الأولى

أ- كان الإسلام ودعوته غريبًا على عادات وتصورات وعقائد الجاهلية.

ب- وكان غريبًا في عقيدته وتوحيده: ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾[٢].

ج- وكان غريبًا في نظامه وشريعته: ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [٣].

---

[١] - موقع: (الإسلام سؤال وجواب)، ما معنى هذا الحديث: (بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ) فتوى رقم ٤٥٨٥٥. https://islamqa.info/ar/answers/٤٥٨٥٥/بدا-الاسلام-غريبا-وسيعود-غريبا

[٢] - سورة ص، الآية رقم: ٥

[٣] - سورة الأنعام، الآيات: ١٦١:١٦٣

ء – وكان غريبًا في أخلاقه: ﴿ **إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ [1].

هـ – وكان غريبًا في كل شؤونه وأحكامه: ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [2] .

و– وكان غريبًا في سياسته وحكمه: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾[3]، ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [4]–[5].

*****

---

[1] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٠٣

[2] - سورة الأعراف، الآية رقم: ١٥٧

[3] - سورة المائدة، الآية رقم: ٤٩

[4] - سورة المائدة، الآية رقم: ٥٠

[5] - موقع طريق الإسلام، مقال: الدعوة الإسلامية بين التكوين والتمكين ، ١- الغربة الأولى والتمكين. منشور يوم: ٢٠١٤/٥/١١. https://ar.islamway.net/article/٢٩٤٥٩-١/-الغربة-الأولى-والتمكين

الفصل الثاني – الغربة الثانية للإسلام

الغربة الثانية للإسلام

يجتاز العالم الإسلامي اليوم مرحلة من أسوأ مراحله التاريخية، حيث يمكن أن نطلق عليها مرحلة (التيه). فلقد مرت بالعالم الإسلامي أزمات كثيرة من قبل، بل نكبات كثيرة، كان المسلمون يفقدون فيه تمكنهم في الأرض، أو يفقدون أمنهم وطمأنينتهم، أو يفقدون ديارهم وأموالهم، ولكنهم مع ذلك لم يخوضوا تجربة أقسى ولا أمر من تجربتهم المعاصرة، في تاريخهم كله.

حتى الأندلس، رغم أنها لم تَعُد إلى الإسلام، ولكن طاقة الأمة بمجموعها لم تكن قد استنفذت حيث ظهر في نفس الوقت الدولة العثمانية، التي استطاعت أن تحفظ كيان المسلمين أربعة قرون كاملة، وامتدت في داخل العالم الصليبي حتى (فيينا) و(بطرسبرج)، ودخل في الإسلام على يديها ملايين من البشر في أوروبا وآسيا. لكن الأزمات التي يعانيها المسلمون اليوم هي أقسى من سابقاتها وأَمَر.

والفرق بين هذه المرة وسابقاتها أن المسلمين كانوا في المرات السابقة لم يهنوا حتى وهم مهزومون أمام أعدائهم فترة غير قصيرة، ولم يشعروا أنهم أدنى من أعدائهم، بل كانوا يتمثل فيهم قوله ﷻ : ﴿**وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1]، بل كانوا يشعرون – حتى وهم مهزومون – بازدراء شديد لأعدائهم، لأن عقيدتهم، وتصوراتهم، لا تتفق مع العقيدة الصحيحة، والتصور الصحيح، ولأن أخلاقهم وأنماط سلوكهم لا تتفق مع أخلاقيات الإسلام، وأنماط سلوكه.

أما في الحروب الصليبية الأخيرة، فقد كان الموقف قد تغير كثيرا عن ذي قبل، لأن المسلمين كانوا قد انحرفوا انحرافا شديدا عن حقيقة الإسلام، لا في السلوك وحده، ولكن في التصور كذلك[2].

فالإسلام اليوم يعيش غربته الثانية التي تحدث عنها رسول الله ﷺ: **(بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ)**، فإن لم تكن الغربة الثانية مطابقة تمام المطابقة للغربة الأولى في جميع حيثياتها، فإنها ولا شك تشبهها في أمور كثيرة جوهرية، أهمها أن منهج الله ﷻ ليس هو الذي يحكم حياة الناس، وأن الأمر يحتاج إلى دعوة الناس من جديد إلي الإسلام، لا لأنهم – في هذه المرة– يرفضون أن ينطقوا بأفواههم "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كما كان الناس يرفضون نطقها في الغربة الأولى، ولكن لأنهم في هذه المرة يرفضون المقتضى الرئيسي لـ "لا إله إلا الله"، وهو تحيكم شريعة الله ﷻ والامتثال لمنهج الله ﷻ، حتى وإن كان ألف مليون من

[1] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٣٩

[2] - لاشين: موسى شاهين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، ط: دار الشروق ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ٤٦٦/١ ؛ موقع: رابطة علماء إرتريا، غربة الإسلام وأهله، مقال منشور يوم ٢٠ أكتوبر ٢٠٢١، https://ulamaaeritrea.org/١١٨٤/ ؛

البشر من المحيط إلي المحيط ينطقون بأفواههم كل يوم: لا إله إلا الله محمد رسول الله! وهذه هي حقيقة "الغربة" التي يعانيها الإسلام اليوم في الأرض، رغم ملايين المصاحف التي تطبع، ومئات المحطات الإذاعية والتلفزيونية التي ترتل القرآن وتذيعه على الناس، وتشرحه – في الأحاديث والدروس الدينية – لمن شاء من الناس الاستماع.

(وفي الغربة تكون الحركة إنشاء جديداً اكثر مما تكون مجرد إصلاح لما هو قائم بالفعل في نفوس الناس).

إن هذا الغثاء الذي يعيش بالملايين اليوم، والذي أشار إليه رسول الله ﷺ، في حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(يُوشِكُ أنْ تَداعى عليكم الأُمَمُ مِن كلِّ أُفُقٍ، كما تَداعى الأَكَلَةُ على قَصعَتِها، قال: قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، أمِن قِلَّةٍ بنا يَومَئذٍ؟ قال: أنتم يَومَئذٍ كَثيرٌ، ولكنْ تَكونونَ غُثاءً كغُثَاء السَّيلِ، تُنتزَعُ المَهابةُ مِن قُلوبِ عَدوِّكم، ويُجعَلُ في قُلوبِكم الوَهْنُ، قال: قُلْنا: وما الوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الحَياةِ وكَراهيةُ المَوت)**[1].

هذا الغثاء لا يحتاج إلي مجرد وعظه وإرشاده، وتقديم حقائق الإسلام إليه في الدروس الدينية سواء في المسجد أو الإذاعة أو الكتاب أو المحاضرة، إنما يحتاج إلي انتشاله في الجاهلية التي تحيطه وتضغط على حسه بثقل "الأمر الواقع" وتنشئته نشأة جديدة على حقائق الإسلام، ليعيشه بالفعل، لا "ليتحدث" عنه أو "يفكر" فيه أو "يعجب" به أو "يتمناه" وهو قاعد عن العمل لتحقيقه .[2]

مظاهر الغربة الثانية

١- أصبح المحافظ على إسلامه في نظر المجتمع متأخرا.

٢- أصبحت شعائر الإسلام غريبة في مجتمع المسلمين.

٣- وأصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا، ولم يعد بين الناس أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، بل أصبح العكس.

٤- محاولات صناعة إسلام يرضى عنه الغرب ولا يتصادم مع الحضارة الغربية الغالبة وقيمها وينسجم مع التطبيع ومقتضياته من القبول بالمحتل، وعدم مقاومته ليصلوا بنا أخيرا وبالتوافق مع الحكومات لما يعرف

---

[1] - الأزدي السجستاني: سليمان بن الأشعث بن أسحاق، أبو داود (ت ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، حديث رقم: ٤٢٩٧.

[2] - قطب : محمد، كيف ندعو الناس – الغربة الثانية للإسلام . مقال منشور على موقع العلامة محمد قطب، يوم ٢٤-٢-٢٠١٢ https://mqutb.wordpress.com/٢٠١٢/٠٢/٢٤/١٩٢/

بالديانة الإبراهيمية، التي تسعى للتوفيق بين الحق الإسلامي الخالد والباطل المحض من الديانات المحرفة والمبدلة.

٥- انتشار موجة الإلحاد والفواحش، وتفكيك الأسرة، وكل ذلك يتم تحت الحماية الدولية، تقنينا وفرضا بكافة الأدوات، لينتهي الأمر إلى سيادة منظومة غربية شمولية، لا تعترف بالآخر مطلقا، بل تنطلق من مركزية الحضارة والإنسان الغربي.

٦- تنحية شريعة الله ﷻ، عن الحكم بفعل الغزو الصليبي لبلاد المسلمين، وتحويل ذلك – بالقوة العسكرية – إلى أمر واقع في حياة الأجيال المتأخرة من المسلمين، مع الضخ الدائم للأفكار والتصورات العلمانية، عن الكون والحياة والإنسان، وتخريج أجيال من المسلمين لا تتصور أن التشريع بغير ما أنزل الله ﷻ أو اتخاذ العلمانية منهجا في الحياة، أو أن الحداثة التي تنادي بالتخلي عن كل قديم، والتمرد عليه وتدميره، أنه أغلال، أو أن التسليم بخرافات العلم الحديث التي تقول أن المادة أزلية أبدية، أو أن الطبيعة تخلق كل شيء، أو الإنسان سيخلق الحياة في المستقبل، كل ذلك ينقض لا إله إلا الله.

٧- مفهوم (لا إله إلا الله) تحول إلى كلمة تقال باللسان لا علاقة لها بالواقع.

٨- مفهوم (العبادة الشاملة) الواسع، انحصر في الشعائر التعبدية.

٩- مفهوم (القضاء والقدر) تحول من قوة دافعة رافعة، إلى قوة مخذِّلة مثبطة عن العمل والنشاط والحركة والأخذ بالأسباب.

١٠- مفهوم (الدنيا) وارتباطها بالآخرة، وأنها مزرعة لها، تحول إلى فصل كامل بين الدنيا والآخرة، يجعلهما في موقع التقابل الكامل والتضاد، فمن أراد الآخر ترك الدنيا، والعكس.

فتُركت عمارة الأرض، وخيم على الناس الفقر والجهل والمرض والتخلف الحضاري والمادي والعلمي والعقلي، وغلب على حس الناس أن ذلك قدر من الله ﷻ لا حيلة لهم فيه.

١١- كما إن حياة الناس قد خلت من الروح، وأصبحت كلها تقاليد موروثة، يُحافظ عليها من أجل أنها تقاليد، لا من أجل أنها جزء من منهج حي يحكم الحياة: فالعبادة، والسلوك، وحجاب المرأة، وقضية العرض، كلها تقاليد، أكثر مما هي عبادة واعية لله ﷻ، أو منهج مترابط يحكم الحياة.

وحين جاءت الحروب الصليبية الجديدة في العصر الحديث، والمسلمون على هذا الوضع، كان الاحتمال الأكبر أن ينهاروا، ويسلموا أنفسهم للضياع[1].

١٢- والتخلف المادي، والعلمي، والسياسي، والحربي، والاقتصادي....إلخ، هو سمة المسلمين في واقعهم المعاصر ليس هو السبب الأصيل في انتكاستهم المعاصرة، وإنما هذه كلها أعراض للمرض الأصلي الذي هو

---

(١) ـ واقعنا المعاصر، مقدمة الطبعة الأولى، ص: ٧:١١.

فراغ المسلمين من حقيقة الإسلام، وبعدهم عن الله ﷻ، وبعدهم هن مقتضيات رسالتهم التي أخرجهم الله ﷻ من أجلها.

والعمل على علاج التخلف بأشكاله المختلفة هذه – وحده – لن يوصل الأمة إلى شيء، إذا لم تصلح حالها مع الله ﷻ وترجع إليه، وتفيء إلى مقتضيات رسالتها. فقد حدث ذلك التخلف – بجميع أنواعه – مصاحبا للتخلف العقيدي في حياة الأمة، وناشئا عنه، ولا يُزال بإذن الله ﷻ حتى تزول أسبابه التي أوجدته ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ** ﴾[1]–[2].

١٣– تبعيض الإسلام: بأن يعيش المسلم في أجزاء من حياته بعيدا عن النمط الإسلامي، لكنه يستعير من الإسلام ما يستدعيه تبرير موقف أو مسلك معين في حياته، أو يستخدم حقه بشيء من التعسف بعيدا عن الحكمة، كأن يعدد الزوجات بشكل يؤدي إلى لون من ألوان الدمار الاجتماعي لأسرته، وكأن الإسلام هو السبب.

وقد يفعل الساسة ذلك التبعيض، عندما يستعيرون الإسلام كمسوغ لبعض تصرفاتهم السياسية، التي لم تنبع أصلا من الإسلام، ولا تصب في أهدافه، بغرض ستر عوراتهم السياسية والفكرية، أمام الجماهير المضَلَّلَة، كأن يجد الصلح الاستسلامي مع اليهود، أرضية إسلامية بإسقاطه على صلح الحديبية ليصطبغ بالصيغة الدينية، أو كاستعارة الإسلام في مواسم الانتخابات والرئاسيات.

وهذا وأمثاله نابع من ترك الشرع واتباع الأهواء، ولقد حذرنا الله ﷻ من ذلك التبعيض، وهذه التجزئة، فقال ﷻ: ﴿ **أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡض فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ**﴾[3]-[4].

* * * * *

[1] - سورة الرعد، الآية رقم: ١١

[2] - كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: ٢٤.

[3] - سورة البقرة، الآية رقم: ٨٥

[4] - حتى يتحقق الشهود الحضاري، ص: ٢٢:١٩.

المقدمة التاسعة

المبشرات بانتصار الإسلام

الفصل الأول – المستقبل لهذا الدين

الفصل الأول – المستقبل لهذا الدين

المستقبل للإسلام عقيدة

نحن نعتقد أن المستقبل للإسلام، باعتباره منهج حياة واقعية بكل مقوماتها، يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، ويحدد غاية وجوده الإنساني، ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي، وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، ولا يمكن بحال أن يكون هناك أمل في أي محاولة لتصويره في صورة العقيدة الوجدانية المنعزلة عن واقع الحياة البشرية.

وإذا كانت الصليبية العالمية، والصهيونية العالمية، قد نالت انتصارها الحاسم بإلغاء الخلافة الإسلامية، ولا تزال تبذل جهودا ضخمة، للإجهاز على الإسلام، وتنحيته حتى عن مكان العقيدة، وإحلال تصورات وضعية أخرى مكانه، تنبثق منها مفاهيم وقيم، وأنظمة وأوضاع، تملأ فراغ العقيدة. مع ما صاحب ذلك كله من ضربات وحشية تُكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان على ظهر هذه الأرض، تشترك فيها كل المعسكرات المتخاصمة التي لا تلتقي على شيء في مشارق الأرض ومغاربها، إلا على الخوف من البعث الإسلامي الوشيك، الذي تحتمه طبائع الأشياء، وحقائق الوجود والحياة، ودلالات الواقع البشرى من هنا ومن هناك. لكن ما نستيقنه أن الناس عائدون إلى الله ﷻ، عائدون إلى منهجه هذا للحياة، وأن المستقبل لهذا الدين عن يقين[1].

لماذا يجب علينا الحديث عن المبشرات؟

ونحن نعتقد أن الحديث عن المبشرات مطلوب – وخصوصا في هذه الآونة – لأكثر من سبب:

١- لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشر، ولا ننفر، فحينما أرسل النبي ﷺ معاذا، وأبا موسى إلى اليمن أوصاهما: **(يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا)**[2].

٢- لأن المسلمين عامة، والعاملين للإسلام خاصة، يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم، وتكاد تغلب عليهم عوامل اليأس، ومشاعر الإحباط، بسبب الضربات المتلاحقة التي توجه بخبث – من أعداء الإسلام، إلى الصحوة الإسلامية.

---

[1] - المستقبل لهذا الدين، ص: ٥:٨، ١١.

[2] - تخريج الحديث

٣- لأن القوى المعادية للإسلام قد أعلنت على الإسلاميين حربا نفسية، تبث فيهم اليأس من الأمل في غد أفضل، والرجاء في مستقبل مشرق، وتتهم وتلطخ كل ما هو إسلامي بتهم كثيرة، وعلينا أن نقاوم هذه الحملات بسلاح نشر الأمل بانتصار الإسلام، وإحياء الرجاء في مستقبله.

٤- لأن كثير من المتدينين يشيع بينهم فكر سوداوي مغلوط عن مستقبل الأمة، هذا الفكر مؤسس على أفهام شاعت لبعض الأحاديث التي وردت في سياق الكلام عن الفتن والملاحم، وأشراط الساعة[١]. ومعنى هذا: أن لا أمل في تغيير، ولا رجاء في إصلاح، وإننا ننتقل من أسوأ إلى أسوأ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءا. وهذا لا شك خطأ جسيم، وسوء فهم لما ورد من بعض النصوص الجزئية، وإغفال للمبشرات الكثيرة الناصعة القاطعة، بأن المستقبل للإسلام، وان هذا الدين سيظهره الله ﷻ على كل الأديان، ولو كره المشركون[٢].

لا نتكل على المبشرات بمستقبل الإسلام

والمبشرات بمستقبل الإسلام، لا ينبغي أن نتكل عليها، وننتظر نصر الله ﷻ أن ينزل علينا دون جهد نبذله، وجهاد نمارسه، وعمل دؤوب نقوم به في جوانب حياتنا كلها: نقوم ما اعوج منها، ونصلح ما فسد، ونبني ما تهدم، ونقوي ما ضعف، ونكمل ما نقص، بروح المجددين لا بعقلية المقلدين.

نستلهم تراثنا، ونجعله منارا يهدينا، لا قيدا يثقل حركتنا، ويعوق انطلاقنا. نقتبس الحكمة من أي وعاء خرجت، ونخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم، وننمو نموا حقيقا: اقتصاديا، وبشريا، ماديا ومعنويا، ونجند طاقتنا كلها لتنمية شاملة للحياة والإنسان، وأن نتخذ من الإسلام أكبر حافز لحشد هذه الطاقات وتقويتها، ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة قد تبلغ عشرة أضعاف الجهد العادي.

فلا نتوقع أن تنزل ملائكة السماء التي نزلت في بدر أو الأحزاب أو حنين، فالرسالات لا تنتصر إلا بأهلها، والحق لا يعلو وحده، إنما وفق سنن الله ﷻ بدعاته ورجاله الذي جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص. فيستحيل أن ينصر الله ﷻ الكُسالى على العاملين، والمختلفين على المتحدين، والفوضويين على المنظمين، والمرتجلين على المخططين، والمتسيبين على المنضبطين، والمفكرين في مصالحهم على المفكرين في هموم أمتهم.

فالمبشرات بانتصار الإسلام يجب أن تمنحنا وقودا متجددا، لمزيد من العطاء والعمل الذي تحتاج إليه أمتنا على كل صعيد، ولا تطمع الأمة أن يمدها الله ﷻ بنصره، على ما بها من سيء الخصال، وسيء الأفعال، بل

---

[١] - القرضاوي: يوسف، المبشرات بانتصار الإسلام، ط: مكتبة وهبة – القاهرة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م، المقدمة، ص: ٥:٨.

[٢] - المصدر السابق، ص: ٩

لابد للأمة أن تغير ما بأنفسها حتى يغير الله ﷻ ما بها. ولا تطمع الأمة على أن تنتصر على اليهود وهي على حالها من التخلف والتمزق، والتعادي، والعجز والكسل، التسيب والضياع[1].

* * * * *

[1] ـ المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٩٨،٩٩.

الفصل الثاني – المبشرات من القرآن الكريم

الفصل الثاني – المبشرات من القرآن الكريم

فيما يلي نذكر بعض المبشرات من القرآن الكريم:

١- ليظهره على الدين كله

قال الله ﷻ: ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ** ﴾[١].

ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدا** ﴾[٢].

ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ** ﴾[٣].

فهم يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل، كذلك ذاك مستحيل[٤]. وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الإسلام في عصرنا، حيث يرون أن مراد دول الكفر وأممهم وأذنابهم في الداخل إطفاء نور الله ﷻ، ولكن حين يتعارض مرادان: مراد الله ﷻ، ومراد خلقه، فإرادة الله ﷻ هي النافذة، وإرادة الله ﷻ إتمام نوره على رغم الكافرين، فالمستقبل إذن لهذا الدين.[٥]

ومعنى ظهوره على الدين كله، غلبته على جميع الأديان، وفي القرون الإسلامية الأولى غلب الإسلام على اليهودية والنصرانية، والوثنية العربية، والمجوسية الفارسية، وبعض أديان آسيا وأفريقيا، ولكنه لم ينتصر على جميع الأديان، فلا زلنا ننتظر هذه البشارة، ولن يخلف الله ﷻ وعده[٦].

---
[١] - سورة التوبة، الآيات: ٣٢،٣٣

[٢] - سورة الفتح، الآية رقم: ٢٨

[٣] - سورة الصف، الآيات: ٨،٧

[٤] - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١١٢/٨.

[٥] - حوى: سعيد (ت ١٤٠٩ هـ)، الأساس في التفسير، ط: دار السلام، ١٤٢٤ هـ ، ٥٨٨٣/١٠.

[٦] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٢٨.

٢- الوعد بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن

قال الله ﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[١].

وعدهم الله ﷻ أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورثهم الأرض، ويجعلهم خلفاء فيها كما فعل بمن حمل دينه من قبل، وأن يمكن الدين المرتضى وهو الإسلام- وتمكينه تثبيته وتوطيده - وأن يؤمن سربهم، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه[٢].

ولقد تحقق وعد الله ﷻ في عهد النبي ﷺ ، وظل متحققا وواقعا من بعده، ما أقام المسلمون على شرط الله ﷻ: ﴿ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ ﴾، أي آمنوا وعملوا الصالحات وعبدوه عباده شاملة كاملة، ولا يشركون به شيئا من الآلهة والطواغيت المادية والمعنوية، ولا من الشهوات. ووعد الله ﷻ مذخور لكل من يقوم على الشرط إلى يوم القيامة. إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين لتخلف شرط الله ﷻ في جانب من جوانبه الفسيحة، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة[٣].

٣- الوعد برد كيد الكائدين ومكر الماكرين

يكمل وعد الله ﷻ بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم، ومكرهم بالإسلام وأهله، وجهودهم الدائبة لإطفاء نوره، وأنه تعالى سيرد كيدهم في نحورهم، ويعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم. وهو ﷻ لا يخلف الميعاد. ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدا وَأَكِيدُ كَيۡدا فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾[٤]، وقوله ﷻ: ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الماكِرِينَ** ﴾[٥]، وقوله ﷻ: ﴿ **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾[٦]

*****

---

[١] - سورة النور، الآية رقم: ٥٥

[٢] - الأساس في التفسير، ٣٨٠٢/٧

[٣] - في ظلال القرآن، ٢٥٢٩/٤.

[٤] - سورة الطارق، الآيات: ١٥:١٧

[٥] - سورة الأنفال، الآية رقم: ٣٠

[٦] - سورة يونس، الآيات: ٨١،٨٢

الفصل الثاني – المبشرات من السنة النبوية

في السنة النبوية، والسيرة النبوية: مبشرات كثيرة ووفيرة، قد حفلت بها دواوين الحديث الشريف، ولكن المسلمين – في عصور التراجع والتخلف – أغفلوها ونسوها، ولم يذكروا إلا أحاديث الفتن وأشراط الساعة، وقد فهموها فهما يوحي باليأس من صلاح الحال، ومن كل عمل ينهض بالأمة من عثرتها، ويجتهد في تغيير الواقع إلى ما هو أحسن وأمثل. ولا يُعقل أن يصدر من هادي الأمة ﷺ ما يثبطها عن محاولة الإصلاح وإرادة التغيير. وفيما يلي نسوق بعض المبشرات بأن المستقبل الإسلام، وأن الغد له ولأمته، أخبر بها من لا ينطق عن الهوى[١]:

١- انتشار الإسلام في العالم كله

عن تميم الداري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(ليبلغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ ولا يتركُ اللهُ بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله اللهُ هذا الدينَ بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليلٍ عزًّا يعزُّ اللهُ به الإسلامَ وأهلَه وذلًّا يذلُّ اللهُ به الكفرَ)**[٢].

ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار: انتشاره في الأرض كلها، حيث يبلغ الليل والنهار، ودخول هذا الدين الحواضر (بيوت المدر أو الحجر) والبوادي (بيوت الوبر والشَعْر)، وسيدخلها الإسلام جميعا[٣].

وتدور ملحمة (طوفان الأقصى) أثناء كتابة هذه السطور، ولعلنا نتابع كيف أن المئات والآلاف من الأوربيين والأمريكيين دخلوا ويدخلون في دين الإسلام أفواجا، تأثرا بثبات أهل غزة الأبطال.

٢– عودة الإسلام إلى أوروبا وفتح رومية

عن أَبي قَبِيلٍ، قَال: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، وَسُئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا: الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ، قَالَ: فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا: قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا)** يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ[٤].

[١] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٢٦.
[٢] - مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ١٦٩٥٧.
[٣] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٢٧.
[٤]- مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ٦٦٤٥.

ورومية هي: روما عاصمة إيطاليا الآن، والقسطنطينية هي: استانبول الآن، ويفهم من السؤال أن الصحابة، كانوا قد علموا قبل ذلك أن الإسلام سيفتح المدينتين، ويدخل أهلهما في دين الله ﷻ. وقد فتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ – ١٤٥٣م. وبقى الجزء الثاني من البشرى: فتح رومية، ويدخل الإسلام أوروبا مرة أخرى، بعد أن طرد منها مرتين: مرة من الأندلس، ومرة من البلقان.

وأغلب الظن ان هذا الفتح سيكون بالقلم واللسان، لا بالسيف والسنان، وأن العالم سيفتح ذراعيه وصدره للإسلام، بعد أن تشقيه الفلسفات المادية (الأيديولوجيات) الوضعية، ويتطلع إلى مدد من السماء، وهدي من الله ﷻ، فلا يجد إلا الإسلام طوقا للنجاة. والفتح السلمي له أصل في الإسلام، فقد سمى الله ﷻ صلح الحديبية فتحا، بل (فتحا مبينا)، وأنزل في ذلك سورة الفتح[1].

٣- عودة الخلافة على منهاج النبوة

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، قَالَ :كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ، فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ، فَقَالَ :يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ :أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ، فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ)**" ثُمَّ سَكَتَ[2].

والملك العاض – وفي رواية: العضوض– هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم، كأنه له أنيابا تعض. أما الملك الجبري فهو القائم على الجبروت والطغيان، أشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا.

وهذا الحديث يبشر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان، وعودة الخلافة الراشدة، المتبعة لمنهاج النبوة في إقامة العدل والشورى، ورعاية حدود الله ﷻ، وحقوق العباد[3].

---

[1] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٢٨:٣٠.

[2] - ابن حنبل: أحمد (ت ٢٤١ هـ) ، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م، حديث رقم: ١٨٤٠٦.

[3] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٣٣،٣٤.

٤- الانتصار على اليهود

عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **(تُقَاتِلُكُمُ الْيَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ)**[١].

وسواء كان نطق الحجر بلسان المقال – آية من آيات الله ﷻ – أو بلسان الحال، فإن المعنى المراد أن كل شيء سيكون في صالح المسلمين، وضد أعدائهم اليهود، وأن النصر آت لا ريب فيه، وأن أسطورة (القوة التي لا تقهر) التي يشيعها اليهود لن تستمر، وأن الذين اغتصبوا فلسطين بقوة السلاح، سيخذلهم الله ﷻ، الذي يملى للظالمين، ثم يأخذهم أخذا أليما شديدا، ولن تغني عنهم ترسانتهم النووية التي يُدِلُّون بها، كما لم تغن حصون أسلافهم من بني النضير عنهم شيئا، حين جاءهم بأس الله ﷻ الذي لا يُرد عن القوم المجرمين[٢].

ولعل بشائر ذلك ما نراه في الحروب التي حدثت بين اليهود والمقاومة الفلسطينية في غزة والضفة، وآخرها (معركة طوفان الأقصى) التي نعيش أحداثها حاليا.

٥- بقاء الطائفة المنصورة

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ ." قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ)**[٣]

وعن مُعَاوِيَة بْنُ قُرَّة، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)** [٤].

ومعنى هذه الأحاديث: أن الخير سيستمر في هذه الأمة، وأنها لا تخلو من قائم لله ﷻ بالحجة، ومن ناصر للحق، مستمسك به، حتى تقوم الساعة، وأن هذه الطائفة المنصورة باقية حتى يأتي أمر الله ﷻ، وإن أصابها ما أصابها من لأواء وأذي[٥].

---

[١] - مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ٦٣٦٦.
[٢] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٣٥.
[٣]- مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ٢٢٣٢٠.
[٤]- المصدر السابق، حديث رقم: ١٥٥٩٧.
[٥] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٣٧.

٦- ظهور المجددين في كل قرن

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)**[(١)]. وكلمة (مَنْ) في الحديث تشمل المفرد والجمع، وهو ما ذهب إليه بعض الشراح، وهو ما نختاره، فقد يكون المجدد جماعة دعوية أو تربوية أو جهادية، وهنا يكون سؤال المسلم: ما دوري في حركة التجديد؟ بدل أن يكون كل همه انتظار ظهور المجدد، وهو لا حول له ولا قوة[(٢)].

٧- نزول المسيح ﵇

من المبشرات التي صحت بها السنة: نزول المسيح عيسى ابن مريم ﵇ في آخر الزمان حاكما بشريعة الإسلام، خليفة لمحمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين. وقد ذكر المحققون من علماء الحديث أن الأحاديث التي وردت في هذا الشأن بلغت حد التواتر، الذي يثبت به العلم اليقيني. ومن آمن بقدرة الله ﷻ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعرف آيات الله ﷻ في الكون، وآياته التي أيد بها رسله، لم يصعب عليه أن يؤمن بنزول المسيح من السماء، بعد أن رفعه الله ﷻ إليها، حين أراد أعداؤه قتله وصلبه ﵇ ، كما قال ﷻ: ﴿ **بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما** ﴾[(٣)] . وحتى لو قلنا كما قال بعضهم: إن المسيح ﵇ مات، فليس بعيدا ولا غريبا أن يبعثه الله ﷻ ويحييه، آية لخلقه، كما كان هو يحيي الموتى بإذن الله ﷻ[(٤)].

٨- ظهور المهدي

من المبشرات المشهورة في السنة: الأحاديث التي جاءت في شأن ظهور المهدي، والصحيح منها الذي لا اعتراض عليه، ولا ينبغي أن يخالف فيه مخالف: أن هناك حاكما مسلما ملتزما بالإسلام، سيظهر بعد عهود جور وفساد، يقيم دين الله ﷻ في الأرض، ويملؤها عدلا، كما ملئت ظلما وجورا. أما الخلاف فهو في نسبه واسمه وشكله وصورته ووقت ظهوره، وهذا لا يهمنا. إنما الذي يهمنا هو الفكرة نفسها، وهي إحدى البشائر النبوية، وحسبنا هنا مثل الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن علي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **(لو لم يَبْقَ مِنَ الدنيا إلى يومٌ لَبَعَثَ اللهُ رجُلًا مِنْ أهلِ بيْتِي، يملؤُها عدْلًا كما مُلِئَتْ جوْرًا)**[(٥)]-[(٦)].

*****

---

(١) - الأزدي السجستاني: سليمان بن الأشعث بن أسحاق، أبو داود (ت ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، حديث رقم:

(٢)- المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٣٨.

(٣) - سورة النساء، الآية رقم: ١٥٨

(٤) - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٣٨،٣٩.

(٥) - مسند أبو داود، حديث رقم: ٤٢٨٣.

(٦) - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٣٩،٤٠.

الفصل الثالث – المبشرات من التاريخ

المبشرات أيضا من التاريخ

لا تقف المبشرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنية والحديثية المتوافرة، والتي تملأ القلب يقينا بأن الغد لهذا الدين العظيم. بل إننا نجد في وقائع التاريخ وأحداث الماضي: ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل في مستقبل الإسلام، برغم ما يقف في سبيله اليوم من عقبات، وما يعوق صحوته من عوائق هائلة، بعضها من صنع أعدائه في الخارج، وأخرى من صنع خصومه في الداخل، وأعجب شيء أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم ممن يحملون اسم الإسلام، ولكنهم – في الحقيقة – قد انضموا إلى صفوف محاربيه، فلا يريدون لشريعته أن تحكم، ولا لقيمه أن تسود، ولا لكلمته أن تكون هي العليا[١].

حقيقتان كبيرتان من التاريخ

حسبنا من مبشرات التاريخ عامة، وتاريخنا خاصة – الذي يبدأ بسيرة النبي ﷺ – : حقيقتان كبيرتان في غاية الأهمية في موضوعنا:

أ- نزول النصر أحوج ما نكون إليه

فالنصر لا يأتي من عند الله ﷻ إلا عندما يكون الناس أحوج شيء إليه، وعندما يبرأ الناس من حولهم وقوتهم، ويلوذون بحول الله ﷻ وقوته، وعندما تغلق الأبواب في وجوههم إلا بابه، وتنقطع الأسباب دونهم إلا أسبابه، هنالك يدعون دعاء المضطرين، ويلجئون إليه لجوء المفتقرين. وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه، ولا يخيب من افتقر إيه ورجاه.

رأينا ذلك في هجرة النبي ﷺ ، وقد لجأ إلى الغار، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر، ورأينا ذلك النصر في يوم بدر، وقد كان المسلمون أقل من ثلث الكفار، وأضعف عدة، وأضعف استعدادا وتهيؤا للحرب من الناحية النفسية، ورأينا ذلك النصر يوم الخندق، وقد اشتد الكرب على المسلمين، حين غزاهم المشركون في عقر دارهم، وحاصروهم. كما رأينا ذلك يوم حنين[٢].

---

[١] – المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٤١.

[٢] - المصدر السابق، ص: ٤٢:٤٦.

ب- قوة الأمة عند الشدائد

الحقيقة التاريخية الثانية: هو المخزون النفسي والروحي الكبير، الذي تدخره الأمة، ولا يبرز إلا في المحن. فالتاريخ يحدثنا أن في الإسلام (قوة ذاتية) مخبوءة، لا تبرز إلا عند حلول الشدائد بساحته، وإحاطة المحن بأمته. فهناك نراه أصلب ما يكون عودا، وأعظم ما يكون صمودا، وأشد من يكون قوة، وأقدر ما يكون على تفجير الطاقات المكنونة لأمته، وإبراز ما خبئ من قوته وقدرته، فإذا هو يقاوم فيصمد، بل يغالِب فيغلب، وإذا الضعف الظاهر، الذي أطمع الناس قد استحال إلى قوة، بل إلى قوة قاهر منتصرة. وقد رأينا ذلك يوم بدر، وفي حروب الردة، وفي الحروب الصليبية، وفي حروب التتار. وفي حروب التحرير في العصر الحديث، التي للأسف تكون في الأساس حركات دينية، ثم يحصد ثمارها العلمانيون، فهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين[1].

*****

[1] ـ المصدر السابق، ص: ٥٢:٢٧.

الفصل الرابع – المبشرات من الواقع

الواقع المريض لا يستمر

لا ينكر أحد الواقع الذي وصل إليه حال المسلمين اليوم، لكن ترك هذا الواقع بلا مقاومة مناف لطبيعة الحياة الإسلامية، وطبيعة الرسالة الإسلامية، وطبيعة الأمة الإسلامية، التي لا تجتمع على ضلالة، ولا تزال فيها طائفة قائمة على أمر الله ﷻ، ممن يهدون بالحق وبه يعدلون. ولا يزال يبعث الله ﷻ فيها، أو يبعث لها ما بين قرن وآخر من يجدد لها دينها، وهو ما أثبته التاريخ المقروء كما أثبته الواقع المستقر[١].

بين الأمس واليوم

بعد غزو نابليون لمصر، وبعد الانهيار والتمزق المتتالي للإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تنبأ الكثير من السياسيين والمستشرقين باختفاء الإسلام تماما، في غضون حياتهم، فدرسوا الإسلام كحضارة عل وشك الاندثار، عليهم أن يسجلوها لأجيال المستقبل[٢].

وقد اختلف موقف المستشرقين من الإسلام، منذ عشرينات القرن الحالي، وكان ذلك بداية لتغييرات أخرى إيجابية، فلم تعد دراسة الإسلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبريالية البريطانية، بل تولته نخبة من الأكاديميين الأوروبيين منهم من أسلم، ومنهم من بدا على وشك الشهادة، وكثير من المستشرقين تحلوا في دراستهم الإسلام بروح التعاطف والاعتناق، بدلا من الاشمئزاز والضيق.

وفي نفس الوقت، منذ ثلاثينات القرن العشرين، وضعت حركات إحياء الإسلام – من القاعدة – في معظم البلاد الإسلامية، الإسلام في الأجندة السياسية للبلاد الإسلامية. كما جاء الإحياء من أعلى بفضل اغنياء العالم الإسلامي، وانتشار الإمكانيات المادية. هذا التطوير، نُظر إليه كتهديد أصولي، مما جعل الإسلام يحتل القمة في ما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن العشرين.

ولا يتوقع اليوم أحد أن يختفي الإسلام، ولكن أن يمتد، بل وينفجر. ويضع جنرالات الناتو في حسبانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالا في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب، فالإسلام هو العدو المتنامي المرتقب.

---

[١]- المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٥٩.

[٢] ـ المصدر السابق، ص: ٦١.

ولقد ارتفع عدد المسلمين في أوروبا وأمريكا بشكل كبير جدا، كما انتشرت المساجد في العالم كله، وزادت الجامعات الإسلامية، حتى أنه في قرطبة، الحاضرة القديمة للخلافة الأموية في الأندلس، أسس المسلمون الإسبان في عام ١٩٩٤م الجامعة الإسلامية الدولية (آفيروس). وليس بعيدا عن الجامع القديم الرائع في قرطبة، يرفع الآذان ثانيا للصلاة[١].

استمرار حركة الإحياء والتجديد

من خصائص الإسلام أن حركة الإحياء والتجديد فيه من الداخل مستمرة، ولا تنقطع حتى تقوم الساعة، بواسطة (الوراث الحقيقيين) لعلم النبوة، الذين يقدمونه للناس خالصا غير مشوب، متكاملا غير مجزأ، بينا غير غامض.

وها هي الصحوة الإسلامية في سائر ديار العرب والإسلام، بل حتى خارج ديار الإسلام، حيث الأقليات والجاليات الإسلامية في الشرق والغرب، صحوة أيقظت العقول والقلوب، والعزائم، وأعادت للناس الثقة بالإسلام، والأمل في انتصاره، بعد أن ظن من ظن أن راية الإسلام قد سقطت، وأن ظله قد تقلص، وأن أمته أمست في مؤخرة القافلة، وأن العلمانية قد تغلغلت بين أبنائه[٢].

الصحوة الإسلامية وآثارها في الحياة الإسلامية

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر أثر الصحوة الإسلامية في حياتنا المعاصرة، سواء داخل بلاد المسلمين أو بين الأقليات الكبيرة والصغيرة، والجاليات المنتشرة في أنحاء العالم:

أ- أيقظت العقول بالوعي، والقلوب بالإيمان والحماس، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل، وصححت من مفاهيم الأجيال الجديدة.

ب- أثبتت هذه الصحوة وجودها على الصعيد الفكري، بكثرة المؤلفات الإسلامية، ومئات أو آلاف الأطروحات للماجستير والدكتوراة في مختلف جوانب الثقافة الإسلامية.

ج- على الصعيد السلوكي، امتلأت المساجد بالمصلين، وازدحمت مواسم الحج والعمرة، وانتشر الحجاب.

ء- على الصعيد الاقتصادي، نشأت البنوك والمؤسسات المالية الإسلامية.

هـ- على الصعيد السياسي، أصبح هناك تيار شعبي هائل، ينادى بالعودة إلى الإسلام، وتطبيق شريعة الإسلام.

---

(١) - المصدر السابق، ص: ٦١:٦٥.

(٢) - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٦٦،٦٧.

و- على الصعيد الجهادي، انتصرت أفغانستان على الاتحاد السوفيتي، والأمريكان، وأقامت دولتها الإسلامية، وتخوض المقاومة الفلسطينية الإسلامية والوطنية معارك طاحنة مع أحفاد القردة والخنازير في معركة (طوفان الأقصى).

وإذا كنا نعيش في الزمن الإسرائيلي، حيث إسرائيل هي الآمر الناهي في المنطقة، وتعمل جاهدة على تهويد العقل العربي، والتطبيع مع كافة الدول العربية، وتعلن الحرب على الصحوة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية، تحت عناوين شتى، لخدمة هدف بقاء إسرائيل، وسيادة إسرائيل، وتوسع إسرائيل، وهيمنة إسرائيل، ولكن الصحوة باقية إن شاء الله ﷻ[1]، ولعل معركة (طوفان الأقصى) خير دليل وشاهد على قرب انتهاء الحقبة الإسرائيلية إن شاء الله ﷻ.

التيار الإسلامي أقوى وأرجح في الميزان

إذا كانت الصليبية العالمية، والصهيونية العالمية، تخططان لضرب الإسلام وصحوته، وتمدان التيارات المعادية للإسلام بكل أسباب القوة والانتشار والنفوذ، إلا أن كفة التيار الإسلامي – بحمد الله – أرجح وأثقل في الميزان:

أ- تملك الحركة الإسلامية بإسلامها، رصيدا ضخما من قوة الجماهير الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها وبمحمدهاﷺ، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله ﷻ، ويضع يدها في يد رسول الله ﷺ، وعندئذ تبذل المال عن رضا، والروح عن طواعية. وإن هذه الأمة متدينة بفطرتها، وبتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصاقل مواهبها، وصانع بطولاتها، وسر انتصاراتها الكبرى، وهي أسرع استجابة إليه، والتفافا به، من أي دعوة دخيلة جاء بها غاصب محلت، أو بذر بذورها طامع متربص.

ب- تملك أيضا قوة المنهج الإسلامي، الواضح، الشامل، العميق، المتزن: عقيدة تخاطب العقل، وعبادة تزكي النفس، وأخلاقا تلائم الفطرة، وأحكاما تحقق التوازن والعدل، تطارد المفاسد، وتجلب المصالح، وتعطي كل ذي حق حقه.

ج- لا يعادل تلك القوة المذخورة في منهج الإسلام، إلا القوى المكنونة في حنايا أمة الإسلام. تلك القوى التي انفجرت يوما والمسلمون في ضعف وتفرق وخزلان، فحطمت الصليبيين في (حطين)، وهزمت التتار في (عين جالوت)[2].

القوى التي تملكها الأمة

---

[1] – المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٦٨:٧٠.
[2] – المصدر السابق، ص: ٧٠:٧٣.

القوى التي تملكها الأمة الإسلامية ليست بالهينة ولا اليسيرة، إذا أحسن توظيفها والاستفادة منها، فهي في الحق قوى كبيرة وهائلة:

١- **القوى البشرية:** العددية، ورغم أن العبرة بالكم لا بالكيف، لكن الكم له أهمية، والكثرة في حد ذاتها نعمة، وشرط لأي تفوق اقتصادي أو حضاري.

٢- **القوة المادية والاقتصادية:** حيث تملك الأمة من المعادن والثروات المذخورة في باطن الأرض، أو المنشورة على ظاهرها، والثروات المائية والبحرية، ما لا تملكه أمة أخرى، بالإضافة إلى الموقع الجغرافي الاستراتيجي والحضاري.

٣- **القوة الروحية:** المتمثلة في قوة الرسالة الإسلامية، التي تؤمن بها، وتدعو إليها، وتحيا لها، وتموت عليها[١].

* * * * *

[١] – المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٧٣:٧٦.

الفصل الخامس – المبشرات من السنن الإلهية

لله ﷻ سنن وقوانين ثابتة في الخلق والاجتماع الإنسان، تجري على الآخرين، كما جرت على الأولين، وتجري على المسلمين، وعلى المشركين، لا تتخلف ولا تتبدل: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا** ﴾[1]. وإذا نظرنا إلى هذه السنن وجدنا مجموعة منها في صفنا نحن المسلمين، ودعاة الإسلام:

سنة التداول

سنة التداول أو المداولة للأيام بين الأمم والأقوام قررتها سورة آل عمران: ﴿ **إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡح فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡح مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ** ﴾[2]، فالأحوال تتبدل، والدنيا تتحول، والعالم يتغير. ومن نظر في أحوال الأمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أمة، ومن يد إلى يد. ومن حسن حظنا أن سنة التداول أو قانون المداولة بين الناس يعمل معنا لا ضدنا، فالدور لنا لا علينا. فقد انتقلت القيادة قديما في يد الشرق على أيدى الحضارات القديمة، ثم انتقلت إلى الغرب على يد الحضارة الرومانية، والحضارة اليونانية، ثم انتقلت إلى الشرق مرة أخرى على يد الحضارة العربية الإسلامية، ثم غفا الشرق وغفل عن رسالته، فانتقلت القيادة إلى الغرب مرة أخرى، لكنه لم يرع أمانة هذه القيادة، بل أفلس في ميدان الروح والأخلاق، وفرط في العدل، وأعلى القوة على الحق، والمصالح على القيم، والمادة على الروح، والجماد على الإنسان، وكال بمكيالين في التعامل مع القضايا البشرية، فكان من سنة الله ﷻ أن تنتقل الشعلة إلى غيره. فقد سقط الاتحاد السوفييتي، والغرب المنفرد الآن بالقوة وبالتأثير في الساحة العالمية ليس أحسن حالا من نظيره السوفييتي. والمفروض حسب استقراء التاريخ: أن تعود إلى الشرق الإسلامي مرة أخرى، فعليه أن يتهيأ لذلك، ويعد له العدة، ﴿ **قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ** ﴾[3]–[4].

سنة التغيير

سنة التغيير قررها القرآن الكريم، في أكثر من آية. فالذين يتغيرون من الخير إلى الشر، ومن الاستقامة إلى الانحراف، ومن الصلاح إلى الفساد، ومن البصيرة إلى العمى، يغير الله ﷻ ما بهم من حال النعمة إلى النقمة، ومن القوة إلى الضعف، ومن العزة إلى الذل، ومن الرخاء إلى الشدة، قال ﷻ: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا**

[1] - سورة فاطر، الآية رقم: ٤٣
[2] - سورة آل عمران، الآية رقم: ١٤٠
[3] - سورة الأعراف، الآية رقم: ١٢٩
[4] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٨٦:٨٣.

نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم * كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾[1]، وبتطبيق هذه السنة على أهل الحضارة الغربية نجد أنهم أهل لأن يعمل الله ﷻ فيهم سنته، فيغير ما بهم، ويسحب القيادة منهم، وينقلها إلى غيرهم.

وتتمة هذه السنة: أن الذين يتغير ما بأنفسهم من الشر إلى الخير، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكسل إلى العمل، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، فهم أهل أن يغير الله ﷻ حالهم، أو يغير ما بهم من الضعف إلى القوة، ومن الذلة إلى العزة، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاستضعاف إلى التمكين. وهذا ما يمنح هذه الأمة الأمل إذا ما غيرت حالها إلى حال أفضل[2]، قال ﷻ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾[3]

*****

---

(1) - سورة الأنفال، الآيات: ٥٣،٥٤

(2) - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ٨٦:٨٨.

(3) - سورة الرعد، الآية رقم: ١١

الفصل السادس – أضواء على أحاديث أسيء فهمها

الحديث الأول

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** »[١].

وعَنْه أيضا أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاء**).[٢]

الشرح

بدأ الإسلام غريبًا: نشأ الإسلام قليل الأَهالِي والحَمَلَةِ، فكان حينذاك غريباً بغربة أهله، لقلتهم وضعفهم مع كثرة خصومهم وقوتهم وطغيانهم وتسلطهم على المسلمين.

وسيعود غريبًا: سيصير في آخر الزمان بعد ظهوره وعلوه وشهرته وانتشاره في مشارق الأرض ومغاربها وغلبته على سائر الأديان والملل كما بدأ، سيصير غريبًا قليل الأهل والحفظة؛ كما كان في بدايته وأول ظهوره، قليل الحملة والأصحاب[٣].

فطوبى للغرباء: فطيبُ العيشِ أو الجنةُ لمن تغرب بدينه؛ طلبًا لسلامته من الفتن فيه[٤].

من الناس من يفهم من هذا الحديث أن الإسلام إذا وصل إلى هذه الحالة لا يعود إليه مجده ولا ترد إليه حياته. لكن نقول: إن الحديث صريح في أن نشأته الثانية ستكون كنشأته الأولى. غربة وضعف، ثم معرفة وقوة وسيادة، تجمع أطراف السعادة[٥]. ويؤيده التشبيه في قوله ﷺ: (**وسيعود غريباً كما بدأ**)، فكما كان بعد الغربة الأولى عز للمسلمين وانتشار للإسلام، فكذا سيكون له بعد الغربة الثانية نصر وانتشار. وهذا الرأي أظهر، ويؤيده ما ثبت في أحاديث المهدي، ونزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، من انتشار الإسلام وعزة المسلمين وقوتهم، ودحض الكفر والكفرة.[٦]

وهذا لا يمنع أن يكون للغرباء خطة يسيرون عليها، وأولويات يرتبونها في العمل الذي يقومون به لإزالة الغربة عن الإسلام في واقعه المعاصر. فلا يصلح العمل بغير قاعدة صلبة تنتقل الدعوة منها إلى الجماهير.[٧]

---

[١] - صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٣٢.

[٢] - الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت ٢٧٩ هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، حديث رقم: ٢٦٢٩.

[٣] - رشيد رضا: محمد (ت ١٣٥٤ هـ)، مجلة المنار، المقالة الخامسة: ما ينبغي للمسلمين علمه وعمله، مجلد: ٢٥، صفحة:٦٧٣. https://ar.lib.efatwa.ir/٤٤٨٧٣/٢٥/٦٧٣

[٤] - الهرري: محمد الأمين بن عبد الله، شرح سنن ابن ماجة، ط: دار المنهاج – المملكة العربية السعودية – جدة ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، ٧٣/٢٤.

[٥] - رشيد رضا: محمد (ت ١٣٥٤ هـ)، مجلة المنار، الحياة المِلِّية: ملخص خطاب ألقاه منشئ هذه المجلة في جمعية شمس الإسلام، مجلد: ٢، ص: ٣٠٦.

[٦] - موقع: الإسلام سؤال وجواب، فتوى: ما معنى هذا الحديث: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ) - فتوى رقم: ٤٥٨٥٥. https://islamqa.info/ar/answers/٤٥٨٥٥/بدا-الاسلام-غريبا-وسيعود-غريبا

[٧] - كيف ندعو الناس – الغربة الثانية، (مقال).

الحديث الثاني

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا يلقون مِنَ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ (**لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**) ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ[1].

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل، ومحاولة الإصلاح والإنقاذ، مدعيا أن الحديث يدل على أن الأمور في تدهور دائم، وسقوط مستمر، حتى تقوم الساعة على شرار الناس. وغيرهم توقف في قبول الحديث، ورده البعض لأنه في ظنه يدعو إلى اليأس، وإلى السلبية، ويعارض فكرة التطور التي قام عليها نظام الكون والحياة، وينافي الواقع التاريخي للمسلمين، ويعارض الأحاديث التي جاءت في ظهور خليفة يملأ الأرض عدلا (المهدي)، ونزول عيسى عليه السلام، وإقامته لدولة الإسلام، وإعلاء كلمته في الأرض.

لكن هذا الحديث صحيح، وقد استشكل السابقون من العلماء ما فهم من إطلاق الحديث (**إن كل زمن شر من الذي قبله**) مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها. كما إن التاريخ الإسلامي يثبت أن فترات الركود والجمود كانت تأتي بعدها أزمنة حركة وتجديد[2].

وأرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ في (الفتح) بقوله: "وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَزْمِنَةِ الْمَذْكُورَةِ: أَزْمِنَةَ الصَّحَابَةِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الْمُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ فَيَخْتَصُّ بِهِمْ، فَأَمَّا مَنْ بَعْدَهُمْ فَلَمْ يُقْصَدْ فِي الْخَبَرِ الْمَذْكُورِ، لَكِنَّ الصَّحَابِيَّ فَهِمَ التَّعْمِيمَ، فَلِذَلِكَ أَجَابَ مَنْ شَكَا إِلَيْهِ الْحَجَّاجَ بِذَلِكَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ، وَهُمْ أَوْ جُلُّهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ"[3] أ . هـ .

الحديث الثالث

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ: تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**)[4].

والحديث إنما دل على فضل الجيل الذي تلقى عن رسول الله ﷺ، وتربى في حضانة النبوة، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ﷻ، ومن هدي رسول الله ﷺ، وحمله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره. فهو الجيل الذي نقل القرآن للأمة، وروى لها السنن، وفتح الله ﷻ على يديه البلاد، وهدى به العباد. ثم الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب، واقتبس من مشكاتهم، واقتفى آثارهم، والجيل الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان، فرضي

---

[1] - صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٦٥٧.
[2] - المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ١٢٦،١٢٧.
[3] - فتح الباري بشرح البخاري، ٢١/١٣.
[4] - صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٠٦٥.

الله ﷺ عنه، ورضوا عنه. ولا يشك دارس منصف أن الإشعاع الروحي لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة، كان من القوة والعمق والسعة، بحيث لا يلحقه جيل آخر في أمر الدين والتقوى[١].

وإيمان المسلم بفضل القرون الأولى لا يعني أن باب الله ﷺ قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات، ولم يعد أمامها إلا الفتات، إن بقى الفتات.

فهناك أحاديث تبين فضل الأجيل اللاحقة، وتنوه بصبرها وثباتها في عصور الفتن والأزمات التي يمتحن فيها أهل الإيمان، وحملة رسالة الإسلام، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر، ومنها حديث أن للعامل في هذه الأيام أجر خمسين، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: (**أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**)[٢].

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام، وملك واسع لدولته. وصح الحديث كذلك أن الله ﷺ يبعث في كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها، وبذلك يتجدد أملها، ويقوى رجاؤها، في صلاح الحال إذا فسد، وقوة الدين إذا ضعف، واستقامة الأمر إذا اعوج[٣].

*****

---

(١) ـ المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ١٣٣.

(٢) ـ رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، برقم: ٤٣٤١، والترمذي في التفسير (٣٠٦٠)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤).

(٣) ـ المبشرات بانتصار الإسلام، ص: ١٣٢:١٣٦.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

– **ابن تيمية:** أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨ هـ)، **منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية**، ت: محمد رشاد سالم، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

– **ابن حميد:** صالح بن عبد الله، (مشرفا على مجموعة من المختصين)، **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**، ط: دار الوسيلة للنشر والتوزيع – جدة.

– **ابن حنبل:** أحمد (ت ٢٤١ هـ) ، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ت: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.

– **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)، **مقدمة ابن خلدون**، ت: عبد الله محمد الدرويش، ط: دار يعرب – دمشق، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م، ٣٦٥/١.

– **ابن عاشور:** محمد الطاهر بن محمد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير**، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م. (ش)

– **ابن كثير:** إسماعيل بن عمر (ت ٤٧٧ هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ت: سامي بن محمد السلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

– **ابن منظور:** محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١ هـ) ، **لسان العرب**، مع حواشي اليازجي وجماعة من اللغويين، ط: دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ، واقعنا المعاصر.

– **أبو الفضل:** منى، **الأمة القطب، نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام**، ط: مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

– **أبو بكر:** مروان محمد، **المسئولية**، مقال منشور على موقع الألوكة، يوم ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٩م.

https://www.alukah.net/culture/٠/%d٧٩٤٢/٨٪٧a٪٩d٪٨٤٪٩d٪٨٥٪٨d٪٣b٪٨d٪٤a٪٩d٪٨٨٪٩d٪٨٤٪
/٩a٪٨a%d٨٪٩d

– **أبو زهرة:** محمد (ت ١٣٩٤هـ)، **زهرة التفاسير**، ط: دار الفكر العربي.

– **أحمد:** سعيد، **نور الوعد الإلهي، ١– لزوم الفروض الكفائية، ودور الأفراد والمجتمع المدني**، الطبعة الإلكترونية الأولى، ٢٠٠٣م.

– **ادراعو:** عبد الغني، **وحدة الأمة الإسلامية – الأسباب والآثار والمعوقات كما بينها القرآن الكريم**، رسالة ماجستير في القرآن الكريم وعلومه، مقدمة لقسم القرآن الكريم وعلومه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م.

– **الأزدي السجستاني:** سليمان بن الأشعث بن أسحاق، أبو داود (ت ٢٧٥هـ)، **سنن أبي داود**، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

– **الألباني:** محمد ناصر ، **فتوى: القرآن دستور الإسلام، والسنة هي القانون الموضح للدستور (هذا باعتبار ما عليه الناس اليوم)** https://al-fatawa.com/fatwa/٢٨٦٥٣/القران-دستور-الاسلام-والسنة-هي-القانون-الموضح-للدستور-هذا-باعتبار-ما-عليه-الناس-اليوم-الالباني

- **أمين:** أحمد، **فجر الإسلام**، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

- **البخاري:** محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، ت: دكتور / مصطفى ديب البغا، ط: دار ابن كثير، دار اليمامة – دمشق، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

- **البدري:** توفيق، **مفهوم الأمة وأوصافها في القرآن الكريم**، بحث منشور في مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة– سابقا)، الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السن الرابعة والعشرون، العدد ٩٤، خريف ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م.

- **البزار:** أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت ٢٩٢ هـ)، **مسند البزار (البحر الزخار)**، ت: محفوظ الرحمن زين الله، وأخرون، ط: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة الأولى.

- **البغدادي:** على محمد، **عوامل فلاح الأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم (دراسة موضوعية)**، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، مقدمة لقسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية – غزة.

- **بني عياش:** محمد سعيد أحمد محمود، **المجتمع الإسلامي، معالم قوته، أسباب ضعفه، وسائل نهوضه**، بحث منشور في مجلة دراسات: علوم الشريعة والقانون، الصادرة عن الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، المجلد: ٤٥، عدد: ٤، ملحق: ٢، ٢١٠٨.

- **بهاء الدين:** شيماء، الاستخلاف، مقال منشور على موقع الفكر الإسلامي والدراسات المعاصرة، يوم ١٧ يناير ٢٠٢٢. الاستخلاف – مركز الفكر الإسلامي والدراسات المعاصرة(citcs.center)

- **البوشيخي:** الشاهد، **القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية**، ط: أنفو – برانت، فاس – المغرب، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠١م.

- **الترمذي:** محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت ٢٧٩ هـ)، **مسند الترمذي**، ت: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م، حديث رقم: ٢٦٢٩.

- **الجمل:** أحمد محمد عبد العظيم، **الأمن من منظور مقاصد الشريعة**، ط: دار السلام – للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

- **الجوهري:** إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للمالبين – بيروت، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

- **الجويني**، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، إمام الحرمين (ت ٤٧٨ هـ)، **غياث الأمم في التياث الظلم**، ت: عبد العظيم الديب، ط: مكتبة إمام الحرمين، ١٤٠١ هـ.

- **الحاكم:** محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، ت: الفريق العلمي لمكتب خدمة السنة، ط: دار المنهاج القويم للنشر والتوزيع– الجمهورية العربية السورية ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨م، حديث رقم: ٣٠٥٨. (ش)

- **حدرباش:** لوهاب، **الدولة الإسلامية الأولى: دراسة في الجانب السياسي**، بحث منشور في مجلة المعيار (تصدر كل ٣ أشهر عن كلية أصول الدين– جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة / الجزائر، مجلد: ٢٥، العدد: ٢٠٠٢/٦م.

- **حسنة:** عمر عبيد، **حتى يتحقق الشهود الحضاري**، ط: المكتب الإسلامي ١٩٩١م، ص: ١١ .. وقعنا المعاصر، من مقدمة الطبعة الأولى.

- **حماد:** محمد، اقرا باسم ربك أول التكليف، مقال منشور على موقع الخليج، ١٢ يناير ٢٠١٨. https://www.alkhaleej.ae/ملحق/«اقرأ–باسم–ربك»–أول–التكليف

– **حوى:** سعيد (ت ١٤٠٩ هـ)، **الأساس في التفسير**، ط: دار السلام، ١٤٢٤ هـ .

– **حوى:** سعيد (ت ١٤٠٩ هـ)، **كي لا نمضي بعيدا عن احتياجات العصر، الرسالة الأولى: منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة**، ط: دار عمان.

– **الخضري:** محمد، **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية**، ت: الشيخ محمد العثماني، ط: دار القلم، بيروت – لبنان، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

– **الخضري:** محمد، **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية**، ت: الشيخ محمد العثماني، ط: دار القلم، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

– **خليل:** عماد الدين، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ط: دار العلم للملايين، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

– **خليل:** عماد الدين، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، ط: المركز الثقافي العربي، والدار العربية للعلوم.

– **الدسوقي:** فاروق أحمد، **استخلاف الإنسان في الأرض**، ط: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.

– **الدميجي:** عبد الله بن عمر بن سليمان، **الإمامة العُظمى عند أهل السنة والجماعة**، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض – المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨ هـ.

– **دوزي:** رينهارت بيتر آن (ت ١٣٠٠ هـ)، **تكملة المعاجم العربية**، ط: وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية، ٢٠٠٠م.

– **الرازي:** أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، ت: عبد السلام هارون، ط: دار الفكر، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م.

– **الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد** (ت ٥٠٢هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، ت: صفوان عدنان الداودي، ط: دار القلم، الدار الشامية – دمشق – بيروت، ١٤١٢ هـ. (ش)

– **رجب:** مصطفى، **المسؤولية وضوابطها في الإسلام (٢)**، مقال على موقع جريدة الشرق، ٢٠١٥/٧/١٠.-https://al-sharq.com/opinion/١٠/٠٧/٢٠١٥D%/٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥٪D٨٪B٣٪D٨٪A٤٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨٤٪D٩٪ D٨%A٨٪A٩D%-٩٪٨٨٪D٨٪B٦٪D٩٪٨٨٪D٨٪A٧٪D٨٪A٨٪D٨٪B٧٪D٩٪٨٧٪D٨٪A٧- D%٩٪١٨٪D٩٪D٨%-A٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٥٪D٨٪B٣٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٧٪D٩٪٥٨-٢

– **رشيد رضا:** محمد (ت ١٣٥٤ هـ)، مجلة المنار، **الحياة المِلّية:** ملخص خطاب ألقاه منشئ هذه المجلة في جمعية شمس الإسلام، مجلد: ٢، ص: ٣٠٦.

– **رشيد رضا:** محمد (ت ١٣٥٤ هـ)، مجلة المنار، المقالة الخامسة: **ما ينبغي للمسلمين علمه وعمله**، مجلد: ٢٥، صفحة:٦٧٣. /https://ar.lib.efatwa.ir٤٤٨٧٣/٢٥/٦٧٣

– **رضا:** محمد رشيد، **الخلافة**، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة.

– **الريس:** محمد ضياء الدين، **النظريات السياسية الإسلامية**، ط: مكتبة دار التراث – القاهرة، الطبعة السابعة.

– **الريسوني:** أحمد، **الأمة هي الأصل**، مقاربة تأصيلية لقضايا الديمقراطية، حرية التعبير، الفن، ط: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٢م.

– **زرمان:** محمد، **وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم، دلالاتها وأبعادها الحضارية**، بحث منشور في حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، – جامعة قطر، العدد ١٦، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

– **الزهري:** محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، **الطبقات الكبرى**، ت: د. علي محمد عمر، ط: مكتبة الخانجي – القاهرة ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.

– **زيدان:** عبد الكريم، **أصول الدعوة**، ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

– **سعد الدين التفتازاني:** مسعود بن عمر بن عبد الله (ت ٧٩٣ هـ)، **شرح المقاصد**، ت: الدكتور عبد الرحمن عميرة، ط: عالم الكتب، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

– **سعد:** آلاء، **أبرز العوامل التي ساهمت في ضعف الدولة العثمانية**، مقال على موقع مرسال، يوم ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣ https://www.almrsal.com/post/١٠١٩٠٥٣

– **السعدي:** إسحاق بن عبد الله، **دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين** منه، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر، ٢٠١٣م. (ش)

– **السيوطي:** جلال الدين (ت ٩١١ هـ)، **أسرار ترتيب القرآن**، ت: عبد القادر أحمد عطا، مرزوق على إبراهيم، ط: دار الفضيلة، ص: ٥٥.

– **السيوطي:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (٩١١هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤م.

– **السيوطي:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، **تاريخ الخلفاء**، ت: حمدي الدمرداش، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م. (ش)

– **شاكر:** محمود، **التاريخ الإسلامي، ١- قبل البعثة**، ط: المكتب الإسلامي، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

– **شاكر:** محمود، **التاريخ الإسلامي، ٢- السيرة**، ط: المكتب الإسلامي.

– **الشاهين:** محمد عمر، **أسس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة**، بحث منشور في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، السنة الرابعة: ٢٠٠٩ المجلد:٤، العدد: ٢.

– **شرفة:** حسن، خلافة الإنسان في الأرض في ضوء القرآن الكريم، مقال منشور في مجلة الإحياء، الصادرة عن كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة – الجزائر. العدد الثاني.

– **الشعراوي:** محمد متولي (ت ١٤١٨هـ)، **تفسير الشعراوي**، ط: مطابع أخبار اليوم. (ش)

– **شلبي:** أحمد، **موسوعة الحضارة الإسلامية، ٦- المجتمع الإسلامي، أسس تكوينه-أسباب ضعفه-وسائل نهضته**، ط: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٠م.

– **الشناوي:** عبد العزيز، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ط: مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ١٩٨٠م.

– **صافي:** لؤي، **العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية**، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (١١) الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

– **صالح الغازي:** أماني بنت جعفر، **دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية (الجيش الجديد)**، ط: دار القاهرة، ٢٠٠٧م.

الصاوي: صلاح، **الوجيز في فقه الخلافة**، ط: دار الإعلام الدولي.

– **عابد:** عبد الصمد بن بكر بن إبراهيم، **المسئولية وصلتها بالتكاليف الشرعية في ضوء القرآن الكريم**، بحث لنيل درجة الماجستير من فرع الكتاب والسنة، مقدم إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز.

- **عبد الرحمن:** عائشة (ت ١٤١٩ هـ)، **القرآن وقضايا الإنسان**، ط: دار المعارف.
- العتوم: أيمن، **اقرأ**، مدونة على موقع الجزيرة نت ، يوم ١٩فبراير ٢٠١٨. ١٩/٢/٢٠١٨https://www.aljazeera.net/blogs/اقرأ/
- **عثمان:** محمد رأفت، **رياسة الدولة في الفقه الإسلامي**، ط: دار الكتاب الجامعي، ١٩٧٥م.
- **العسقلاني:** أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، **فتح الباري بشرح البخاري**، رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: المكتبة السلفية – مصر .(ش)
- **على:** محمد كرد، **الإسلام والحضارة العربية**، ط: مؤسسة هنداوي ٢٠١٧.
- **عمر:** احمد مختار عبد الحميد (ت ١٤٢٤ هـ) وفريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ط: عالم الكتب، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
- **عويس:** عبد الحليم، **الظاهرة الحضارية في القرآن والسنة**، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، العدد ٢١.
- **الغريب:** عبد الله محمد، **وجاء دور المجوس – الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية**، ط: مكتبة الرضوان ٢٠٠٥.
- **القرضاوي:** يوسف، **الإسلام حضارة الغد**، ط: مكتبة وهبة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
- **القرضاوي:** يوسف، **المبشرات بانتصار الإسلام**، ط: مكتبة وهبة – القاهرة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م.
- **القرضاوي:** يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط: دار الشروق، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
- **القرضاوي:** يوسف، **ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده**، ط: مكتبة وهبة ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.
- **القرطبي:** محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، ت: أحمد البردوني ، إبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤م
- **القشيري النيسابوري:** مسلم بن الحجاج بن مسلم (ت ٢٦١ هـ)، **الجامع الصحيح (صحيح مسلم)**، ت: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري، وآخرون، ط: دار الطباعة العامرة – تركيا ١٣٣٤هـ.
- **قطب : محمد، كيف ندعو الناس – الغربة الثانية للإسلام** . مقال منشور على موقع العلامة محمد قطب، يوم ٢٤-٢-٢٠١٢ https://mqutb.wordpress.com/٢٠١٢/٠٢/٢٤/١٩٢/
- **قطب:** سيد، **المستقبل لهذا الدين**، ط: دار الشروق.
- **قطب:** سيد، **في ظلال القرآن**، ط: دار الشروق ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.
- **قطب:** سيد، **نحو مجتمع إسلامي**، ط: دار الشروق ١٩٩٣م.
- **قطب:** محمد، **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، ط: منبر التوحيد والجهاد.
- **قطب:** محمد، **كيف نكتب التاريخ الإسلامي**، ط: دار الشروق ١٩٩٢
- **قطب:** محمد، **واقعنا المعاصر**، ط: دار الشروق ١٩٩٧م.
- **قلعجي:** محمد رواس، وقنيبي: حامد صادق، **معجم لغة الفقهاء**، ط: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

- **لاشين:** موسى شاهين، **فتح المنعم شرح صحيح مسلم**، ط: دار الشروق ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ٤٦٦/١ ؛ موقع: رابطة علماء إرتريا، غربة الإسلام وأهله، مقال منشور يوم ٢٠ أكتوبر ٢٠٢١، https://ulamaaeritrea.org/١١٨٤/ ؛
- **لعريض:** سعيد، **نحو منظومة للقيم الحضارية البانية على أساس أمانة الاستخلاف**، مقال منشور على موقع مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية. alamanaweb.ma/نحو-منظومة-للقيم-الحضارية-البانية-على/
- **الماوردي:** على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ)، **الأحكام السلطانية**، ت: أحمد جاد، ط: دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.
- **مجمع اللغة العربية:** المعجم الفلسفي.
- **محفوض:** خالد، **ما هي العوامل التي أدت لانهيار الدولة العثمانية؟** مدونة على موقع الجزيرة مدونات، يوم ٢٩ سبتمبر ٢٠١٩. https://www.aljazeera.net/blogs/٢٠١٩/٩/٢٩/ما-هي-العوامل-التي-أدت-لانهيار-الدولة،
- **مسلم:** مصطفى - مشرفا على نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، ط: كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.
- **مسلم:** مصطفى، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ط: دار القلم، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
- **الملاحمي:** أشرف، **وحدة الأمة وأثرها في مكانتها الحضارية**، مقال منشور على موقع مركز الأمة للدراسات والتطوير، ٢١ أغسطس ٢٠٢١. https://alummacenter.com/?p=٣٠٠٨
- **موقع (الإسلام سؤال وجواب)، ما معنى هذا الحديث: (بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ)** سؤال رقم ٤٥٨٥٥. https://islamqa.info/ar/answers/٤٥٨٥٥/بدا-الاسلام-غريبا-وسيعود-غريبا
- **موقع الإسلام سؤال وجواب، هل توجد أي أحاديث شريفة في فضل طلب العلم في المدينة المنورة؟.** سؤال رقم: ٩٥٨٩٧، https://islamqa.info/ar/answers/٩٥٨٩٧/هل-صحت-احاديث-في-فضل-طلب-العلم-في-المدينة-النبوية.
- **موقع الجزيرة، ستة أسباب أدت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية**، منشور على موقع الجزيرة، يوم ٢٨ مارس ٢٠٢٣. https://www.aljazeera.net/culture/٢٠٢٠/٣/٨/ستة-أسباب-أدت-إلى-سقوط-الإمبراطورية،
- **موقع الجزيرة،: الدونمة كيف ساهموا بإسقاط الدولة العثمانية؟** مقال منشور يوم ٨ يناير ٢٠٢٣. https://www.aljazeera.net/encyclopedia/٢٠٢٣/١/٧/الدونمة-الدولة-العثمانية
- **موقع الدرر السنية**. موسوعة الفرق، تمهيد: **ارتباط التصوف بالتشيع** https://dorar.net/frq/٢٦٤٩/تمهيد-ارتباط-التصوف-بالتشيع **موقع موقع طريق الإسلام**، مقال: الدعوة الإسلامية بين التكوين والتمكين ، ١- الغربة الأولى والتمكين. منشور يوم: ٢٠١٤/٥/١١. https://ar.islamway.net/article/٢٩٤٥٩-/١-الغربة-الأولى-والتمكين
- **موقع: الإسلام سؤال وجواب، ما معنى هذا الحديث: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ)** . سؤال رقم: ٤٥٨٥٥. https://islamqa.info/ar/answers/٤٥٨٥٥/بدا-الاسلام-غريبا-وسيعود-غريبا
- **الميداني:** عبد الرحمن حسن حبنكة (ت ١٤٢٥ هـ)، **كواشف زيوف**، ط: دار القلم - دمشق ١٤٢١هـ - ١٩٩١م.
- **النجار:** عبد المجيد عمر، **عوامل الشهود الحضاري**، ط: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
- **النجار:** عبد المجيد عمر، **فقه التحضر الإسلامي**، ط: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
- **النجار:** عبد المجيد، **الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي**، مقال منشور في مجلة التجديد، الصادرة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الأول، ١٩٩٧م .

- **النجار:** عبد المجيد، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع،** ط: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣م.

- **الندوي:** أبو الحسن، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،** ط: مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.

- **النعسان:** أحمد شريف، **ما هو دستورنا،** خطبة منشورة على موقع الخطباء، يوم ١١ أكتوبر ٢٠٢٢. https://khutabaa.com/ar/article/ما-هو-دستورنا؟

- **الهرري:** محمد الأمين بن عبد الله، **شرح سنن ابن ماجة،** ط: دار المنهاج – المملكة العربية السعودية – جدة ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م، ٧٣/٢٤.

- **الهندي:** فرقان الدين مهربان، **المسئولية الفردية في القرآن الكريم،** رسالة ماجستير، مقدمة لشعبة التفسير، قسم الدراسات العليا، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٤ – ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٤ – ١٩٨٥م.

- **يالجن:** مقداد، **التربية الأخلاقية الإسلامية،** ط: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المقدمة الثالثة – الأمة الإسلامية

المقدمة الرابعة – الشهود الحضاري

المقدمة الخامسة – المجتمع المسلم

المقدمة السادسة – الدولة الإسلامية

المقدمة السابعة – الإمامة والإمام

المقدمة الثامنة – غربة للإسلام

المقدمة التاسعة – المبشرات بانتصار الإسلام


تم بحمد الله